
رواية
أماسيا
تُقى سيف الدين
إبداع



أَمَاسْيا

وفي ظلام الليل الدامس هبت تلك العاصفة لتغرس الرعب بروح "تولين" وهي لا ترى شيئا.... تلتفت يمينا ويسارًا في محاولة لمعرفة أو رؤية أين هي؟ ومن أين هبّت تلك العاصفة بأمطارها الغزيرة، وبرقها الذي يخطف الأبصار، وصوت رعدِها المدمر للقلوب...

لم تفقه شيئا.. لم تجد من تستنجد به سوى الله...

سقطت أرضًا تضع يديها على وجهها علها تمنع عينيها من رؤية أي شيء حتى يأتي أمر الله؛ إما بالإنقاذ، أو بالموت...

تصميم غلاف: مروة صلاح







الفصل الأول

تقفز بخطوات واسعة بقدميها العارية فتترك أثار لقدمها الصغيرة على تلك التربة الطينية ذو الحشائش الخضراء المتناثرة هنا وهناك... ترتكز حولها الأشجار العملاقة ذات الأغصان المتشابكة بعضها ينعم باللون الأخضر الزاهي والأخر يابس لا حياة به بينما تلمع تلك البحيرة بجانبها كالفضة أسفل أشعة الشمس... تمسك بيدها حذائها الأبيض المزين بزخارف أنيقة لامعة بينما تترك الحرية لتلك الأقمشة الحريرية التي تلتف حول جسدها في شكل رداء ملكي ذو طابع عثماني عتيق لترفرف في الهواء الطلق...

تتسلل النسمات الباردة لتداعب ذلك الخمار الحريري فوق رأسها و ما ظهر من شعرها البني المكلل بتاج صغير من الورود الذهبية..

تسلط الشمس أشعتها بخجل على بشرتها البيضاء لتتوهج مثل قطعة الماس نادرة بينما يبتسم ثغرها الصغير في سعادة وراحة وسكينة...

وقفت قليلا وهي مغمضة العينين باسمة تستنشق رائحة المكان المتواجدة به... و بلحظة فتحت عيونها التي يمتزج بهم اللون الأخضر بقليل من العسل الصافي لتقابلها أشعة الشمس الدافئة فتلمع كعيون القطط...

التفتت إلى الخلف تنظر إلى ذلك الظل الطويل يقف ساكنا خلفها... انتقلت بسمتها إلى عينيها وهي تنظر له بينما تمتد يدها إليه بلطف.... وبتلك اللحظة اشتدت أشعة الشمس و اقتحمت جفونها بشدة لتوقظ تولين من ذلك الحلم...

داعبت نسمات جميلة وجنتيها فسرت قشعريرة بجسدها من برودتها ... رفرفت أهدابها ببطء ثم سارعت بوضع يدها فوق عينها حين شعرت

بأشعة الشمس تخترق حصون جفونها بعدما تسللت من خلف ستائر نافذتها و أيقظتها من ذلك الحلم الجميل الغامض المتكرر منذ بضعة أشهر... وضعت يدها على قلبها لتهدئ من دقاته قليلا لا تعلم لماذا تشعر بذلك القلق دائما عند الاستيقاظ من ذلك الحلم... نظرت حولها تحاول استيعاب أين هي؟ إنها غرفتها في أحد فنادق تركيا وخاصة بمدينة أماسيا الرائعة... حين أدركت تولين تلك الحقيقة شقت الابتسامة شفتيها وهي تمط جسدها بشدة ثم قفزت من فراشها والسعادة تغمرها... وقفت تنظر إلى السماء من خلف ستائر نافذتها الصغيرة وقد غمرتها السعادة والحماس لرحلتها التي أعدت لها خطط كبيرة وأحلام منقطعة النظير....

نظرت إلى عقارب ساعة الحائط ثم اتسعت عيونها بشدة حين أدركت أن منتصف النهار قد أوشك ... هرولت بعدة اتجاهات مختلفة بغرفتها دون أن تحدد بأي شيء ستبدأ وهى

تسب حماقتها وكسلها وأخيرا اتجهت إلى خزانتها تحاول اختيار ما سترتدي بيومها الأول في أماسيا....

وبعد بضعة دقائق كانت تقف أمام المرآة لتقيم مظهرها.... شعرها البني ذو الموجات الهادئة الناعمة يحوط وجهها مسترسل بحرية على كتفيها بينما يتزين عنقها بقلادة فضية رقيقة تنتهي بقطعة من الكريستال بشكل قطرة ماء لامعه...

نظرت إلى ثوبها متوسط الطول بلون السماء الصافية... لكنه بلا أكمام و فتحة عنق واسعة.. و بعدم رضا مطت شفتيها وهى تحرك رأسها يمينا ويسارا... ثم ركضت إلى خزانتها تبحث وتبحث... وبينما هي على تلك الحالة سمعت طرقات مزعجه على باب غرفتها و بصوت عال قالت

ثوان يا من بالباب -

ما هي إلا لحظات حتى سمعت صوت ضحكات عرفتها على الفور... إنهم رفقاء رحلتها... بل رفقاء دربها منذ سنوات طوال....

نظرت خلفها لتجد زوجين من العيون تنظر إليها من خلف الباب... ورويدا اتضحت رؤوسهم وعلى وجههم ترتسم ابتسامات أشعلت نيران الغضب بها... ظلا قليلا ينظرا إليها وهى تجلس أرضا أمام خزانتها بينما تتناثر حولها ملابسها بكل اتجاه... وقد طفح كيلها حين سمعت صديقها محمد يقول

- اخبريني مجددا عزيزتي من صاحب مقولة (من سيستيقظ متأخرا سيقوم بدفع كل تكاليف رحلة اليوم؟؟؟؟!!!) هل كان هذا أنت يا عايدة؟

ضحكت عايدة بشدة قائلة

- مستحيل يا زوجي العزيز اعتقد أنها تلك القابعة بين تلال الملابس

حينها قذفت تولين كل ما طالت يدها باتجاههم وهي تقول صارخة

كيف دخلتما....اخرجا الآن أيها المتطفلين -
ضحك محمد بشدة ثم قال
ها هو مفتاح غرفتك... لقد تركته ليلة أمس -
بغرفتنا.... هيا يا متأخرة سننتظرك بالردهة لا تتأخري أكثر.... نريد أن نأكل كل ما لذ وطاب على حسابك اليوم...
أغلق الباب بسرعة وهو يتضاحك مع عايدة قبل أن يصله حذائها الطائر.... في حين زفرت تولين بحنق لكن ما لبث أن ارتسمت ابتسامة هادئة على وجهها اجل خسرت رهانها لكنها بالتأكيد سعيدة بصحبتهم....
و بعد بحث مضنٍ أخرجت تلك السترة البيضاء الرقيقة... ارتدتها ووقفت مجددا تقيم مظهرها.... ثم ابتسمت برضا وهى تهذب بعض خصلات شعرها الثائرة خلف أذنها....
و بعد قليل من الوقت هبطت تولين لتجدهم يأخذا الصور التذكارية بدونها حينها صرخت بهم قائلة

- توقفا الآن يا خائنين العيش والملح... أنت... كيف تبدأ بالتقاط الصور بدوني؟!

التفت كلا من محمد وعايدة لينظرا إلى تلك الصارخة بمنتصف الفندق... كانت عايدة تنظر لها بضحك لمظهرها المرح بينما كانت نظرات محمد يشوبها الامتعاض... اقترب تولين منهم وهى تعقد يدها أمام صدرها فإذا بمحمد يقترب منها وهو يقول

- أليست تلك ملابسك وأنت طفلة؟ لما ترتدي هذا الآن؟

وضعت عايدة يدها على فمها تكتم ضحكاتها وهي تنظر أرضا بينما كانت تولين تتميز غيظا من استهزائه بملابسها... أما عن محمد فكان ينظر لها ببرود تام حين قال

- هذا الثوب قصير هيا إلى غرفتك وارتدي شيئا أخر

رفعت تولين احد حاجبيها وقالت ببرود مماثل

- اعتقد أنى راشدة الآن و لست بوصي علي هيا تحكم بزوجتك فقط يا هذا...

قالت تولين جملتها وهي تنظر له من رأسه إلى أخمص قدميه ثم التفت بتعال وهى تتجه نحو باب الفندق في الوقت التي كادت عايدة تلفظ أنفاسها وهي تحاول كتم ضحكاتها على مظهر زوجها الحانق من تلك الصغيرة التي لطالما اعتبرها بمثابة أخته الصغيرة ولا احد يعلم خباياها سواهما....

أمسكت عايدة بيد محمد و هي تقول له

- لا تعبث معها بأول أيام رحلتنا يا عزيزي و لا تعبس بأول أيام إجازتنا الخاصة يا زوجي

نظر لها بتهكم و بابتسامة مستهزئة قال

- اجل بالطبع رحلة خاصة نصطحب به محرم على ما اعتقد أليس كذلك؟!

عند هذا الحد انفجرت عايدة ضحكا على زوجها أما عنه فنظر إلى السماء يدعو الله أن يلهمه بعض الصبر.... خفتت ضحكاتها وتنهدت وهي

ترسم ابتسامة رقيقة على وجهها ثم وضعت كفيها على وجه زوجها لينظر محمد مباشرة إلى عيونها بينما هي تهمس له قائلة

- أرجوك لا تنزعج... فأنت أدرى الناس بحالتها وما مرت به بحياتها حتى الآن... منذ أخر حلم لها وانتهائه بتلك الفاجعة و موت عائلتها وهي من حال سيء إلى أسوأ....

تنهد محمد وهو ينظر أرضا يتلاعب بحذائه بشيء وهمي... و بينما هم على ذلك الحال صدح صوت تولين مجددا وهي تقول

- هيا يا عصفوري الغرام أمامنا يوم طويل وقد انتصف النهار بالفعل

نظر محمد إلى زوجته عايدة ثم وضع يده على كتفها وهو يحثها على السير لبدأ يومهم الأول بتركيا وخاصة أماسيا....

مضت ثوان ثم دقائق لتصبح بعدها ساعات طوال وهم في لهوهم... و تحت إصرار كبير

من تولين كانت وجهتهم حيث متحف أمراء أماسيا....

اخذ لبهم كل ما كان يحيط بهم بداية من تصميم المتحف ليجسد قصر خشبي ذا طراز عثماني عتيق...إلى تلك التماثيل الشمعية بداخل المتحف حيث جسد كل تمثال أمير من أمراء الدولة العثمانية... فكان منهم من حكم ليكون سلطان الدولة العلية وكان منهم من كان مصيره القتل... وبينما كان يلهو الزوجان ويلتقطا الصور بكل مكان كانت تولين تقف أمام احد التماثيل تنظر إليه بشرود... تدقق بثنايا زينته.... شردت بكل تفاصيله... عمامته... حليه...ملامح وجهه... وأخيرا عينيه... لم تدري كم مضى من الوقت عليها في تحديقها ولم تخرج من دوامات شرودها إلا بسبب سؤال باللغة التركية جاء من خلفها بصوت ذكوري لطيف...

التفتت تولين بفزع في بادئ الأمر لكن ما لبث أن كللت ابتسامة لطيفة وجهها وهي تنظر لوجه ذلك الرجل البشوش ذو الوجنتين العاليتين و البشرة البيضاء التي يغزوها اللون الأحمر وتلك اللحية الخفيفة البيضاء كلون شعره...

تنحنحت تولين بلطف ثم قالت بلغة انجليزية بسيطة

- عفوا سيدي لكن لا أفهمك...

ارتفع حاجبي الرجل واتسعت ابتسامته وهو يقول بانجليزية متقنه...

- مرحبا بك في متحف أمراء أماسيا آنستي... أسالك هل تريدين مساعدة لمعرفة أي شيء هنا؟

ابتسمت تولين وأومأت موافقة... وبأصابع مترددة أشارت إلى التمثال وسالت

- من هذا؟

انـه الأمير مصطفى خان... الطفل الأول - للسلطان سليمان خان الملقب بسليمان القانوني... انظري ستجدين اسمه بتلك اللوحة بجانبه....

نظرت تولين تتأمله من جديد ذلك الوجه الجاد تم صنعه من الشمع ببراعة تشعر بان نظرته تلك لازالت على قيد الحياة.... ظلت تنظر لكل شبر به بينما كان يروى ذلك المرشد كل ما يخص حياة الأمير... ومماته...

لوهلة شعرت بألم يخترق صدرها لا تعلم مصدره... شعرت بهذا الألم مسبقا... حين جاءها ذلك الاتصال لإعلامها بوقائع حادثة والديها كما رأته بحلمها....تشعر بالأسف ربما... أو بذنب.... ندت عنها ابتسامة سخرية وهي تقول ببالها (وكأن الأمر بيدي)...

رفرفت أهدابها وهي تبعد ناظريها عن ذلك التمثال بينما تربت يدها بهدوء على صدرها.... نظر الرجل لها بقلق وهو يسألها

عما بها لتبتسم له مطمئنه إياه أنها على ما يرام... نظرت إلى أرجاء المكان وبدأت بسؤاله عن تاريخ كل تمثال... مضى كثير من الوقت وهو يخبرها تارة عن السلطان سليم الأول و تارة أخرى عن السلطان مراد الأول لكنه يعود مجددا ليقص عن الأمير مصطفى أو عن السلطان محمد الفاتح فهما بالطبع أكثر من سلط عليه الأضواء بهذا المكان....

لم تدري كم مر من الوقت وهى تجلس أرضا بجانب احد التماثيل بأحد أركان المتحف و بيدها كوب من القهوة التركية تستمع بانتباه لقصص ذلك الرجل الجالس بجانبها...

انتشلها صوت محمد من دوامات قصص وأساطير تلك العصور حينما هتف قائلا

- أنت هنا ونحن نبحث عنك بكل شبر... يا الهي لو كنت جرو صغير أقوم بعنايته لم يكن ليضل طريقه عني مثلك...

نظرت تولين إلى وجه محمد بشرود قليلا وقد داهم عقلها صورة جرو ذهبي يركض بين الأشجار وهو ينفض قطرات المياه من جسده.....

قطب محمد بقلق حين لاحظ شرودها وقد اتسعت حدقتيها قليلا وارتعشت شفتيها.... اقترب منها وهو يلوح بيده إمام عينيها مخافة أن تكون بلحظتها تلك ءترى رؤية ما مجددا... رفرفت أهداب تولين لتعود إلى الواقع مجددا وهي ترى القلق يرسم لوحه فنيه على وجه صديقها العزيز وخلفه تقف عايدة وقد انتقل إليها بعضا من قلقه...

و بلحظة واحدة ارتسمت ابتسامتها العبثية على وجهها وهي تقول

- يا الهي لا تأتي إلا بالأوقات الرائعة لتعكر صفوها كعادتك... ألا تريان أنى استمع هنا لهذا الموسوعة الرائعة....

نظر محمد إلى ذلك الرجل الذي يبتسم بهدوء لذلك المشهد الأخوي الجميل بينما يجلس على ذلك المقعد الخشبي الصغير... تنهد محمد بقليل من الراحة وهو ينظر أرضا ثم نظر إلى الرجل بابتسامه هادئة وقال بلغه انجليزية متقنة

- مرحبا سيدي اعتذر لأني لم القي التحية من قبل فتلك الحمقاء تصيبنا بالجنون باختفائها المتكرر....

اتسعت ابتسامة الرجل لتتحول إلى ضحكة جميلة وهو يقول

- مرحبا بكم بمتحف أمراء أماسيا... هل تريدون سماع بعض القصص معنا؟

رفرف جفني محمد وقد ظهرت ابتسامه مترددة على شفتيه وهو ينظر لكلا من الرجل وتولين.... و بعد مضي قليل من الوقت ودع الأصدقاء الثلاث ذلك الرجل الكبير ذو الوجه البشوش...

خرج كلا من عايدة ومحمد وخلفت تولين تمشي بخطوات بطيئة تفكر فتلك الرؤية لكنها ما لبثت أن نفضت رأسها و أسرعت لتجاري خطوات محمد وعايدة...

وعند غروب الشمس كان الأصدقاء يجلسون بمقهى صغير يتناولون الفطائر الساخنة مع كؤوس الشاي التركية اللذيذة...

كان محمد يتفحص الصور التذكارية هو وعايدة في حين كانت تولين تمسك ملعقتها وتقلب كأسها ببطء وهدوء وقد شردت بتلك القصص التي سمعتها اليوم...

نظرت عايدة إلى كأس تولين والى يدها التي تدور وتدور بتلك الملعقة ثم نظرت إليها وهي شاردة... وكزت محمد برفق لينتبه هو أيضا لتلك الحالة... تنحنح محمد ثم بعد صمت دام لعدة ثوان قال مباشرة

- هل راودتك أحلام أخرى؟

ارتعش جفني تولين ثم نظرت إلى عايدة التي كانت تنظر إلى محمد بغيظ لصراحته المطلقة فلقد اتفقا على ألا يذكرا أي شيء أحلامها....
وجهت تولين نظراتها إلى محمد الذي ينظر لها بثبات متجاهل حنق زوجته... ثم نظرت إلى الفطائر أمامها قليلا وهي تهمس قائلة
- اعتقد أنى....
رفعت نظرها إلى عيونهم و قد صمتت لوهلة لا تعلم ما تخبرهم... وجدت نظرات القلق تقطر من عيني عايدة بينما وجه محمد الصلب كان دلالة كافية لما يمر به من خوف أن تكون رأت شيء مزعج مجددا....
ابتسمت وقالت
- اعتقد أنى تخلصت من تلك اللعنة ....أنا أنام كجثه هامدة لا أرى لا اسمع لا أتكلم
ارخت عايدة جفنيها وقد زفرت بارتياح بينما لم تتحرك عضلة واحدة بوجه محمد الذي طال تحديقه بوجهها دون أن يتفوه بشيء... أمسكت

تولين كأسها وبدأت بشربه وهي تعود مجددا لمرحها في محاولة لتناسى تلك الرؤى المتكررة المتتالية...

مضى اليوم بكثير من المرح وقليل من القلق... اقتحم اللون الأزرق الداكن السماء بينما تلألأت النجوم وقد شردت تولين بأحلامها الغامضة وهي تراقب تلك اللآلئ بالسماء... أغمضت عينيها بينما رفعت كفها الصغير تربت بحنو على قلبها قائلها لنفسها (لا تخافي تولين لا شيء مما رأيته يخيف لا تخشي شيء لقد مضت كل الصعاب مهما حدث لن يكون أسوأ مما كان)

تنهدت ونظرت مجددا إلى السماء لتشرد بعيدا... و تحت سماء واحدة كان الزوجان بجناحهما يجلسا بتلك الشرفة ينظر محمد إلى نقطة وهمية خلف عايدة بشرود بينما تجلس عايدة أمامه تنظر إلى صورهما وقد توهج وجهها بابتسامتها الحالمة... رفعت نظرها إلى

زوجها لتجده هائم بعالم أخر بعيدا عنها...
نظرت له بهدوء قليلا قبل أن تقول
هلا أشركتني بما يدور ببالك؟ -
تنهد محمد واعتدل بجلسته قليلا... نظر لها
بثبات وهو يقول
أتمنى ألا تكوني خدعت بكذب تلك البلهاء -
أي كذب؟ أنا لا افهم -
نظر محمد بيأس إلى السماء بينما كسا
الامتعاض وجه زوجته حينما قال
يا الهي أحقا كنا ثلاث أصدقاء مقربين لعدة -
سنوات؟ كيف لكي أن تخدعي بتلك الحركات
الصبيانية حينما ادعت أنها لا ترى شيء بينما
كانت شاردة اليوم بطوله!!! حقا عايدة فيم
تفكرين؟
رفرفت أهداب عايدة وقد جمدت ملامحها ثم
نظرت بعيدا بشرود بينما زفر محمد بشدة وهو
ينحي نظراته عنها وقد لعن نفسه و لعن فمه

الذي يتفوه بما يجول بخاطره دون الاعتبار لأحد....

انتشله من شروده صوت عايدة البارد وهي تقول....

- اعلم أنى لا اهتم بطريقة كافية بما تمر به تولين من تغيرات لكن... ألا تعتقد انك تهتم بالقدر الذي يكفيني وإياك..وبرحلتنا الخاصة؟

نظر محمد لها بذهول ما لبث أن تحول إلى نوع من السخرية وهو يقول

- لا اعلم هل تتذكري أم لا لكن انضمامها لرحلتنا كانت فكرتك أنت... يا الهي ما بك عايدة هل أنت مستاءة من اهتمامي بتولين ؟ الست أنت من قال أنها مرت بالصعاب و يجب أن نراعها؟

ارتجفت أهداب عايدة وقد ضربتها كلماته بشدة لتوقظها من غيمة الغيرة التي كست عقلها وقلبها...

تنهد محمد و قد شعر بضيق بصدره لنظرات زوجته الحزينة... وقف وخطى نحوها حتى جثا أمامها وهو يقول بمرح

- قد أسيئ الظن لكن أتلك غيرة الإخوة التي اسمع عنها؟

أطلقت عايدة ضحكة مستنكرة ما لبثت أن تحولت إلى ضحكة خجل حينما احتضنها وهو يربت على رأسها بحنو....

و بظلام الليل الدامس هبت تلك العاصفة لتغرس الرعب بروح تولين وهي لا ترى شيء..... تلتفت يمينا ويسارا في محاولة لمعرفة أو رؤية أين هي؟ ومن أين هبت تلك العاصفة بأمطارها الغزيرة وبرقها الذي يخطف الأبصار وصوت رعدها المدمر للقلوب.... لم تفقه شيء... لم تجد من تستنجد به سوى الله سقطت أرضا تضع يدها على وجهها تمنع عيونها من رؤية أي شيء حتى يأتي أمر الله إما بالإنقاذ أو بالموت....

مضى وقت لم تعلمه وهي تخفي عيونها إلى أن شعرت بشيء ما يقترب منها... زاد انكماشها وهلعها لكن ما لبث أن اختفى هذا الهلع ليحل مكانه التعجب... تعجب وفضول لذلك الذي يلهث حولها... أفرجت أصابع يدها عن عيونها التي بالكاد ترى بها لكثرة دموعها المتساقطة لتراه... انه الجرو مجددا يجثو بجانبها بينما هي تضم قدمها إلى صدرها برعب تحت تلك الشجرة العملاقة ....

انتفضت تولين بشدة لتنهي هذا الكابوس الجديد... تلك المرة الوضع لا يبشر بالخير... استقامت لتجلس على فراشها وبأصابعها المرتعشة تخللت خصلات شعرها المبلل بقطرات عرقها لتجمعه بشدة خلف رأسها وهى تغمض عينها بشدة وتحاول التنفس بهدوء.... لم تدرى كم فات من الوقت وهى جالسة تحدق ب لا شيء إلى أن تسللت أشعة الشمس باستحياء إلى فراشها لتلمس كفها فيسري

الدفء بجسدها...نظرت إلى عقارب الساعة تشير إلى السادسة والنصف صباحا... خطت خارج فراشها لتقف وهي تحتضن كتفيها أمام نافذتها تراقب الشمس وهى تستيقظ من سباتها رويدا رويدا بينما تتشاجر العصافير بتلك الشجرة أمام فندقهم أي واحد منهم سيكون ذو تغريده أعلى من الأخر ليكون الوضع كارثي و صخب للغاية...

ابتسمت بهدوء وهي تردد بداخلها أن ما مر كان الأسوأ... تنهدت وقررت ان تسمح لشخصيتها المرحة الهوائية بالتغلب على تلك المذعورة بداخلها... نظرت إلى تلك الخريطة السياحية لتقرر أي الأماكن ستزور اليوم؟ ابتسمت بهدوء وهي تشير لذلك المكان الذي خطف أنفاسها حين رأت صِوَره ... بحيرة بوراباي وغابات أماسيا الرائعة....التفتت تتجه إلى خزانتها لتبدأ يومها وبعد قليل من الوقت وقفت تقيم مظهرها بالمرأة... سروالها

الرياضي وشعرها المقيد خلف رأسها في شكل ذيل الخيل بينما يلتف حول جيدها الأبيض وشاح صغير باللون الوردي ليعطيها مظهر رقيق جذاب... أمسكت طرفي سترتها الرياضية وأغلقتها وهي تنظر إلى عينيها بالمرآة نظرات شقية وابتسامة تتسم بالمرح والمشاكسة الجذابة تتلاعب على شفتيها الورديتين الشهيتين.... وبعقلها تتوعد نفسها بيوم غاية ف المتعة حد الهلاك....

أخذت حقيبتها الصغيرة حيث وضعت كل ما قد تحتاجه خلال نزهتها ثم ارتدت حذائها الرياضي وخرجت من غرفتها ركضا إلى غرفة أصدقائها لتوقظهم من بكرة الصباح بأكثر الطرق إزعاجا بالحياة...

أما عن ساكني تلك الغرفة كانا يستمتعا بنومهما الهنيء لكن سعادتهم لم تكتمل حين

استيقظا بتأفف على طرق تولين المستمر بإيقاع مزعج وهي تنشد بطريقة مضحكة إحدى أغاني المسلسلات التركية بصوت مرتفع مما جعل أحد خادمي الفندق ينظر لها ضاحكا فتبادله تولين الضحك وهي تغمز له بألا يهتم لما تفعله....

أنتفض محمد وهو مشعث الشعر عازما على تلقينها درسا مثل الأطفال بينما كانت تفرك عايدة عيونها محاولة فهم ما يحدث هنا فعقلها المسكين لا يستطيع تكوين صورة واضحة بعد....

فتح محمد الباب بعنف لتطالعه تولين بعيون بريئة وابتسامة مشاكسة قائلة بهدوء تام

صباح الخيرات الكثيرة يا صديقي العزيز الم تستيقظا بعد؟ -

- آه تولين آه كم أود صفعك على مؤخرتك مثل

الأطفال الآن... هل هذا تصرف إنسان بكامل قواه العقلية....هيا هيا اذهبي من هنا ودعينا ننال قسط من الراحة....

كاد أن يغلق بابه بوجهها حين اندفعت تولين إلى الغرفة وهي تستعجلهم وكأنها لم تسمع حرفا واحد مما قيل لها في حين كانت ابتسامة الصباح المشرقة تشع على وجه عايدة لذلك العرض الصباحي المليء بالمشاكسة... نظرت لزوجها الذي قد تمكن منه الغيظ من تصرف تولين لتتنهد وتستقيم من فراشها لبدء يومهم فما كان منه إلا أن تنهد بيأس وبدأ ف الاستعداد هو أيضا....

وبعد قليل من الوقت كانت تقف لتشاهد ما قد حبس أنفاسها عدة لحظات...

تلك الأشجار الضخمة العتيقة حقا غريبة المظهر... كيف يمكنها أن تجمع بين مظهر الموت والحياة بنفس الوقت؟! كيف يمكنها أن

تحتوي على أفرع يابسة صفراء لا حياة بها وأخرى خضراء تزدهر وتشع بالحياة؟ تقف تلك الأشجار بشموخ الملوك داخل غابات أماسيا... وفي ظل إحدى الأشجار كانت تولين تنحني لتلتقط أنفاسها لاهثة بعد فترة لا بأس بها من الركض...

تأخذ شهيقا كبيرا محمل بعبق الأشجار الخضراء وهي مغمضة العينين وعلى ثغرها الصغير ترتسم ابتسامة حالمة ف ها هي الآن بمدينة الأمراء تحظى بصحبة رائعة في طقس لطيف... أذنيها ترهفان السمع لصوت الطيور المستيقظة صباحا معها فكانت هي وأصدقائها أول من وصلوا إلى حدائق أماسيا للتمتع بهدوء الصباح والصيد في بحيرة بوراباي... تزفر براحة وهي تتخيل هل بيوم ما قام أحد السلاطين القدامى أو أحد الأمراء بالصيد بهذا المكان والتنزه نهارا كما تتنزه هي الآن؟؟

تنهدت قائلة لنفسها بهمس

بالطبع فعلوا ألم تكن تلك أرضهم وهم ملوكها

-

- ألا تكفين عن أحلام اليقظة تلك عن الملوك وسلاطين الماضي العتيق؟؟

جملة قالها محمد من خلفها كانت كفيلة بإفزاعها وإخراجها من خيالاتها... ألتفتت تواجهه وهي تنظر له شذرا ثم تحدثت وهي تضغط على كل حرف...

كم أود قتلك حين تفعل بي هذا ألا يوجد احم - أو دستور بقاموسك يا هذا ثم أين زوجتك تأتي لتلهيك قليلا عنى ألستما حديثا الزواج؟

قهقه محمد على مظهرها الحانق وهو ينظر إلى زوجته التي تشاركه الضحك ثم قال

اجل وكان يمكن أن تكون تلك الرحلة هي -

شهر الاستجمام والانسجام الخاص بنا لولا تطفلك علينا

عند هذه الجملة ضاقت حدقتي تولين وهي تحملق بهم وكأنها تخطط لأبشع الجرائم بحقهما مما أدى إلى انفجار الزوجين بنوبة ضحك على تصرفاتها الطفولية....

- رائع تستحقان جائزة أفضل مزعجين على سطح هذا الكوكب ... ها أترِيان؟! حتى السماء تعكر صفوها بسببكما واختفت الشمس خلف غيوم سخافتكما فلولاي لما استمتعتم بهذا الجمال يا ناكري الجميل...

هنا تدخلت عايدة قائلة

- من؟ من المزعج يا بؤبؤ عيني؟! المزعجة هي من ركضت إلينا من بكرة الصباح تصرخ كي نستيقظ وكنا من افتتح الحديقة كما ترين يا إلهي لو كنا بائعين خضروات لم نكن لنستيقظ

في مثل هذا الوقت...
احتضنها محمد قائلا
كم أنت هائلة زوجتي العزيزة... اجل يا -
لبؤتي الغالية ما أجملك حين تقفين بشراسة
لحمايتي من هجمات لسانها السليط...
التفتت له عايدة محتضنه وجهه بكفيها مقتربة
منه وهي تهمس بحب
- ...من يقترب منك يواجهني قبلا

تقدمت تولين عنهم بضع خطوات وهي تمط
شفتيها بضيق وتقزز متجاهلة رومانسيتهم
السخيفة بنظرها ولضحكاتهم المغيظة لها وهي
تتمتم بكلام غير مفهوم اغلبه سباب لهما في
حين حاول الصديقين مجاراة خطواتها السريعة
والتي كانت كالعادة غير محسوبة ومتهورة فلم
...تلاحظ ذلك المنحدر
بينما كانت تسير بلا حرص شردت بتلك
الشجرة العملاقة أمامها تشعر أنها مألوفة

وكأنها رأتها من قبل... وكأنها تلك التي كانت تستند إليها بالحلم... لم تنتبه تولين لخطواتها ولم تعي لشيء سوى لصراخ أصدقائها بصوت واحد

-انتبهي تولين ...

لم يدرك عقلها ماذا حدث فقد أظلم الكون بلحظة واحدة حين زلت قدمها وسقطت من أعلى هذا المنحدر....

رفرفت أهدابها ببطء حين شعرت ببضع قطرات من المياه تهطل برقة على وجنتيها... فتحت عينيها لتواجه سماء ملبدة بالغيوم قد حجبت نور الشمس ليحل ظلام مقبض بينما كانت تلك القطرات الصغيرة من المياه تنذر بأنها مجرد بداية لعاصفة هوجاء... التفتت برأسها يمينا ويسارا علها تفقه ما حدث.... فتذكرت... لقد سقطت من أعلى المنحدر... ابتسمت لحماقتها

وعقلها يقول لها أنها ما إن تقف ستجد أصدقائها يسخرون منها كالعادة....

حاولت النهوض لكن ما لبثت ابتسامتها أن اختفت ليحل مكانها الامتعاض الشديد حين شعرت بآلام مبرحة تكاد تفتك برأسها بلا هوادة... لا تعلم ما حل بها... الآم تكاد تقتلها بجميع أنحاء جسدها وأولهم رأسها المسكين كأنها تعرضت للضرب بمطرقة كبيرة هشمت جمجمتها أما عن شعورها بجسدها فكأنه تفتت إلى مائة قطعة وجمع مرة أخرى....
رفعت يدها تمسد رأسها بهدوء وهي تلتفت برأسها يمينا ويسارا علها تجد أحد أصدقائها ليمد لها يد العون فجسدها يؤلمها للغاية... لكنها لم تجد أحد....

نهضت ببطيء وهي تنظر إلى المنحدر قائلة بسخرية

انه ليس بالمنحدر الكبير لينتج كل ذلك الألم -
....أم إنني أصبحت قطعة بسكويت
نظرت إلى السماء تتبين أين الشمس
الساطعة؟؟ تشعر وكأنها بوقت ما بعد الغروب
لا الشروق...
تلفتت يمينا ويسارا علها تري أحدا من أمن
الغابات في ذلك المكان فلم تجد أحد.... ظلت
تنادي على أصدقائها فلم يصلها أي إجابة
قاومت ألآم جسدها وتسلقت بصعوبة بالغة ذلك
المنحدر لتقف فاغره ألفاه....
لا أحد لا أثر لأي بشرى هنا ... لا أصدقاء لا
امن لا أحد.... وفجأة دوى صوت زلزل كيانها
لتقفز رعبا منه فكان هذا صوت الرعد المهيب
القوى.... بدأت الأمطار بالهطول بغزارة لا
تستطيع رؤية شيء في حين اظلم المكان
حولها وكأن الليل الحالك قد حان موعده...
ظلت تدور حول نفسها وهي تلهث وتمسح
وجهها من قطرات ماء المطر المختلطة بدموع

فزعها علها ترى أي شيء أو تفهم ما يحدث هنا حاولت الصراخ لكن صوتها خرج ضعيفا بالمقارنة مع صوت الرعد ومع كل وميض لبرق السماء كانت ترى خيالات الأشجار الضخمة ليتضاعف رعبها.... زاغت عينيها وقبض قلبها وفقدت السيطرة على قدميها فسقطت أرضا وهي تصرخ مستغيثة قائلة (يا الله)

وفي جانب أخر من عالمنا الغير مفهوم كان محمد يقف حيث اختفت تولين بمعالم مصعوقة و تنفس غير منتظم ممسكا رأسه بيديه غير مدرك تماما ما حدث يعيد المشهد بعقلة ألاف المرات في الثانية عله يدرك أين اختفت تولين فلا يعلم... أعاد المشهد برأسه مرة أخرى ببطء شديد فكل ما رآه هو قدمي تولين تزل وتقع من أعلى المنحدر فيركض هو وزوجته للاطمئنان عليها وهم يصرخون طالبين المساعدة فتظهر

هوة سوداء واسعة ولتختفي تولين بداخلها وكأن شيئا لم يكن....

أما عن عايدة زوجته فكانت جالسة بجانب قدمي زوجها حيث اختفت رفيقة دربها... وجهها شاحب كالموتى وعينيها متسعتين وكفيها مطبقين على شفتيها تكتم أي شهقات أو صراخ قد يصدر منها بأي لحظة.... كيف؟! كيف اختفت أمام أعينهم... بحثوا وبحثوا علهم يجدوا أحد الآبار أو الخنادق أو حفرة عميقة فلم يجدوا أي شيء .... بكل بساطة لا شيء ... أرض طبيعية وأوراق شجر متناثرة هنا وهناك ووشاح وردي كانت تربطه تولين حول عنقها هو فقط العلامة الوحيدة على أنها كانت هنا منذ دقائق....

ماذا يعني هذا بحق الله؟ كانت أمام أعيننا وبغمضة عين لا توجد ما هذا الجنون؟ -

جملة صرخ بها محمد بعد أن خرج أخيرا عن طوره وفقد عقله تماما لما رآه بأم عينه....
حينها فقدت عايدة قوتها المستمدة من هدوء زوجها ليبدأ جسدها بالانتفاض وقد بدأت بنحيب صامت...
حاول بعض أفراد الأمن القلقون في التواصل مع الزوجين التعيسين لكن لم تكن اللغة التركية جيدة عند أيا من محمد أو عايدة...
وكانت نجدتهما أحد رجال الأمن الذي يجيد الانجليزية قليلا للغاية.... حاول ذلك الرجل التواصل معهم قائلا
اهدأ يا سيدي وأستجمع قواك قليلا - ....
نظر له محمد بنظرات زائغة وبصوت مهتز ضائع قال
عن أي قوه تتحدث يا هذا أقول لك اختفت .... - هكذا

نظر له الرجل في توتر وقلق واضحان فلقد روى له صديقه والذي كان أول الوافدين إلى موقع الحادث عند سماع صراخهما ورأي ما حدث بكل تفاصيله....

وعلى حين غرة استحال النهار إلى ليل والهدوء إلى صخب حين هبت عاصفة قوية حجبت ما تبقى من أشعة الشمس بغيومها السوداء وأرهبت القلوب بصوت الرعد المخيف وخطفت أبصارهم بنور برقها المهيب....

تساقطت الأمطار فوق رؤوسهم لساعات وساعات وهم يبحثون عمن تتواجد معهم على نفس البقعة من الأرض لكن هناك حائل و سد منيع بينهما....

و بكلا الحالتين يعم الظلام و الحزن.... والخوف....

زحفت تولين إلى جانب إحدى الأشجار وجلست تضم ساقيها إلى صدرها خافضة رأسها المكلل

بشعر بني مبعثر مبتل... ضغطت بيدها على عينيها بشدة كي لا ترى أي شيء ولو صدفة في ضوء البرق الخاطف... ولسان حالها لا ينطق سوى بالدعاء والاستغاثة بالله....

وفجأة صمت كل شيء... انتهت العاصفة لكن خوف تولين لم ينتهي... ظلت على حالها لمدة لا تعلمها لكن ليست بالقليلة حتى غلبها الإرهاق والبرد فتكورت بوضع الجنين تحت تلك الشجرة وقد قرر عقلها الغياب عن الواقع المبهم فلم تفق إلا على إشراقه شمس صباح جديد.... أنتفض جسدها حين شعرت بشيء يقترب منها وازدادت انكماشا... أحكمت غلق عينيها وهي تتخيل أنه أكيدا تلك هي نهايتها... بالتأكيد ستموت الآن وبدأ عقلها في تصوير مشاهد قتلها بأبشع الطرق لأنها واثقة بأن ما يقترب منها أحد وحوش الغابات الأسطورية أو قاتل مختل عقليا يا إلهي ما كانت ترجوه ألا

يكون مختل سادي فالموت سيكون حينها رحمة.... لكن مهلا لم يكن هذا الشيء يفعل سوي انه يتحرك هنا وهناك حولها تسمع صوت أقدامه ولهثه....

وببطيء شديد نظرت بإحدى عينيها لتبصر جرو صغير مبتل تماما يقف بجانبها ويحرك ذيله بسعادة ناظرا إليها بثبات... أرخت جسدها لا شعوريا وهي بحالة من الذهول... اتسعت عينيها بشدة حين بدأ الجرو في نفض جسده من الماء الملتصق به حينها تذكرت تلك الرؤية العابرة بالمتحف.... قبض قلبها مخافة مما سيحدث لها لقد بدأت اللعبة للتو....

الفصل الثانى

وقفت تولين بعدم أتزان تفكر كيف فقدت وعيها؟؟؟ هل مضى من الوقت القليل؟ رفعت معصمها تنظر إلى ساعة يدها لتقطب قليلا وهي ترى العقرب يدور بعكس اتجاهه المعتاد... قطبت باستغراب وهي تطرق بأناملها على زجاج الساعة.... رفعت نظرها وقد بدأت بالتلفت يمينا ويسارا علها تجد أي شخص يساعدها هنا ،فلم تجد ما يدل على وجود أحد غيرها.... نظرت مجددا لذلك الجرو الذي يجلس قبالتها ينظر لها ببراءة...

بدأت قدميها بالتحرك بخطوات متمهلة حذرة هنا و هناك لكنها سمعت صوت أقدام صغيرة تعبث خلفها مع كل خطوة تخطوها... نظرت خلفها أرضا لتجد ذلك الجرو يتحرك معها بكل خطوة....

قررت عدم الاستسلام كثيرا لذلك الوضع المريب وانتظار ظهور أصدقائها الأنذال أو أحد حراس المكان ، بدأت بالسير بين الأشجار الطويلة باتجاهات مختلفة علها تجد أحد يساعدها أو تجد أصدقائها....

ما تستغربه بالفعل هو غياب أصدقائها بهذا الشكل!!!ألم يكلفوا نفسهم عناء البحث عنها؟!

أم أنهم تمسكوا بتلك الفرصة وتركوها ليستمتعوا بشهر العسل المهدور حقه!

ابتسمت تولين حين جال ببالها ذاك الخاطر... حقا هي كانت شيطانه صغيرة حين أقحمت نفسها برحلتهم الجميلة تلك...

لعدد من الساعات الكثيرة التي لا تعلمها سارت تولين بكل اتجاه بتلك الغابات لتجد نفسها تعود لنقطة البداية ، ضاق صدرها مجددا بالخوف والتوتر لكنها هدأت من روعها على الأقل ها قد ظهرت الشمس مجددا لتضيء المكان

حولها...
أخذت شهيقا كبيرا وزفرته بهدوء لتهدئة نبضات قلبها السريعة و كررت فعلتها مرة أخرى ليمتلئ صدرها بهذا الهواء البارد النقي وهي تربت على قلبها...
نظرت يمينا وقالت
لقد بدأت السير من هذا الاتجاه سابقا سأتجه يسارا تلك المرة علني أجد الطريق
سارت تولين بالاتجاه المعاكس محاولة بشتى الطرق التفريق بعلامات صغيرة بين الطرق حتى لا تعاود كرتها وتعود إلى نقطة الصفر مجددا وبالفعل وصلت لمكان أخر.. إلى مكانها المفضل التي جاءت من أجله "بحيرة بورباي" وقفت أمامها منبهرة بمظهرها الجميل ومياهها الرائعة استنشقت الهواء النقي البارد وابتسمت لمداعبة النسمات لشعرها البني المشعث الملتصق به بعض الأعشاب جراء نومها بأرض الغابة....

كاد ذلك الجمال المحيط بها من كل اتجاه ينسيها همها الأول وهو أين يوجد أصدقائها؟! وكيف ستعود؟! كل الأشجار متشابهة ملتصقة ببعض بطريقة ما تخفي معالم الطرق ، تنهدت وجلست أمام البحيرة لتريح قدميها قليلا نظرت إلى السماء لتجد الشمس قد انتصفت نـاذره إياها بأن نصف اليوم قد مضى وهي تدور بحلقة متصلة للبحث عن مخرج من تلك الغابات... غابات حينما رأتها أول مرة كانت تريد التواجد بها وبشدة والآن تريد الفكاك من براثنها....!

نظرت بحسرة إلى البحيرة وهي تتمنى لو أنها مع أصدقائها ليتمتعوا سويا بهذا الجمال... ضاقت عيونها بتوعد لهما على تركها بهذا الشكل و بمنتصف الغابات فمهما فعلت لهم فهذا أسوأ مزاح على الإطلاق!

ماذا إن أصابها مكروه وحدها... بالتأكيد هم

يتضاحكان عليها الآن لكن مهلا فدائرة الكون تدور وسيأتيهما الدور بيوم ما...

جلس الجرو بالقرب منها لا تعلم لم يتبعها بتلك الطريقة لكن لسبب ما تستشعر الأمان معه...

مرت فترة إلى أن قررت العودة حيث بدأت مجددا علها تجد أحد أصدقائها لينهي هذه المزحة السخيفة....

وصلت إلى حيث بدأت لينهار جسدها تعبا أسفل أحد الأشجار، سمعت أصوات صادرة عن معدتها لتنبهها بأنها تتضور جوعا وعطشا أيضا ، لكن ما بيدها حيلة ستحاول إعادة الكرة مرة أخرى علها تجد مخرج لها لكن بعد أن ترتاح قليلا...

و بتلك اللحظة كان يقف رجل طويل القامة عريض المنكبين حليق الذقن ملامحه تجمع ما بين الصلابة والوسامة بنفس الوقت حيث

الأنف المستقيم والشفاه الرفيعة والعيون البنية اللامعة التي لا تغيب عنها شاردة ولا واردة نظراته تحاكي نظرات صقر مترقب باستمرار....

ملابسه مر عليها عصور وعصور حيث العمامة السوداء والقميص الواسع الفضفاض والسروال الواسع الذي يحكمه من الخصر حزام جلدي قوي وخنجر ذهبي لامع يتوسط ربطة خصره ويكتمل المظهر التركي القديم بالحذاء الأسود الجلدي

يقف بجانب خيمته بمنتصف الغابات ينظر يمينا ويسارا عله يجد ذلك الجرو المشاكس لا يعلم أين ذهب منذ تلك العاصفة ليلة أمس ، زفر بحدة ونظر إلى كومة الحطب ليجد أنها قليلة لتمضية اليوم لذا أمسك بفأسه وذهب ليأتي بقليل من الحطب لتدفئته لليلة أخرى

وأخذ يطلق بعض الصفير عله يجد صديقه المشاكس الجرو الصغير...

لم تطل راحة تولين حيث سمعت صوت صفير أحدهم بعيدا منها انتبهت له وقفزت تترقب القادم الذي يتضح صوته أكثر ويعلو أكثر دلالة على اقترابه من موقعها.... لكن يبدو أن ذلك الصفير لم يكن غريب على هذا الجرو الذهبي اللطيف حيث تضاعفت سعادته ونباحه وقفزه هنا وهناك حتى وصل صاحبه له....

حالة من الدهشة المفرطة عمت تلك البقعة حيث يقف ذلك الرجل المهيب أمامها هي القصيرة بالنسبة لطوله ، ظلت تولين تحملق به وبشكله الغريب وثيابه التي مر عليها قرون تراها فقط بالأفلام التاريخية...
و حين لمحت ذلك الخنجر بخصره وذلك الفأس بيده دب الرعب بقلبها ليشحب لونها ويجف

حلقها وقد ظهر خوفها جليا حين تراجعت للخف خطوتين حذرتين...

أما مقابلا لذلك الرجل كان يقف كلبه الطيف الذهبي مشعث يقفز هنا وهناك فرحا بتواجد صديقه وبجانبه تقف فتاه جميلة لكن غريبة المظهر... مشردة بمظهرها المبعثر وشعرها المشعث يلتصق به بعض الأعشاب وجهها الشاحب و شفتيها المرتعشتين، ترتدي من الملابس ما هو غريب تماما عنه ،فهو لم ير من قبل أحد النساء ترتدي سروال كما أنه سروال غريب المظهر وسترة لم يرى مثلها أيضا...
قد تكون من بلاد أخرى لكنه دار بمعظم البلاد العربية لم يجد من يرتدي تلك الملابس أو من يكون بهيئتها قط....

دام الصمت طويلا إلى أن نطق ذلك الرجل

بصوت رخيم بلغته الأم يسألها عن هويتها،أما عنها فكل كلمة كانت قد تعلمتها راحت إدراج الرياح حاولت أن تسترجع حرفا واحدا من اللغة التركية فلم تفلح ولم تستطع غير النطق بصوت مبحوح بعد تنحنحها عدة مرات

ـ أنا لا أفهمك

اتسعت عينيه بشدة كان موقن أن تلك المخلوقة ليست من بلاده إنها عربية الأصل لكن لهجتها غريبة بعض الشيء....

ـ هل أنت عربية الأصل؟

دب الأمل بقلبها أخيرا فاقتربت منه بضع خطوات وتنفسها يزداد وتيرته حين ازدادت دقات قلبها فرحا بوجود من يستطيع مساعدتها وفهمها بل وجود شخص غيرها بهذا المكان ... ارتسمت ابتسامة على وجهها ولمعت عيونها بالأمل حين أجابته قائلة

ـ أجل سيدي أنا عربية الأصل أرجوك ساعدني أنا لا أفهم شيء أعتقد أنني تائهة لا أعلم لقد

كنت مع أصدقائي ثم سقطت من أعلى ذلك المنحدر ثم فقدت الوعي غالبا لا أعلم فاستيقظت على تلك العاصفه بأمطارها الغزيرة ثم بحثت عن أصدقائي لم أجدهم هم عرب مثلي ولم أجد أي من أفراد الأمن هنا أرجوك ساعدني كما أنني أشعر بالبرد الشديد هل يمكنك إرشادي لأقرب مركز للشرطة هنا أو أي شيء أرجوك...

كان الرد الوحيد على كلامها الكثير الغير مفهوم مطلقا هو انفراجه بين شفتيه وتقابل حاجبيه في شكل رقم سبعة رائع ونظرات عينيه تقول جملة واحدة فقط (من تلك المجنونة وما هذا البلاء ببكرة الصباح؟!!)
نظراته المرتابة منها جعلتها تتيقن أنه لم يستطع فهمها جيدا فأخذت شهيقا وهي تهدئ من روعها لكي تستطيع التواصل معه فأكملت
- سيدي أنا أدعى تولين عربية الأصل من

مصر جئت برحلة أنا وأصدقائي إلى أماسيا منذ ببضعة أيام للتعرف على الجمال الطبيعي هنا ، والتعرف على التراث العثماني القديم ، فحدث أن سقطت من أعلى هذا المنحدر لأستيقظ لا أجد أي شخص هنا حتى أصدقائي لا أعلم كيف لكنهم غير موجودين وأخاف كثيرا هل يمكنك إرشادي لأقرب مركز للشرطة ؟؟

ارتفع حاجبيه في دهشة ثم قال...

- سيدتي أنا حقا لا أعلم عم تتحدثين لكنك هنا بمنطقة صيد أتعلمين ذلك؟! وهناك كم لا بأس به من قطاع الطرق بتلك الغابات أين أبويك أو الأغوات المكلفين بحمايتك أو أقاربك أو حتى أصدقائك كما تزعمين يجب أن تحتاطي كما أن هناك مركز قريب للإنكشارية ويمكن أن تجلبي لنفسك البلاء بطريقة ما

وكأن أصابتها صاعقة من السماء.....

أغوات؟!!!إنكشارية؟! من؟ متى؟ كيف؟ تلك الجيوش انتهت منذ عقود...
هل يوجد نوع من الاحتفالات الفلكلورية مثلا؟! أم أنه مزاح سخيف من أصدقائها؟!! أم أن هذا الرجل مختل عقليا أم ماذا؟

كان لسان حالها يقول ذلك في حين أخذت قدميها في الابتعاد عنه بريبة وهي تنظر إليه شذرا فما كان منه إلا أن ظهرت ابتسامة عبثية على شفتيه بينما يحرك رأسه يمينا ويسارا بقلة حيلة وهو يراها تحاول الهروب... لقد استجيبت دعوات أمه بأن رزقه الله مصيبة كما كانت تتمنى من حيث لا يدري....

انتبهي وأنتِ تتراجعين حتى لا تسقطي من أعلى المنحدر مرة أخرى -
التفتت تولين لترى المنحدر ثم تنظر إلى الجرو ثم عادت بنظرها مرة أخرى إلى الرجل

الغريب... طرقت ببالها فكرة فسألته
من هو حاكم البلاد؟ -
حدق بها بريبة قليلا ثم أخذ شهيقا و زفره وهو يتلاعب بالفأس بيده و ينظر أين يبدأ و أي الأشجار سيقتطع منها جزءا استعدادا لمباشرة مهمته فلقد اكتفى من جنون تلك المرأة....

أعادت عليه سؤالها مرة أخرى بنفاذ صبر....
أقول لك من هو حاكم البلاد ألا تسمعني؟ -
أسمعك لكن لا وقت لي لذلك الهراء من بتلك الأراضي لا يسمع عن السلطان سليمان خان؟ -
لحظات ثم لحظات ثم انفجرت تولين من الضحك بطريقة هستيرية ورأسها يميل إلى الخلف.... رفعت نظرها إلى سماء وهي تتنهد تحت أنظاره المرتابة من تلك المعتوهة.... وفجأة بدون إنذار انطلقت تركض بين الأشجار العملاقة هاربة من هذا المختل وخلفها يركض الجرو الصغير مصدرا نباحه وخلفهما هذا

الرجل يحاول اللحاق بهما محاولا إثنائها عن الركض بهذا الاتجاه فالموت هو نهاية هذا الطريق لا محالة....

الفصل الثالث

استمرت تولين في الهرب والركض السريع
دون الانتباه لما قد يقابلها من أفخاخ متناثرة
هنا أو هناك... تبعد بيديها بطريقة عشوائية و
سريعة الأغصان الجافة المتفرعة بكل اتجاه
بأشكال شبكية تخفي ملامح الطريق أمامها....
تتشابك بقدميها الكثير من النباتات و الأغصان
اليابسة لتعيق هروبها أكثر مما أدى إلى زيادة
خوفها من لحاق هذا المعتوه بها و خاصة أنها
لازالت تسمع نباح هذا الجرو السخيف خلفها...
شعرت وكأن الطبيعة تقف ضدها وتسلمها
للموت بدم بارد و بتلك اللحظة لعنت تلك
الغابات وكرهت تلك الطبيعة التي حلمت بها
لليال وليال....
وكانت اللمسة الأخيرة هي هبوب رياح قوية
تطيح بكل أوراق و أغصان الشجر اليابسة
بوجه تولين و كانت تلك القشة الأخيرة لذا

قررت تولين الاستسلام و التوقف عن الركض والتخلي عن مقاومتها ضد هجوم الطبيعة عليها و بالفعل تباطأ ركضها رويدا رويدا و صدرها يعلو ويهبط بشدة وهي تلهث وتحاول عبثا حماية عينيها من الغبار وكل شيء متطاير و بلحظة وهي تأخذ شهيقا توقفت وجمدت مكانها واحتبس الهواء داخل صدرها حين رأت بأم عينها ما كانت تود رؤيته في المتاحف لكنها الآن تراه ماثلا أمامها...وبتلك اللحظة تريد أن ترى من مثلها فقط...

كان أكثر أحلامها جموحا يتجسد أمامها حيث الجنود بملابس الإنكشارية المعروفة يتدرب احدهم على الرمي وأخر على المصارعة غالبا و آخرون يتبارزون... ظلت جامدة تماما لا تفقه أي شيء سكن الهواء وتساقط الغبار و الأوراق اليابسة أرضا في حين سقط فك تولين لأسفل أيضا في مشهد مثالي للاندهاش حيث جحظت عيونها بتعجب ورعب حقيقي و بتلك

اللحظة أتى الرجل من خلفها واضعا يده فوق فمها كاتما كل صوت قد يخرج منها ساحبا إياها للخلف بهدوء بخطوات سريعة حذرة دون أن يشعر بهم احد.. لكن بالفعل تمكن احد الجنود من الشعور بحركتهم...

توقف عن التدريب مع زميله وألتفت إلى تلك البقعة التي كانت تقف بها تولين وهو يشهر سيفه ويتلاعب به في الهواء ليجد ذلك الجرو الصغير يجلس بهدوء ينظر له بعيون بريئة ثم ينظر إلى الطبيعة حوله.... ابتسم الجندي بتهكم ثم عاد مرة أخرى ملوحا بسيفه في الهواء في علامة لزميله لاستكمال المبارزة تحت أنظار تولين القابعة خلف الشجيرات الصغيرة المحيطة بمعسكر الانكشارية....

شعر الرجل بعدم انتظام تنفسها.... كان قريبا جدا منها و بالأحرى ملتصقا بها حيث تلامس صدره العريض مع ظهرها وهو يحوط كتفيها بذراعه وكفه مطبق على شفتيها المنفرجتين

... شعر بارتعاشه شفتيها أسفل كفه و بصعود وهبوط صدرها فتضاءل غضبه من جنونها و خفف ضغط يده و بهدوء أبعدها عنه وتركها في تخبطها.... وقف يمعن النظر بها قليلا قبل أن يتحرك بخفه بين الحشائش والشجيرات الصغيرة المحيطة بذلك المعسكر ينظر إلى الطريق ليجد أن الأمور طبيعيه ولا احد يشعر بهم لكن هذا لا يمنع خطر تواجدهم هنا... عاد مجددا إليها ليجدها تجلس على الأرض بوهن وعدم استيعاب عينيها متسعة شفتيها شاحبة مرتجفة منفرجة وغيوم أمطار تتكون بداخل عينيها منذره بهطول دموعها... لا يعلم ما خطبها لكن على ما يبدو فهو خطب جلل ....

أما عنها فكانت تدور بدوامة شديدة ماذا يحدث بحق الله؟ هل كل هذا حقا مزاح كما كانت تفكر؟ لا تجد إجابة مقنعة أو منطقية لما يحدث معها؟؟؟ أين أصدقائها؟ أين هي؟ أين؟ كثرت الأسئلة بعقلها لينطق بها فمها بوهن

- أين؟ أين؟

أرهف الرجل سمعه واقترب منها جالسا القرفصاء بجانبها...

- أين ماذا؟

نظرت له بعيون زائغة

- أين أنا؟

أطال النظر لوجهها ثم استقام وهو يستغفر ربه عله ينجيه من ذلك الموقف بسلام ...

نظر يمينا ويسارا ودار حول نفسه لا يعلم عم يبحث لكنه ينتظر معجزة ما تفسر له من تلك الفتاه وما بها...

و فجاه سمع صوت ارتطام خفيف فنظر لها مره أخرى ليجدها فاقدة الوعي.... اكتمل يومه بحق...

اقترب منها وبهدوء تلمس وجهها في محاولة يائسة لإفاقتها لكنه لم يفلح.... عندها تنهد وهو يمسد جبهته ولعن حظه العاثر وقال

- ما باليد حيلة

وبخفة حملها بين ذراعيه كطفلة صغيرة التفت حين سمع صوت أقدام صغيرة تعبث خلفه ليجد الجرو الصغير يقف في استعداد للذهاب مع صديقه.... همس قائلا

- بوقتك يا صديقي تأتي و تجلب معك المصائب دائما

تحرك بها بين الأشجار العالية و الأغصان المتفرعة محاولا تفادي ارتطام الأغصان بوجهها مرة أخرى يكفي ما أحدثته الأغصان في المرة السابقة من خدوش بوجهها حين كانت تهرب منه... ولم؟ لا يعلم... نظر إلى وجهها المجروح وهو يلعن ويسب غبائها... وبعد فترة وصل إلى خيمته نظر يمينا ويسارا أين يضع تلك المخلوقة المريبة؟ فلم تكن تجهيزاته تسمح غير بتواجد فرد واحد وبالتأكيد فرد ذكر وليس أنثى... تنهد ووضعها على الفراش الممهد أرضا بخيمته لم يكن

فراشا أنيقا أو مريحا أشبه بطبقات قليلة من القماش لحفظ ملابسه من الأتربة نوعا ما.... وضعها بهدوء أرضا وأراح رأسها على وسادته... أشعل الشموع بطريقته البدائية ووضعها بجانبها وهو يشعر أنها تطفلت على كل ما يخصه... فراشه و وسادته حتى وقته أهدره معها فلم يقم بهواية الصيد أو تقطيع الحطب... وعندما تذكر الحطب ضرب جبهته بيده... لقد اغفل الحطب تماما... خرج مسرعا من الخيمة ليجد الشمس قد غابت ولم يتبق غير ذلك اللون الأحمر بالسماء وفي المقابل بدأ القمر في الظهور بخجل... نظر إلى الجرو الصغير الذي يجلس مقابل الخيمة

- هل أنت سعيد الآن؟

صدر صوت خفيف من الجرو وكانه يعترض غالبا على رأي صديقه فنظر له الرجل شذرا وأشار له بإصبعه محذرا

- لا تفكر حتى بالدفاع فقط اجلس هنا و لا تخطو خطوة واحدة خلفي ف أنت لا تطاق أيضا

ظل يسير بين الأشجار يحدث حاله تارة يوبخ نفسه على الوقوف لمساعدتها وإهمال تقطيع الحطب وتارة يوبخها هي على غبائها وأخرى يوبخ الجرو إلى أن وصل إلى فأسه الذي تركه وهو يركض خلف تولين للحاق بها.... التقط فأسه وبدأ بإخراج كل ما يعتمل بصدره من غضب بغصون الشجر... وبعد فترة أنهى عمله و قام بربط بعض قطع الحطب و حملها ليتجه إلى خيمته في ذلك الظلام الحالك المحيط به من كل اتجاه...

وبمكان أخر فتحت تولين عيونها ببطء تنظر حولها لتجد نفسها مستلقية بمكان غريب خيمة صغيرة... نظرت حولها لتجد الخيمة شبه فارغة فقط أشياء صغيرة مبعثرة هنا وهناك مثل صندوق صغير و طاولة صغيرة عليها بعض الأشياء... وشمعة صغيرة تنير المكان

بضوء خافت... استقامت وهي تشعر بالآم مبرحه برأسها... وقفت بمنتصف الخيمة تنظر يمينا ويسارا و تحاول التذكر أين هي وما هذا المكان... وبلحظة تذكرت كل العواصف التي مرت بها و الأحداث التي شاهدتها خلال يوم واحد فقط..... بالتأكيد هذا المكان ملك هذا الشخص الغريب لكن أين هو؟ بل أين هي؟

خرجت تبحث عنه ليواجهها الجرو الصغير مرة أخرى مقتربا منها وهو يحرك ذيله يمينا ويسارا بسعادة....

نظرت حولها لتجد ظلام حالك مخيف فقط ضوء القمر بالسماء ينير الأشياء حولها بإضاءة خفيفة ... شعرت بخوف والوحدة مجددا وعندها نطقت

- لا ليس مجددا

- ما هو هذا؟

صرخت تولين وقفزت متراجعة خطوات للخلف في حين كان هذا الرجل يقف خلفها في الظلام حاملا بعض الحطب .... وبصوت مرتعش نابع من خوفها قالت

-ألا يوجد بقاموسك طريقة إلقاء السلام يا هذا؟

نظر لها بذهول من أعلى واقترب منها بهدوء وعينيه تضيق بنظرات مريبة وكأنه على وشك الفتك بها... نظر إلى قامتها القصيرة وهيئتها المزرية وحالتها البائسة و تخبطها فتارة تكون فتاة مسكينة وتارة تكون مشردة لتبدو أكثر بؤسا... أغمض عينيه في محاولة لاستحضار الهدوء والسلام الداخلي مانعا نفسه من قتلها هنا...

استغفر ربه وهو يتنفس بهدوء ثم فتح عينيه مجددا ليواجه نظراتها المشتتة... تجاهل سلاطة لسانها وتجاهلها هي كليا وابتعد عنها موليها ظهره وبدأ بتحضير الحطب لإشعاله...

نظرت له بتوجس و شاهدت ما يفعله نظرت الى الفأس الملقي بجانبه وهو يشعل الحطب فاتضحت الصورة بعقلها إذا فهو ليس قاتل يعيش بين الغابات بل كان فقط يريد تقطيع الحطب... لكن مهلا هذا لا يمنع انه مختل عقليا فما قاله لا صحة له ولا وجود للمنطق بما قاله لها... سليمان القانوني مجرد تاريخ وماضي و الانكشارية أيضا لكن ما هذا الذي رأته بأم عينها!!!

نفضت رأسها ثم خطت بحزم وأخذت الفأس ملوحة به تجاهه وهي تصرخ

- أنت... اشرح لي كل ما يحدث هنا والآن... هل أنت فنان بفرقة استعراضية ما أم مختل عقليا؟ وما ذلك المعسكر الذي رأيته هناك هل هناك عرض فلكلوري يحدث هنا؟ وأين الشرطة بهذا المكان أرشدني إليهم وإلا قطعتك قطع صغيرة طعام لذلك الجرو

نظر لها بتهكم ثم وقف ليتضح لها فرق الطول وضخامة جسده بالنسبة لها... اقترب منها لتتراجع هي خطوات للخلف لكنه كان أسرع منها حيث امسك رسغها وسقط الفأس من يدها ليقربها منه بشدة حتى التصقت به... وبصوت هادئ لكن يحمل طياته الكثير من الغاضب قال

- لا تلمسي أشيائي مرة أخرى وخصوصا الحاد منها قد تأذين نفسك واضطر أنا بعدها لتحملك فترة أطول...

ترك يدها وأبعدها عنه بقوة ليلتفت إلى الحطب مرة أخرى في حين وقفت هي تنظر له بخوف وهي تتساءل ما الذنب الذي فعلته لتصاب بكل تلك المصائب بوقت واحد....

ظلت تولين تهمهم بكلام غير واضح لأذان الرجل وهي تبتعد عنه... التفت ينظر لها فلم يجدها وقف سريعا ينظر يمينا ويسارا عله يجدها لكنه واجه الفراغ زفر بشدة وهو يقول

- يا لها من حمقاء... أي غبي قد يذهب بلا دليل بالغابات و بهذا الظلام الدامس....

تقدم عدة خطوات يبحث عنها في الظلام ليأتي صوتها من خلفه تسأل بتردد ليلتفت لها بغضب جعلها لم تكمل جملتها...

- يا هذا أنا ا.....

تسمرت تولين بمكانها حين رأت غضب الله يتجلى بوجهه حيث العينين الجاحظتين وفكية يصدرا صرير من شدة احتكاكهما ببعض و بصوت منخفض يحمل قدر كبير من ضبط النفس سألها

- أين ذهبت؟

تنحنحت تولين وهي تعبث بقدمها في التربة راسمه بعض الدوائر

- كنت ابحث عن شيء

- عن ماذا؟

همست تولين مكررة جملتها تقدم بضع خطوات منها راسما قناع من البرود على وجهه وهو يقول

- لا تختبري صبري

ترقرقت دموع بعينيها بينما أخفضت رأسها خوفا من مواجهة غضبه ... سقطت قطرتين لامعتين من عيونها بينما كان يقف يراقب اهتزاز كتفيها وشعرها المبعثر اللامع بجانب وهج السنة النار... شعر أنها طفلة صغيرة و بطريقة ما شعر بالمسئولية تجاهها... تنهد ونظر إلى السماء بيأس وهو يقول بتردد...

- لا تبكي...

رفعت تولين رأسها و نظرت إلى وجهه لتجده ينظر لنقطة وهمية بالسماء ثم عاود النظر لها ببرود... شهقت شهقة صغيرة وهي تمسح وجنتيها بأناملها ثم أومأت و صمتت

ابتعد خطوات إلى الخلف وهو يضع يده بخصره قائلا

- فقط لا تبتعدي دون سابق إنذار وهذا لصالحك أنت

أمسكت بخصلة شاردة من رباطها لتضعها خلف أذنها وهي تومئ موافقة....

شعرت تولين أن كل شيء يتكالب عليها وحتى الآن لم تفهم ماذا حدث... جلست تولين بوهن بجانب الحطب المشتعل تستمد بعض الدفء وقد احتضنت ساقيها إلى صدرها وأسندت رأسها المسكين إلى ساقيها قليلا... تفتقد كل شيء أصدقائها منزلها ملابسها كل شيء....

ألف سؤال وسؤال يدوروا برأسها ولا أجابه منطقية لأي من تلك الأسئلة.... جلس الرجل بجانبها فلم تتحرك أو تنتفض كعادتها منذ أن قابلها فقال بصوته الرخيم بهدوء

-اشعر أنك بمشكلة وأريد أن أساعدك حقا لكن أنا لا أفهمك

رفعت رأسها ببطيء ولمعة عينيها تزداد وشفتاها المكتنزة ترتعش في حركة واضحة على اقتراب هطول دموعها مرة أخرى...

رفع عينه ناظرا إلى النيران وهو يزفر بهدوء ثم قال بصوت حاول أن يكون به بعض الهدوء والطمأنينة للتخفيف عنها

-حسنا لنبدأ بداية جديدة مرحبا أنا علي أوغلو وأنت كما قلت تولين أليس كذلك؟

أومأت برأسها موافقة دون أن تنبس ببنت شفه و هي تسند رأسها على قدميها المضمومتين إلى صدرها... تنظر فقط إلى النيران لوهلة شعرت أنها لا تريد شيء أخر سوى الجلوس هكذا... شعر بعدم رغبتها بالحديث فأومأ وهو يقول...

-حسنا سأذهب لأتي ببعض الأطعمة أرجو ألا تأتى بأي حركة حمقاء مرة أخرى

ضاقت حدقتي عينيها وهي تنظر إلى السنة النيران أمامها ثم التفت برأسها ببطء تنظر له شذرا وهي تقول

- حمقاء؟ من هي الحمقاء يا هذا انتبه لما ينطبق به لسانك

- أنت هي الحمقاء هل تنكرين أن ركضك نحو معسكر الإنكشارية ما هو إلا تصرف أحمق متهور؟ والذهاب بذلك الظلام بدون إبداء أي إشارة وبدون إضاءة معك ما هو إلا تصرف أحمق أخر يضاف إلى قائمة حماقاتك أليس كذلك؟

شاب بعض التردد والتراجع بنظرة عينيها وقد تمكن منها الوهن فاعترفت بصوت منخفض قائلة

- ربما كان

وبالرغم من انه سمع بوضوح ما قالت إلا انه قال وهو يشير إلى أذنه

ـ ماذا لم اسمع؟

ـ حسنا قلت انه ربما كان تصرف أحمق لكنني من أين لي أن اعلم أن هناك معسكر بهذا الاتجاه أقول لك يا هذا أنى تائهة ولست من تلك البلاد ولا اعلم ما هذا المكان أو كيف جاءت تلك الجيوش هنا الآن ....كيف اشرح لك وأنا نفسي لا افهم!!!!

نظرت مجددا إلى الحطب المحترق أمامها وقد أزادت انكماشا تحاول فهم ما يحدث حولها في حين كان علي اوغلو ينظر لها بريبة ممتزجة بقليل من الشفقة.... كل منهما يحدق باتجاه... نظراتها الضائعة الزائغة تدل على تبعثر تام بمشاعرها وأفكارها أما عنه فهو حقا يفكر بمائة سؤال... من هي؟ ومن أين أتت؟ والاهم ماذا يفعل بها الآن؟!!!

وبعد قليل من الوقت كان كل منهما يجلس أمام النيران مجددا وبينهما كتله الحطب المشتعلة يتناولا الطعام.... كانت تولين تمسك بذلك الصحن الصغير شاردة تفكر هل أصدقائها يأكلون الآن؟ أم يجلسون بتعاسة مثلها....

ارتسم الحزن على وجهها وهي تتنهد بشدة... نظر علي إليها وقد التهم معظم طعامه... نظر الى صحنها ليجده ممتلئ لم يمس وبصوت هادئ سألها

- الم يعجبك؟

نظرت له بشرود قليلا ثم قالت بوهن

- ماذا؟

- أسألك الم يعجبك الطعام؟

نظرت إلى صحنها والى تلك الأبخرة ذات الرائحة الجميلة المتصاعدة منه ثم قالت

- انه شهي

- و كيف علمت انه شهي دون أن تمسيه

ضغطت بأسنانها على شفتيها ثم قالت

- أسفه... فقط اشعر بالإرهاق الشديد

تنهد علي وهو يعبث بطعامه شاردا ثم قال دون ان ينظر لها

- اذهبي إلى الخيمة لتنالي قسطا من الراحة وغدا...

نظرت له منتظرة تكمله حديثه باهتمام

- حسنا يمكنك قضاء بعض الوقت بأحد أوقاف السلطانات حتى تلتقي بأصدقائك

لم يظهر على وجهها ردة فعل سوى أنها تحملق به فها هو مجددا يبدأ نوبة الجنون تلك... تلك الأوقاف لم يعد لها وجود سوى أنها متاحف الآن وأماكن أثرية وانها لم يعد لها وجود...تنهدت بينما تضع رأسها بيد يديها وهي تقول

- يا إلهي

نظر لها علي قليلا قبل أن يستكمل قائلا

ـ حسنا أمامك حل من اثنين إما أن تذهبي إلى احد أوقاف السلطانات أو.... أو أن تأتي معي إلى منزلي...

جمدت تولين بمكانها لعدة ثوان ثم رفعت رأسها تنظر إليه بقليل من التوجس فما كان منه إلا أن قال بهجوم

ـ لا حل أخر غدا سأعود من رحلتي المنكوبة تلك ولا يمكنك المكوث بالغابة وحدك فمصيرك الموت لا محال بمنزلي أو بأحد تلك الأوقاف ستكونين بأمان

ارتسم التردد على محياها بتجلٍ فظهر مما هي تخاف... تخاف أن يسيء إليها بطريقة ما في منزله فإن ذهبت معه ستكون دخلت عرين الأسد بقدميها ولن يلومه أحد ما إن تحرش بها أو فعل أي فعل مشين أو قتلها!!!

ـ لا تقلقي فأنا لست من ذلك النوع من الرجال

تنحنحت بحرج ونظرت بعيدا قائلة

ـ عن أي نوع تتحدث أنت؟

ابتسم وهو يقول بنبره عبثية...

ـ عن النوع الذي يستدرج فتيات ضالات إلى منزله ليقيم الفاحشة لا تقلقي كما أنى إن كنت أريد قتلك لكنت تركتك للإنكشارية وصدقيني حاليا اشعر انه كان يجب علي تركك لهم

نظرت له برعب ويديها تبحثان عن أي شيء للدفاع عن نفسها لتجد أحد أغصان الشجر المتساقطة فتلتقطها وقبضتها تشير إلى أنها حركة دفاعية..... فنظر لها لوهلة ثم اتسعت ابتسامته رويدا رويدا إلى أن صارت ضحكات رجولية عالية...

ومن بين ضحكاته قال

ـ يا إلهي كم أنت جسورة لتحاربيني بمجرد غصن صغير

تركت تولين الغصن وقد شاب وجنتيها حمرة الخجل من موقفها الطفولي... سعال خفيف منه جعلها تتنبه انه لا زال ينتظر منها جواب فقال

- حسنا أي المكانين ستذهبين؟

تنهدت بقلة حيلة ف هي لا تعلم ماذا يجب أن تفعل حتى إنها لا تعلم ما يحدث هنا... نظر لها بتعاطف جلي حين عادت تلك النظرات الضائعة إلى عينيها فقال لها

- حسنا فلتذهبي للنوم الآن وغدا تقولين قرارك

نظرت بتردد إلى خيمته لتجده يقول

- إنها ليست مريحة للغاية لكنها معدة لرحلة صيد لا أكثر اعتذر

قالت بتردد

- لكن أنت أين ستقضى ليلتك؟

- لا تقلقي ساجد حلا فقط أنت اغتنمي تلك الفرصة للراحة

ابتسمت ممتنة له ثم وقفت تخطو بهدوء إلى خيمته نظرت يمينا ويسارا أين تلك الشموع.!!! وفجأة أضيئ المكان التفتت لتجده خلفها مباشرة... نظرت بكل اتجاه محاوله إقصاءه عن نظرها لكن أين؟ المكان ضيق للغاية بالكاد يستطيعا الوقوف به كليهما...

- اعتذر عن دخولي المفاجئ لكني جئت لكي أشعل الشموع قد... قد لا تحبين الظلام

ابتسمت له وهى تشكره...وبعد بضع ثوان كان النور يعم المكان حين أشعلت تولين تلك الشموع...

جلست تفكر بكل ما حدث حتى الآن أصدقائها واختفائهم... تلك العاصفة... الجرو الصغير... جيش الانكشارية... وهذا الرجل!!... تنهدت تولين بشدة وهى تحل شعرها من عقدته تلك وتعبث به بشدة ثم توقفت فجأة وهى تنظر أمامها وقد طرق ببالها خاطر... حلم....

أيعقل أن يكون هذا حلم من أحلامها... اجل إنها لازالت نائمة جراء سقطتها تلك فاقدة للوعي غالبا....

ربتت على وجنتيها بهدوء ثم تحولت اللمسات إلى صفعات صغيرة لإفاقتها لكن لا شيء....

بينما خارجا كان علي اوغلو يقف ناظرا إلى كتلة الحطب التي قد التهمتها النيران حتى بدأت بالخمود ثم نظر إلى الجرو الصغير وقال

ـ أنت السبب بكل شيء اللعنة عليك

وكأن الكلب يفهم على صاحبه ليصدر عواء مؤلم ليحن قلب رفيقه عليه قليلا.....

جلس علي بجانب النيران ملتحفا احد ثيابه الثقيلة وقد سلم أمره لله تاركا الغد لمشيئه....

أشرقت شمس جديدة لتستيقظ تولين حين سمعت صوت تغريد احد الطيور... جلست تفرك عيونها وتنظر يمينا ويسارا وهي تستعيد وعيها.... استقامت لتلمح أوراق ملقاة فوق

تلك المنضدة الصغيرة... ذهبت إليها وهي تنظر خارجا خشية أن يراها وهي تعبث بأشيائه....

وبيد مرتعشة أمسكت بأحد الأوراق محاولة قراءة ما فيه.... حروف عربية لكن لا تشكل كلمات تفهمها هي... تنهدت وقد علمت أنها اللغة العثمانية القديمة.... تركت الورقة مكانها مجددا ثم خرجت لتجده لازال نائما... خطت تجاهه بضع خطوات ثم جلست القرفصاء بجانبه... يبدو مسالما وهو نائم لكن تلك العقدة بين حاجبيه لا يمكن حلها حتى وهو نائم... كادت توقظه لكنها قبضت يديها بأخر لحظة ثم استقامت وخطت خطوتين للخلف ثم ذهبت بعيدا إلى أن اختفت بين الأشجار....

استيقظ علي اوغلو ليجد الجرو نائما بجانبه لكنه استيقظ حالما شعر بحركة سيده.... استقام من نومه ليجلس وهو يبعثر شعره بينما ينظر إلى خيمته ....نفض عن ملابسه الغبار العالق بها وتقدم بضع خطوات ثم وقف بجانب الخيمة

وهو يصدر بعض أصوات كسعال لينبهها لوجوده....

لكنه لم يجد أي استجابة ... دخل بخطوات بطيئة ليجد الفراش فارغ....

خرج مسرعا يبحث بعينيه بكل اتجاه ليقابله الفراغ و الصمت.... يبدو أنها حسمت أمرها أين ستذهب.... نظر إلى كلبه الصغير قائلا

- يبدو أن مغامرتنا انتهت إلى هنا يا صديقي هيا لنستعد للعودة إلى المنزل

- بدوني؟

نظر خلفه ليجدها تقف في حزن بوجه ابيض نظيف وشعر يتساقط منه بضع قطرات من المياه...

- ظننت انك.... أين كنت؟

- كنت... كنت عند البحيرة

أومأ متفهما في حين أن نظرات عيونها المتسائلة جعلته يوضح لها

- ظننت انك قد قررت الذهاب إلى احد أوقاف السلطانات لذا...

قاطعته تولين قائلة

- لقد فكرت كثيرا .... إذا ذهبت معك قد يكون هذا غير مقبول لمن يعيشون معك أليس كذلك؟

- في الواقع إذا قررت الذهاب معي ف هناك بعض التدابير التي يجب أخذها

- ماذا ؟

- أنا أعيش وحيدا لا اعلم شيء عنك أو على ماذا قد اعتدت لكن بالتأكيد هذا شيء غير مقبول هنا... لذا سنحتاج بعض التدابير كي لا يعلم احد انك بمنزلي... إلى أن يحين وقت فرج الله علينا

تضارب شعورين بداخلها أولهما الاطمئنان أن لا احد سيحكم على جلوسها بمنزله و الأخر الخوف من تواجدها معه وحدها بمنزله.... لكنها حسمت أمرها حيث قررت الذهاب معه...

أومأت له موافقة مع ابتسامة ارتسمت بهدوء على شفتيها....

-حسنا سأقوم بتجهيز كل شيء فقط اذهبي شمالا بضع خطوات ستجدين عربة صغيرة اجلسي بها وبعد قليل سأوافيك... وأرجوك فلتأخذي ذلك الجرو معك...

ابتسمت له وهي تنحني لتلتقط ذلك الجرو الصغير وتذهب باتجاه تلك العربة... وقفت أمامها وهي تنظر إلى الخيل الجميل الواقف بجانب تلك العربة....

و بعد عدد لا تعلمه من الساعات استقرت العربة أمام منزل متوسط الحجم بجواره حديقة واسعة جميلة ثم تليها عدة بيوت أخرى .... هبط علي من مقدمة العربة ليفتح لها الباب وهو يلاحظ نظراتها إلى منزله قائلا

- أتمنى أن ينال إعجابك....

أما بمكان قريب خلف ذلك السد الحائل بنفس البلاد كانت تنتشر مجموعه كبيرة من رجال الأمن والصحافة حيث ينقلون قصة غاية في الغرابة عن اختفاء فتاه في ظروف غامضة أمام أعين أصدقائها ورجال الأمن...

الفصل الرابع

بين ليلة وضحاها الكثير من الأحداث مرت على رؤوسهم سفرهم فرحتهم ثم اختفاء تولين و بحث الشرطة وأسئلة الإعلام.... شعر محمد أن رأسه يكاد ينفلق نصفين من هول ما مر به مع زوجته.... نظر إلى زوجته المستلقية بجانبه في فراشهم بذلك الفندق...

شرد بوجهها الطفولي المحبب و ذلك الامتعاض المرتسم به دلاله على رؤيتها لما لا يسرها بأحلامها....

ربت بهدوء على ظهرها كطفلة صغيرة لتهدأ معالم وجهها قليلا ثم تنهد واستقام بجلسته ليخرج من الفراش مرتديا معطفه... دلف إلى الشرفة يقحم الكثير من ذلك الهواء البارد الى رئتيه عله يذهب شعوره بالضيق... يشعر كمن يضع على صدره أطنان من الصخور.... نظر

إلى شمس الصباح المشرقة تشبه كثيرا إشراقه صديقتهم المدللة.... تذكر ثاني صباح لهم هنا حين هجمت تولين على غرفتهم كأفراد الشرطة دون استئذان.... تنهد مصدرا أهات عاليه...

ضاق صدره كثيرا... حتى انه لا يعلم ماذا سيخبر أقربائها وزملائها؟ اختفت أمام عيني فقط؟ ما هذا التفسير.... الموت أفضل مائة مرة على الوقوف بذلك الموقف... سند جسده لحافة الشرفة وهو يغطي وجهه بيده... حينها شعر بيد عايدة تلمس كتفه العريض بهدوء في محاولة لمواساته ومشاركته شعوره.... نظر أمامه إلى شبح غابات أماسيا البعيدة حيث توجد صديقتهم بطريقة ما....

مرت أيام لم يتوان محمد وعايدة في البحث عن صديقتهم بشتى الطرق أوشكت مدة إقامتهم على الانتهاء والنتيجة سلبية.... أصبحت قصة الفتاه تولين من إحدى القصص الغير مفسرة مثل قصص كثيرة بعالمنا... البعض يقول عمل

من الجن والكائنات الغير مرئية وآخرين يقولون أساطير قديمة لا يصدقها عقل...

مر اليوم كغيره ولا جديد و بينما كان محمد يجلس بمقهى صغير بسيط بطرازه التركي القديم بألوانه المبهجة حيث يختلط اللون الأبيض باللون الأزرق الجميل ممتزجا باللون الأخضر الناتج من بعض فروع نباتات الزينة المعلقة بأماكن بمختلفة... كانت تولين بلا شك ستهيم بجمال تلك الألوان و تلك الروح القديمة المحلقة بأرجاء المقهى العتيق بذلك الحي الهادئ.... فاق محمد من تأملاته على يد عايدة الحانية التي تربت على يده في مواساة له ولها...

- لا تقلق لن نرحل بدونها محمد جئنا ثلاثة وسنعود ثلاثة

- كيف ؟ أوشكت نقودنا على النفاذ كما أن مدة الرحلة ستنتهي بعد غد ولا يوجد لدينا مال كاف لقضاء مزيد من الوقت هنا

- لكن يمكنني المساعدة

التفت محمد وعايدة عند سماع ذلك الصوت الرجولي وتلك الجملة باللغة العربية الغير متقنة فلم يكن سوى ذلك الرجل من متحف أمراء أماسيا... وبهدوء تقدم منهم وجلس بجانبهم على نفس الطاولة وبلغة انجليزية متقنة قال

- لم تجدوها أليس كذلك؟

نظر محمد له بريبة وبصوت حاد قليلا قال

- اشبع رغبة الفضول خاصتك بما نشرته الجرائد حتى الآن

نظر له الرجل الكبير ببرود إلى أن أنهى محمد هجومه ثم قال

- هل انتهيت؟ أنا أريد مساعدتك أيها الأبله بحثت عنكم لفترة إلى أن وجدتكم

تنبه محمد و عايدة لذلك الغريب لكن الريبة مازلت بقلوبهم... نطقت عايدة بصوت مهتز قليلا وتوتر

- ماذا تريد؟

ابتسم الرجل وبهدوء و ثبات قال

- مساعدتكم

- كيف؟ ثم لماذا ما المقابل؟

- كيف سيطول شرحها أما المقابل هو معرفة إذا ما كان يمكن إصلاح الوضع أم لا... فتعود صديقتكم لكم وأعود أنا لأحبائي

وقبل أربعمائة أربعة وسبعون عام... كانت تولين تجلس على أريكة خشبية تستند بظهرها إلى عدد من الوسائد الحريرية تتلمس بيدها تلك الزخرفة يدوية على الطراز العثماني القديم بتلك الأريكة....

تتمركز بتلك الغرفة لا تغادرها فقد استسلمت كليا لحالة من الذعر من العالم خارج ذلك

الباب.... تراقب زخات المطر خارج تلك النافذة الصغيرة... لا تشعر بجوع أو عطش مهما قدم لها علي كل ما هو شهي إلا أنها فقدت الرغبة بكل شيء تريد النوم فقط الهروب من الواقع الغير مفسر والغير منطقي لا تفسير غير انه حلم من أحلامها تنتظر أن تستيقظ منه...

كان علي يضع الطعام على بابها لكن يعود خائب الرجاء فلا أي جديد منذ أن وطئت قدميها منزله صباحا وهي تجلس بالغرفة اللعينة تلك....

حل الليل سريعا على السيد علي بطيئا على تولين... طال انتظاره لخروجها فقرر أن يذهب إليها... وقف أمام باب حجرتها ليجد أواني الطعام كما وضعها ظهرا لم تمس...طرق الباب فكان الصمت هو الرد... دب القلق بقلبه اقترب من المقبض وفتح الباب بهدوء... دخل بنصف جسده أولا من الباب ليجدها تجلس بوضع

الجنين على الأريكة صغيرة بجانب النافذة ملتحفه بغطاء حريري باللون البني....

فتح الباب كاملا ودخل ينظر إليها ترتعش بشدة وقطرات عرق متساقطة على جبينها ووجهها المحاط بشعرها البني المبلبل...

رفع يده ليزيح إحدى الشعيرات الشاردة عن وجهها لكنه ضم يده متراجعا... شهقة صغيرة منها جعلته يقترب منها في محاوله لسماع ما تهمهم به... ناداها كي تستيقظ فلم يحدث شيء اقترب بأنامله من وجنتيها لكن ما أن لمس وجنتيها حتى شعر بجسدها كأنه حمم بركانية...

ظل متجمدا مكانه لعدة دقائق لا يعلم ما التصرف الصحيح.... إذا حدث وجاء بتلك الحكيمة التي كانت تعمل بالقصر سابقا ستفضح تواجد تولين معه... وإذا تركها هكذا قد تموت....

لم يطل التفكير كثيرا فليذهب الجميع إلى الجحيم.... حمل جسدها المحموم بين يديه ووضعها بهدوء على الفراش الواسع ذو الأعمدة الذهبية المزخرفة و الأغطية البنية الحريرية.... وضع بضع وسائد المخمليه رقيقة الملمس خلف رأسها الصغير...

نظر لها وهي نائمة كطفلة صغيرة شريدة.... جبهتها المبللة بقطرات العرق ملتصق بها بضع شعيرات ثائرة... وجنتها الحمراء انفها الدقيق وشفتيها الجافتين المرتعشتين في همهمة غير مفهومة.... طابع الحسن الصغير يضيف إلى وجهها براءة وجمال وعنقها الأبيض و... ما هذا... ما تلك الملابس... وهنا فاق علي من شروده بتلك المخلوقة... ما تلك الملابس بحق الله من أين أتت بشيء كهذا؟! إذا جاء بالحكيمة الآن ماذا ستقول عن تواجد تلك الفتاه بمنزله و بملابسها تلك... ماذا يفعل ؟!!!

ظل يدور ويدور بالغرفة أمام الفراش عدد لا بأس به من الدقائق مفكرا بخطوته التالية.... لم يجد حلا أخر... وبخطوات واسعة سريعة حازمة ذهب إلى جناح زوجته الراحلة...

وقف أمام الباب يتأمل المكان الذي كان بيوم ما يشع نورا وبهجة بحضور سيدته... نفض رأسه مبعدا تلك الأفكار عن عقله وبخطوات حازمة دخل إلى الغرفة المنظمة كما كانت تريد صاحبة المكان أن يكون دوما...

وصل إلى خزانتها الصغيرة في هيئة صندوق خشبي كبير... جلس القرفصاء يتلمسه وفتحه لتظهر ملابسها الحريرية بألوانها المختلفة الرقيقة المبهجة للعين.... امسك برداء باللون الأخضر الفاتح كلون عيونها... أغمض عينيه يتذكر عيون حبيبته... فتح عيونه وهو ينفض رأسه بقوة واستقام ليذهب الى الجناح الصغير حيث ترقد تولين بلا حول ولا قوة على فراشها....

اقترب منها و القي الرداء على الفراش ثم بهدوء رفع ظهرها بيد واحدة لتصله حرارة جسدها إلى يده الباردة...

اجلي صوته بسعال خفيف وهو يعتذر لها عما سيفعل... و بيد مرتعشة حل سترتها و أزاحها بعيدا ليظهر قميص ابيض ناعم بدون أكمام محكم حول جسدها مظهر رشاقة قدها... ظل لوهلة محملق بها... بكتفيها العاريين وعظمتي الترقوة خاصتها و تلك الشامة الصغيرة بجانب عنقها لينتفض و يبتعد عنها تاركا إياها تهبط بشدة على الفراش مرة أخرى....

نظر لها مرة أخرى ونظر ليده وهو يلعن نفسه...تنهد والتفت ينظر إلى السماء من خلال النافذة الصغيرة ويستغفر ربه... و بلحظة واحدة تذكر السيدة فاضلة.... السيدة فاضلة المربية الأمينة له وصندوق أسرار زوجته الراحلة ... أمراه عجوز حكيمة ذات خلق وبئر أسرار لا يوجد غيرها ليساعده...

نظر مرة أخرى لتلك الملقاة على الفراش ليحدث نفسه قائلا بصوت مبحوح

- أنا حقا بحاجة إليها....

غادر الغرفة بخطوات واسعة سريعة و نزل درجات السلم برشاقة .... ضرب وجهه الهواء البارد خارج منزله وقد سرت قشعريرة سريعة بجسده ....ركض بضع خطوات سريعا في حديقته الصغيرة إلى أن وصل إلى حصانه.... ربط حصانه الأسمر بالعربة الصغيرة و وكزه لينطلق فرسه في سباق مع الريح....

و أمام كوخ صغير بمكان نائي وقفت العربة ليهبط علي و يطرق طرقات سريعة على الباب الخشبي العتيق...

وبعد فترة فتحت سيدة عجوز قصيرة القامة ممتلئة إلى حد ما رسمت خبرات سنوات كثيرة خطوطها ببراعة على وجهها.... تقف باستقامة أمامه و كان العمر لم يؤثر بعظامها المسكينة... ردائها المنظم النظيف و حجابها

الحريري يغطى معظم جسدها محكم حول وجهها الأبيض الذي يشوبه بعض الحمره... وبيدها مصباح صغير...

نظرت السيدة فاضلة إلى الرجل الواقف أمامها تدقق النظر بذلك الظلام ...هل هو فعلا علي؟ هل عاد صغيرها بعد أن تركها وترك البلاد لفترة ليست بالهينة بعد أن غادرت زوجته الحياة... وبلغتها الأم قالت

- السيد على؟!

ابتسم علي ابتسامة هادئة وهو يقول بصوت حاني

- مرحبا سيدة فاضلة أتمنى أن تكون بأفضل حال

- يا الهي كم مر من الزمن منذ أخر مرة رأيتك بها...

- مر الكثير سيدة فاضلة الكثير... لكن...

قاطعته السيدة فاضلة مرحبة به بمنزلها الصغير قائلة

- لا يهم لا يهم ولدي تفضل إلى الداخل

- أرجوك سيدة فاضلة الوقت ينفذ مني... احتاج مساعدتك الآن ولا احد سيعاونني سواك

بدا القلق على محياها كما هو مرسوم على وجهه بالضبط

- ماذا هناك؟ أرجو ألا تكون ارتكبت نوع من المصائب مرة أخرى فلا صحة لي على تحمل مصائبك كما كان يحدث سابقا

ابتسم علي وهو يتذكر كم حملت عن كاهله العديد من المصائب حين كان مجرد شاب صغير مراهق

- هي حقا مصيبة وبلاء فوق راسي ولا احد لي سواك سيدة فضيلة أرجوك يجب أن تأتي معي الآن

- حسنا سآتي بوشاحي وأتي معك

أومأ علي موافقا وباله منشغل بتلك المحمومة بمنزله... جاءت السيدة فاضلة و على كتفيها وشاح ثقيل يقيها البرد... ساعدها علي على ركوب العربة وبسرعة شديدة قاد عربته إلى منزله...

وبعد قليل من الوقت كان يقف هو والسيدة فاضلة أمام تولين النائمة في فراشها بعالم أخر...

كان السيد علي اوغلو يقف بتوتر وقلة حيلة بعد أن قص كل ما مر به منذ أن قابلها على السيدة فاضلة الواقفة بعينين واسعتين وفم مفتوح ويدها تربت على صدرها في علامة على عدم تصديق ما يحدث أمام عينيها... ف هاهو مجددا بيت أل اوغلو يدخله النساء وليس مجرد خادمات إنها فتاه رائعة الجمال محمومة شبه عارية بفراش بمنزل علي اوغلو...

نظر لها علي منتظر ردة فعلها.... وبعد قليل من الوقت نطقت السيدة فاضلة أخيرا قائلة باستنكار

-ما تلك الملابس بحق الله!!!

رفع على حاجباه بشدة بعد كل ما سرد كل ما لفت انتباهها ملابسها... آه وألف آه من نسل حواء... تنهد بيأس وقال بتوتر بالغ

-سيدة فاضلة أرجوك بعض الانتباه هنا إذا سمحت.... الفتاه محمومة وتموت و أريد استدعاء الحكيمة أرجوك افعلي شيء ما هنا

حركت السيدة فاضلة رأسها يمينا ويسارا و هي تطلب الأمان من الله... تقدمت بضعة خطوات إلى أن وصلت إلى تولين وبدأت في عمليه تغير ملابسها الغريبة إلى رداء لسيدة المنزل الراحلة...

في حين ركض علي إلى تلك الحكيمة يطلب مساعدتها... و بعد قليل من الوقت كان علي

يطرق باب تلك الحجرة التي اتخذتها تولين حصنا لها و خلفه تقف الحكيمة وهى تنظر لكل شبر بمنزل السيد علي... جاء صوت السيدة فاضلة من خلف الباب وهي تقول

- تفضلي أرجوك

دخلت الحكيمة تنظر يمينا ويسارا إلى فخامة الجناح ثم نظرت إلى الفراش الواسع المزخرف و لتلك الراقدة عليه... بينما تسمر علي مكانه وهو يحملق بالتغير الظاهر على تولين حيث لاق بها كثيرا رداء زوجته وكأنه خصص لها هي... شعرها صار اقل همجية مما كان ... تقدمت الحكيمة تجاهها و بدأت بفحصها لتقول بعدها

- سيدي إن السيدة محمومة للغاية يجب خفض درجة حرارتها الآن... يجب أن تستحم بمياه باردة

نظر علي إلى السيدة فاضلة ثم إلى حكيمة والقلق يرتسم بوضوح على وجهه لتسال الحكيمة بخبث وقد لاحظت فخامة ملابسها فلا يوجد من يرتدى تلك الأقمشة إلا من كبار العائلات...

- هل هي قريبة لحضرتكم؟

عجز لسانه عن الرد بأي شيء ماذا يقول عنها... سكت لبرهة من الزمن إلى أن قالت السيدة بصوت حازم...

- إنها جارية المفضلة لدى السيد علي اوغلو

صعقت الحكيمة للحظة هل اتخذ السيد علي مفضلة؟ يا الهي قد يكون هذا الخبر سيء للغاية للبعض... في حين بهت السيد علي بهذا الكلام الغير معقول كما انه غير مقبول أيضا... نظر إلى السيدة فاضلة بعدم تصديق لما تفوه به فمها في حين أنها بادلته النظرات بحزم وإصرار على ما قالته فلا حل أخر بنظرها... فهو وحيد عائلتهم والكل يعلم بذلك لا يمكنها

اختراع جزء جديد من عائلته بلحظة.... أرسلت له نظرات تنبيه للحكيمة التي تتحنحت ثم قالت

- زال البأس عنها إن شاء الله سيدي أرجو أن تقوم بمساعدتنا في حملها للذهاب إلى مكان الاغتسال

نظر علي إلى السيدة فاضلة في عدم تصديق لذلك الموقف المحيط به لتنطق السيدة فاضلة بحزم

- سيد علي الحكيمة تطلب المساعدة لا تقلق الخاتون ستكون بخير

ضم قبضتي يده بشدة كاظما غيظه من السيدة فاضلة ثم تنهد وسار بخطوات بطيئة إلى الفراش... وقف ينظر لها برهة من الزمن ثم بهدوء وضع يد أسفل ظهرها والأخرى حول كتفيها وحملها بسلاسة مقربا إياها إلى صدره واضعا رأسها العنيد الصغير على كتفه.... لمست بعض الشعيرات الناعمة ذقنه الحليق ليتأفف مبعدا رأسه قدر الإمكان..... سار بممر

طويل إلى أن وصل إلى حجرة الاستحمام... وقفت السيدة فاضلة تضيء الشموع لإنارة المكان بينما تقدم السيد علي ووضع تولين على المقعد الرخامي المخصص للاغتسال حيث يوجد مقاعد من الرخام بجوانب الحجرة للجلوس عليها... لكن ما أن وضعها حتى مالت جانبا فأحتضنها مجددا ساندا إياها إلى صدره... نظر إلى الحكيمة و السيدة فاضلة بغضب وهتف بهم قائلا

- إنها لا تستقيم بجلستها كيف ستستحم بالمياه الباردة؟

ارتعش صوت الحكيمة في خوف من نظراته الغاضبة و قالت

- ستضطر سيدي إلى... إلى احتضانها لفترة إلى أن ننتهي

نظر علي إلى السيدة فاضلة الكاتمة لضحكاتها بصعوبة بالغة لمظهره المرتبك الغاضب...

كانت نظراته تستجديها لتنقذه من ذاك الموقف لتقول السيدة فاضلة بلؤم

- سأذهب لأتي السيدة بملابس أخرى غير هذه ستبل وبشدة...

و بهدوء تحركت السيدة فاضلة خطوتين للخلف وهي تنحني بتحية مهذبه لسيدها ثم غادرت تاركه خلفها بركان قيد الانفجار بأيه لحظة....

بدأت الحكيمة في ملئ طبق نحاسي بالمياه الباردة ووضع المياه فوق رأسها لتنساب إلى باقي جسدها... شهقت تولين من برودة المياه وأمسكت بقميصه بقبضتها الصغيرة الواهنة مقربه نفسها لصدره في محاولة لاستمداد الدفيء المفقود...

أما عنه فكان يغلي من شده غضبه وغيظه... لكن حين صدرت تلك الشهقة عنها تنبه لها والى حالتها البائسة بحق...ظل جامدا لعدة ثوان ثم ضمها إلى صدره... في حين غمرت

المياه كل خلاياها هي وقد نال السيد علي جانبا من المياه حيث ابتلت ملابسه هو أيضا...

و بعد وقت قليل حملها مجددا و سار بها وهو ينظر إلى وجهها وشعرها المبلل ووجنتيها الشاحبتين وتلك الخصلة الشاردة على صفحة وجهها.... دخل إلى غرفتها ووضعها فوق فراشها بهدوء... امتدت أنامله ليزيل تلك الخصلة برفق و من خلفه كانت تقف الحكيمة و السيدة فاضلة و بيدها رداء أخر...

تنحنحت السيدة فاضلة ليلتفت إليها علي رفرفت أهدابه لولهة ثم استقام واقفا وهو يشد شعره البني القصير إلى الخلف... نظر إلى السيدة فاضلة بعيون زائغة وقال

- سأذهب لارتداء ملابس أخرى...

خطى خطوات سريعة إلى الخارج تاركا خلفه امرأة عجوز بابتسامه عابثة و حاجب مرفوع وأخرى بعينين غير مصدقتين وفم مذموم...

قامت السيدتان بتغير ثياب تولين مرة أخرى ... جلست الحكيمة بجانب تولين تقوم بعمل بعض الإجراءات الطبية لها... وبعد قليل من الوقت نزلت الحكيمة إلى أسفل المنزل لترى على يقف بهدوء ظاهري يراقب الحديقة من خلف إحدى النوافذ الكبيرة بحجرة الاجتماع بالرجال بمنزله...

تنحنحت الحكيمة ليلتفت لها علي

- سيدي لقد قمت بعمل بعض كمادات الخل لها وهى الآن بحالة مستقرة نوعا ما وأخبرت السيدة فاضلة بجميع الاحتياطات اللازمة زال البأس عنها إن شاء الله

- شكرا لكي تفضلي...

قام بوضع قطعة قماش مخملي مغلقه بإحكام بيدها قامت بفتحها لتجد العديد من القطع الذهبية... ابتسمت بسعادة و انحنت له بشكر خالص وخطت خطوتين للخلف وغادرت المنزل في حين وقف السيد علي يحملق بالسلم

المؤدي إلى جناح تولين مفكرا كيف ستكون الأيام القادمة؟!!!

بعد أن غادرت الحكيمة جلست السيدة فاضلة بجانب تولين واضعة فوق جبينها قطعة من القماش المبللة... ظلت تنظر إليها وتفكر في أن لتلك الفتاه نوع من التأثير على سيدها بطريقة ما... جلست ساعات تستمع إلى همهمتها وتنهداتها إلى أن حل صباح يوم جديد.....

و بقصر أخر كانت فتاه شقراء أية بالجمال بعيونها واسعة و أهدابها البنية طويلة... بريئة بمظهرها لكن نظراتها بعيدة كل البعد عن البراءة حيث الغضب المستعر.... قدها رشيق وملابسها فاخرة مثل المكان التي تعيش به .... تجلس برشاقة واستقامة على أريكة فاخرة بجناحها بقصر أل بولغور... تمسك بيدها مرآه ذهبيه مزخرفة تنظر بها بغضب في حين تقف الحكيمة تروى لها أحداثها المثيرة بقصر اوغلو... و بغضب شديد قذفت المرآة بشدة

لتصطدم بالحائط فتتهشم إلى قطع صغيرة متناثرة في حين اتخذت الحكيمة احد الأبواب حصن لها من غضبها... تسارعت أنفاس الفتاه بغضب شديد لكنها وبلحظة استعادت رباطة جأشها واستقامت مرة أخرى بأناقة تصلح بمظهرها ما أفسده غضبها وهي تقول

ـ كلا لم ولن اهزم بعد... لم تكتب الهزيمة لجوهرهان بولغور....

الفصل الخامس

قمر كامل يتوسط السماء ينير لمحمد وعايدة جلستهم مع ذلك الشيخ الكبير الذي يدعى الشيخ إبراهيم..... إبراهيم بولغور!!!...
الجميع يجلس أمام ذلك البيت الخشبي القديم بتلك المنطقة الريفية النائية حيث لا يوجد حول المنزل غير جدول مياه وأشجار وحدائق بكل مكان.....
كانت عيون محمد تتأمل المكان حوله في شرود... فاق محمد من حين وضع الشيخ إبراهيم بولغور طبق من التفاح أمامه قائلا بلغة عربية ضعيفة للغاية لكن مفهومة...
ـ تفضل... انه ... تفاح... انه لذيذ الجميع يحبه
فهم محمد وعايدة ما يقصده بالطبع يقصد تفاح (مسكيت) الذي تشتهر به أماسيا ... امسك محمد واحدة واخذ ينظر لألوانها و امتزاج

اللوني الأخضر و الأحمر معا قضم منها قضمة صغيرة فكان لها سحر غير مسبق....
نظر إلى الشيخ وابتسم له في حين ذهب الشيخ ابراهيم إلى داخل المنزل الخشبي وجاء بمصباح زيتي مظهره يدل على انه تحفه فنيه قديمة كالذي يعلق بالمساجد العثمانية القديمة .... اسنده الى عمود خشبي بجانب الطاولة المستديرة ثم وضع العديد والعديد من الورق والمراجع أمام عايدة ومحمد
استغرب الزوجين كثيرا فسأله محمد قائلا
- ما هذا ؟
تنهد الشيخ إبراهيم قليلا ثم نظر لهم بتردد وقال لهم
- قبل كل شيء لا أريد أن تقاطعوا حديثي فقط استمعوا...
نظر محمد إلى عايدة قليلا بارتياب ثم أومأ ليبدأ الشيخ بسرد قصته...

- منذ فترة طويلة ... عمر بالنسبة لي.... كنت أعيش مع والدي ووالدتي و إخوتي... كان لدي شقيقتين كانتا يجمعان كل جمال الأرض والسماء بعيونهما عتيقة و جوهرهان.... عائلتي لقبها بولغور.... عائلة ثرية للغاية و كما يقال من المرموقين بالدولة.... الدولة العثمانية... حيث كان أبي من أغنياء أماسيا و أمي كانت من الأشراف.... كان أبي مناصرا للأمير مصطفى يدعمه بكل ثقته وقوته كما هو حال جميع أهالي أماسيا بل أهالي الدولة كلها....

جمد بمكانه محمد و تحرك بؤبؤ عينه ينظر لعايدة ليجد شفتيها منفرجتين و حاجبيها مرفوعين لأعلى .... وضع يده على فمه كاتما أي حرف أو ضحكة قد تخرج منه بأية لحظة على كلام هذا الرجل الخرف.... في حين أكمل الشيخ قائلا

- و حدث بيوم أنى كنت لعب مع حصاني الذي اشتراه لي والدي حين بلغت العاشرة.... كنت امرح بين الأشجار وجداول المياه بالغابة تلك الغابة اللعينة ذاتها التي فقدتم صديقتكم بها.... و بلحظة هبت رياح عصفت بكل شيء برق ورعد وأمطار غزيرة لا يرى بها شيء.... صرخت استغيث بوالدي.... سمعت صوته و صوت إخوتي وأمي وهم يصرخوا مستغيثين ظللت أدور بالظلام الحالك ولا أرى شيء.... ثم فجاه صرت هنا.... بعالمكم هذا.... اهذى واهذى اشرح للجميع من أنا فلا أجد غير الضحك والاستهزاء ظانين أنى طفل ذو مخيلة خصبة كما قالوا....

تبنتني عائلة عشت معهم بضع سنين و أنا لا انسي عائلتي لا انفك احلم بهم وارهم بكل مكان.... لم أتأقلم على هذا العالم بسهولة فكل شيء تغير لغتنا القديمة و طريقة كتابتها عاداتنا وتقاليدنا كل شيء تغير....

تنهد الشيخ وهو ينظر إلى المراجع و الأوراق الملقاة أمامه....

- هربت من تلك العائلة الكريمة التي تبنتني حين أتممت سن الرشد كما هو محدد و بدأت رحلة البحث عن أصلي البحث عن عالمي الذي تركته... درست كل ما يخص التاريخ العثماني ... درست الفيزياء وعلوم الفلك وكل شيء قد يدلني لإجابة سؤالي... كيف وصلت هنا؟ و علمت....

نظرت الشيخ بعيون محمد الذي تبدل بهم السخرية إلى الاهتمام حين نطق محمد قائلا

- ماذا علمت

- السفر عبر الزمن

صرخ محمد وعايدة بنفس الوقت

- ماذا؟!!!!

- اهدأ قليلا اعلم قد يكون ما أقوله جنونا ولكنه لا يقارن بالشعوذة التي رأيتموها الفترة الماضية....

اخذ محمد شهيقا كبيرا وزفره بشدة وهو يقوم من مجلسه ويركل المقعد بقدمه في حين حاولت عايدة تهدئته قليلا قائلة

- اهدأ قليلا محمد نستمع له و إن لم نجد ما يفيدنا نذهب ولن يضرنا شيء فقط نستمع....

نظر محمد بارتياب لذلك المجنون في حين كانت نظرات الشيخ هادئة وبسمة واهنة على شفتيه تخفيها لحيته وشاربه....

- و كان هذا رد فعل معظم من سردت لهم قصتي اعلم تبدو جنونية لكنى درست كل تلك المراجع للفيزياء والفلك والجغرافيا أيضا قد أكون حفظت خرائط العالم بأكمله.... علمت انه بمكان معين كل سنة و بظروف فيزيائه جغرافية معينة يطول شرحها تفتح بوابة

زمنية قد يقع بها أي عاثر حظ دون قصد و يجب أن يكون تلك البوابة بنفس المكان بكلا الزمنين

صمت الزوجين قليلا ثم بملامح جامدة نطق محمد ببرود قائلا
- ماذا يعني هذا بالله عليك؟
- حين تقوم رياح غالبا ما تكون موسمية لها مقياس محدد في كلا من الزمنين الحاضر والماضي أو الحاضر والمستقبل معا بأماكن ذات تضاريس جغرافية معينة و مع بعض التغيرات الفيزيائية قمت بدراستها لعدد من السنين يحدث أن تفتح تلك البوابة الزمنية أو بلفظ أخر الفجوة الزمنية هي تكون عبارة عن هوة سواء تقوم بجذب من يقترب منها مثل المغناطيس... كما حدث مع صديقتكم و معي...
تنهد كلا من عايدة و محمد وهم يفكرون هل هذا يمكن أن يكون؟ هل هناك شيء يسمى

الهوة الزمنية او البوابات؟؟؟ ناظر كلاهما إلى السماء والقمر.... في حين أكمل الشيخ قائلا

- من الجيد أن هناك ثوابت مثل هذا القمر... ثابت بكلا الزمنين..... في بعض الأحيان انظر له لفترات طويلة أرسل من خلاله رسائل لعائلتي ....

ضحك باستهزاء على حاله و أكمل قائلا بسخرية

- بالطبع تلك ترهات أهون بها حالي.... اشعر بطريقة ما أنهم إن نظروا مثلي إلى القمر قد يروني أو يستمعوا إلى ما أريد قوله لهم..... ليتني معهم الآن....

نظر محمد وعايدة له بشفقه في حين كان ينظرالشيخ إلى القمر بابتسامه كأنه ينظر إلى من يحب.... نظر الجميع إلى القمر و كلا يفكر بمن يفتقده.....

ذلك البدر يتوسط السماء ويشع نورا... نورا تسلل إلى حيث كان علي اولغو يجلس معظم يومه على ذلك المقعد الخشبي المزخرف يحدق بنقطة وهمية بحديقته الصغيرة من خلال نافذته الكبيرة بمجلس الرجال يفكر بتلك بالوضع الحالي.... محاطاً بالظلام لا ينير تلك الغرفة غير ضوء القمر...

شعر بتشنج عنقه فمسده بيده قليلا و نظر حوله و هو يتنهد ... استقام واقفا وبخطوات حازمة صعد إلى جناحه... لكن ما أن مر أمام غرفة تولين حتى ترددت الخطوات الحازمة قليلا لكنه ما لبث أن نفض رأسه مطمئن حاله أن السيدة فاضلة معها... تقدم بضع خطوات متجاهلا باب غرفتها لكنه وقف مجددا في حيرة و تردد بأمره... و بسرعة و دون تفكير ذهب إلى بابها وفتحه دون أي تمهيدات...

أما بداخل الغرفة فكانت تولين راقدة باستسلام و دفئ في فراشها و السيدة فاضلة تجلس

بالقرب منها مستندة إلى الفراش وهى تغط بنوم عميق في جلسة غير مريحة بينما تلك الشموع المتناثره هنا وهناك تضيء الغرفة

خطى علي إلى الغرفة بهدوء كي لا يصدر أي صوت مزعج لهم... اقترب من السيدة فاضلة بحرص وربت على كتفها لتستيقظ فزعة تسال من هنا فيضع علي سبابته على فمه إشارة لها أن تصمت وتهدا... ربت مجددا على كتفيها وهمس لها

- تفضلي سيدة فاضلة إلى غرفتك فهي كما تركتها

ظلت السيدة فاضلة صامته قليلا ثم أشارت إلى تولين وهي تعترض

- لكن لا يجب تركها هكذا

- سأبقى أنا معها

نظرت له بقليل من التعجب لتصرفه كادت أن تعترض لكن تغلب إرهاقها عليها لتستسلم

لقراره وتذهب إلى غرفة كانت بيوم ما محل إقامتها.... جلس علي بجوار تولين الغارقة في ثباتها وهو يراقب تعبيرات وجهها المنزعجة وكأنها ترى بل تعيش كابوس ما.... امسك بقطعة القماش المبللة الموضوعه بحرص فوق جبهتها ثم غمرها بالمياه المثلجة مرة أخرى ووضعها مجددا فوق جبهتها ليقشعر بدنها وينتفض انتفاضه خفيفة.. نظر إلى قطرتي مياه فرتا هاربتين من قطعة القماش لتنزلقان في هدوء ونعومه فوق بشرتها.... عاد بظهره مستندا إلى المقعد وهو يراقب تلك الراقدة مفكرا بمصيره معها ومصيرها هي بعالمه... تنهد والقي برأسه إلى الخلف محدقا بنقوش السقف و بلحظة ما غفي دون أن يدري لتنتهي تلك الليلة بسلام... أو هكذا ظن الجميع....

إلا انه بمكان أخر بطريق ناء عن الجميع بالقرب من الغابات كان هناك فتاه تلتحف عباءة سوداء كبيرة تغطيها بالكامل لا يظهر

منها غير عيونها الزرقاء كعيون القطط حتى أن غدر القطط رسم بفن الهي في نظراتها.... يقف بجانبها أغا مسئول عنها بتململ وخوف وارتباك ينظر يمينا ويسارا باحثا عمن ستقابل سيدته جوهرهان خاتون...

- سيدتي أرجوك فلنعد إلى المنزل ويمكنك بعث من تشائين من الحرس لمقابلة الرجل هنا أرجوك المكان خطر

- اصمت أيها الغبي لا احتاج نصائحك ثم أنى لا ائتمن أي شخص بذلك المنزل اللعين حيث يراني الجميع فاقدة لقواي العقلية فقط اصمت ودعني ننتظر هذا الأبله

- لقد أتى الأبله سيدتي

كانت هذه الجملة بذلك الصوت الغليظ المتهكم صادرة من رجل في العقد الخامس من عمره يقف خلفهم بملابس مهندمة نوعا ما لكن تفوح منها رائحة عفنه وابتسامة ساخرة يظهر من تحتها صفي أسنان مقززان شعرت جوهرهان

بالغثيان من منظره الرث لكنها قاومت شعورها وتنحنحت بقوة...

- هل جلبت ما أخبرتك به وصيفتي؟

- تم الأمر سيدتي

قال جملته وهو يخرج من جيب صغير بملابسة شيء مغطى بقطعة قماش حريرية... نظرت إلى الأغا و بنظره واحدة فهم ماذا تريد... اخرج هو أيضا قطعة قماش محكمة الغلق وقام بتحريكها لتصدر صوت جعل عيون الرجل تشع فرحا وبدا لها كأنه يلهث نوعا ما وهو ينظر إلى كومة الذهب التي سيفوز بها مقابل السم.....

- هل له تأثير الحمى كما طلبت

- بالطبع سيدتي لن يشك احد انه سم سيكون كما وكأنها مجرد حمى ولا علاج له إلا مصل يباع ببلاد بعيدة سيدتي فلا تقلقي...

أومأت جوهرهان وأمرت الأغا بإعطاء الرجل الذهب وما أن أصبح السم في يدها حتى شعرت بزهو الانتصار قبل بدء المعركة....

مر الليل وأشرقت الشمس لترسل دفئها إلى عيون تولين عبر أشعتها الخفيفة المتسللة من خلف ذلك الستار الكبير لتلمس بشرتها بحنو...

استيقظت تولين وهي تفتح عينيها بصعوبة.... تشعر بآلام متفرقة بجميع أنحاء جسدها... وضعت يدها فوق رأسها فوجدت قطعة من القماش التفتت برأسها قليلا لتجد ذلك الجسد الكبير يغط بنوم عميق فوق مقعد صغير بجانب فراشها... انتفضت من مكانها وهي تنظر إلى ملابسها الغريبة والفراش الذي ترقد به... اشتعل وجهها خجلا حين فكرت...أقام هو بتغير ملابسها أم ماذا؟ شعرت بالغضب كيف يجرؤ على هذا الفعل؟! اعتدلت وجلست عل حافة الفراش... كادت أن تقف لولا أنها شعرت بدوار

مفاجئ ففضلت الجلوس.... أطلقت سعال قوى ليستيقظ فلم تجد رد فعل... أجلت صوتها وقالت

- سيد علي أتمنى أن تقوم بتوضيح ما حدث لي...

و مجددا كان الصمت هو رده حيث كان يحلق بعالم أخر لا يعمله سواه هو رب العالمين...

نظرت له و رغم كل شيء شعرت بالامتنان و... الشفقة .... هل جلس ليلته بجانبها هكذا؟! تنهدت وهي تحدق به.. بجلسته الغير مريحة... ذقنه التي بدأت بالنمو مجددا... قطبت تولين وهي تسال نفسها قائلة (مهلا كيف نمت وقد كانت حليقة ليلة أمس؟ كم من الوقت مر عليها وهي بفراشها؟!!!)

رفرفت أهدابها وأخذت شهيقا كبيرا وبهدوء رفعت أناملها لتوقظه وهى تربت بهدوء على لقدمه فلم يستيقظ...

ذعرت تولين انه يمكن أن يكون مريض بسببها... لمست وجنته وهي تناديه باسمه المجرد لتقابلها فجاه عيون الصقر تنظر لها بتمعن... انتفضت تولين وتراجعت منكمشة للخلف وهي تعتذر له...

اعتدل علي بمجلسه وهو ينظر إليها تحكم وضع الرداء فوق جسدها... نظرت له بعيون خجله يشوبها القليل من الغضب ... ابتسم قائلا

- لا تظني بي الظنون لم يكن أنا من اهتم بك لا تقلقي ستجدينها هنا بأيه لحظة...

رفرفت أهداب تولين وقد زفت وهي تحمد الله على فضلة ... استقام واقفا من مجلسه وعادت نظرته المخيفة إلى عينيه مجددا وهو ينظر لها قائلا

- حسنا بما إنك بخير حال الآن فبدون أي اعتراض سوف يأتي طعامك وستأكلينه كاملا وإلا سيحدث ما لا يحمد عقباه فانا لا أحب أن أبلى بك مرة أخرى

نظرت له تولين شذرا وهي تفكر ما هذا الاحمق؟ كيف يمكن ان يحدث لي مكره هنا؟ انا بحلم داخل عقلي لذا أنا بخير بأسوأ الأمور سأستيقظ حتما.. لكن مهلا إذا كان حلم كيف كنت مريضة؟

أما عنه فكان يراقب تلك التغيرات تمر سريعا بعيونها... تارة الغضب... ثم التهكم... وأخيرا الضياع مجددا... ولكي يخرجها من تلك الدوامة قال بصوت عال

- أفهمت؟!

ارتجفت جفون تولين وقد انتشلها صوته بالفعل من تلك الدوامة وعادت لوعيها لتقول بهجوم مضاد...

- لا أريد الطعام ولا يمكنك تهديدي أنا لا أخاف وإذا كنت لا تريد وجودي حسنا سأذهب من هنا حالما أتعافى

ابتسامه جانبية ظهرت على ثغره وهو يقول بهدوء غامض...

ـ أنا لا اهدد أنا افعل... فقط أنبهك لرد فعلي

نظرت له فاغره الفاه بينما تراه يلتفت ويتركها بمظهرها المشدوه المرتبك الذي جعله يكاد يصاب بنوبة من الضحك.....

لم يمر وقت طويل حين دخلت السيدة فاضلة لحجرتها واضعة أمامها عدة أطباق على حاملة الطعام ذات الطراز العثماني العتيق...

انتشرت رائحة الطعام الزكية لتنتبه معدتها المسكينة ....وقفت السيدة فاضلة تبتسم لها بحنو ثم تقدمت وجلست على المقعد بجانب الفراش قائلة

ـ مرحبا بك ابنتي أنا السيدة فاضلة طبعا لا تتذكريني فكان أول تعارف بيننا غريب نوعا ما

ظلت تولين على صمتها أمام المرأة فهي لم تفهم حرفا واحدا من كلامها بلغتها الأم و بتلك

اللحظة تدخل علي فجأة لا تعلم متى عاد للغرفة مرة أخرى إلا انه عاد ويقف بركن بعيد بغرفتها.... بدأ بترجمة كل ما تقوله السيدة فاضلة فكانت تروى لها كل ما حدث و بالطبع تجاوز عن ترجمة الكثير فلا يريد فضح تلك العلاقة الوهمية التي اختلقتها السيدة فاضلة أمام الحكيمة.... في حين كانت تولين تلتهم الطعام بشهية تحت نظرات السيدة فاضلة الحانية ونظرات صقر يقف كما هو بعيدا.... أخذت السيدة فاضلة تنظر يمينا ويسارها وهي تبحث عن شيء وتقول بلغتها

- لقد أحضرت لكي شيء أخر أين تركته أنا؟

تركت تولين طعامها وهي تنظر إلى السيدة فاضلة وقالت

- عم تبحثين سيدة فاضلة؟

- تبحث عن هذا غالبا

جملة نطق بها علي وهو يقف بجمود مظهرا من خلفه كومة من الحرير ثم فردها ليظهر فستان غاية في الروعة بلون ناعم رقيق... نهضت من الفراش تقف بجانب السيدة فضالة تنظر إلى الرداء ثم تنظر إلى السيدة فاضلة التي ارتبكت ولكنها اخفت ارتباكها جيدا تحت ابتسامة جميلة في حين ذهبت بخطى ثابتة إلى علي المتصلب بمكانه... لو كانت النظرات تقتل لكانت السيدة فاضلة في ذمة الله... لكنها وبقوة جابهت نظراته في تحد ....

أمسكت الرداء الحريري واقتربت من تولين تعطيها إياه في ود وابتسامة حانية... امتدت أنامل تولين لتتلمس الحرير الناعم وتمرره على بشرتها وابتسامة سعيدة تزين ثغرها ....

وكأن الشياطين كانت تتراقص أمام عينيه... كيف تجرأتا على لمس ما يخص زوجته بل اعز ما يخص زوجته .... ظهر غضبه بعينيه وحركة فكيه المتطابقين بشدة وكفيه

المضمومتين حتى استحال لون يده الى الابيض الشاحب.... قالت السيدة فاضلة وهي تنظر إلى وجه تولين

- اعلم انه سيناسبك.... كان هذا لزوجة السيد علي وهي تشبهك بالحجم.... اعتقد انه بلائمك

التفتت تولين إلى علي ليترجم لها ما قالته السيدة فاضلة.. ظل لفترة ينظر إلى السيدة فاضلة وهي تواجه نظراته بالمثل دون أن تفقه تولين شيء... ثم بدأ بترجمة ما قالته السيدة فاضلة وهو يضغط على كل حرف و أخيرا التفت وغادر ترك الغرفة بخطوات واسعة هادئة في ظاهرها فقط.. لكن وحدها السيدة فاضلة تعلم مدى كظم غيظه بتلك اللحظة... ربتت السيدة فاضلة على كتفها وتركتها هي أيضا....

التفتت وتركتها متخبطة بين فرحتها بذلك الثوب الرائع وكلامها.. زوجته؟ اهو متزوج؟

إذا أين زوجته؟ لحظة واحدة لقد قال كلمه كان!!!! هي انفصلا؟!...

أسئلة كثيرة ظلت تطوف برأسها الصغير إلى إن هدأ تفكيرها وهي تقرر أن تتقبل تلك الهدية....

وقف علي ينظر إلى الأشجار المحيطة بمنزله الخشبي الكبير شاردا بتلك القابعة بمنزله لمدة لا باس بها دون أن يفهم ما بها أو من هي ومن أين جاءت... أفاق من شروده على صوت سعال صغير من السيدة فاضلة...

التفت إليها و ظل على جموده لتقترب منه بهدوء

- لم اقصد إزعاجك سيدي وأنت تعلم هذا لكنها هي بحاجة للشعور بالألفة هنا و أظن أنها جاءت كعلاج لك أيضا

رفرفت جفنيه عدة مرات ثم قال

- اتمنى ألا تجبريني بأفعالك تلك لارتكاب الحماقات!

- كان هذا اختبارك سيدي وأنت يوما تلو الأخر تفشل به... يجب أن تختار الحياة طالما وهبك الله إياها و دع الموت لوقته....

طال نظره لها وحاجبيه منعقدان ابتسمت السيدة فاضلة وهي تربت على يده ... سمعا صوت خطوات صغيرة تقترب إلى حيث يقفان

- اعتقد أنها جاءت! أتمنى أن تضبط أعصابك قليلا فلا تكون فظا معها

نظر علي إلى السيدة فاضلة بتهكم وملل وحرك رأسه يمينا ويسارا بقلة حيلة... حادت عينيه قليلا عن السيدة فاضلة ليجدها تقف جانبا كجنيه من قصة أسطوريه كانت السيدة فاضلة تخبره قصصا عنها قديما.... جدائل شعرها تلمع تحت أشعة الشمس المتسربة من زجاج النوافذ الصغيرة المرتفعة المتفرقة بأنحاء الغرفة... ردائها السكري الحريري اللطيف ذو

الأكمام الطويلة الواسعة و فتحه العنق الكبيرة منسدل رقة على جسدها ...

أطال النظر لها مما جعلها ترتبك بوقفتها فأزاح نظره عنها وهو يتنحنح قليلا ثم ولى مدبرا ولم يعقب....

مر اليوم بين شد وجذب بين علي والسيدة فاضلة وتولين تقف كالبلهاء لا تفقه شيء مما يحدث حولها غير أنها تعلم أن ما يدور بينهما بالتأكيد عنها...

التجأت مجددا إلى غرفتها لتبقى بها إلى أن حل الليل عليها وهي تجلس القرفصاء على تلك الأريكة بجانب نافذتها الصغيرة.... تحدق بنقطة وهمية تفكر متى سينتهي هذا الحلم؟ هل هو حلم؟ لا تفسير أخر سوى انه إما حلم أو قد اعتراها الجنون... لكن إلى متى ستتجاهل ساكني المنزل قد مر يوم او اثنان لا تعلم لكن مهلا هل تمر الأيام بكل تفاصيلها بالأحلام؟!!! هل هي بغيبوبة ما؟!... لم يطل تفكيرها بساكني

المنزل حتى وجدت سيد المنزل يقتحم الغرفة الذي اتخذتها ملجأ لها حتى ينتهي كابوسها بينما تركض السيدة فاضلة خلفه وقد اعترى وجهها الامتعاض....

نظر علي اوغلو لتلك القابعة على تلك الأريكة تحتضن قدميها إلى صدرها كعادتها.... نظر إلى الظلام داخل الغرفة وبتأفف خرج مجددا ليأتي بشعلة ليضيء شموع الغرفة.... و بعد عدة ثوان أضيئت الغرفة لتظهر ملامح تولين الحزينة وقد ظهرت لمعة عينيها بدموعها الحبيسه.... تنهد بشدة ونظر إلى السيدة فاضلة التي كانت تقف بصمت بأحد أركان الغرفة تنظر له بغضب وعدم رضا لما سيقوله ثم رفعت احد حاجبيها لأعلى و نظرت له بتحد وقالت بلغتها العثمانية

- هيا تفضل... قم بطرد المخلوقة خارج المنزل كما تريد... فقد القها خارج بابك ولا تبالي...

اعتقد انه سيتكفل بها احد قاطعي الطرق الآن...

اشتدت نيران الغضب بعيني علي وقد أصبح صرير أسنانه مسموع لدى من بالغرفة... أغمض عينيه بشدة ثم زفر بيأس والتفت إلى تولين مجددا وقد شفع لها تيهها ومظهرها وقد تبعثرت خصلات شعرها مجددا بهمجية طفولية حول وجهها بينما فرت بالفعل احد دموعها من قضبان مقلتيها لتنساب على أحد جانبي وجهها... تنهد بشدة واقترب ببطء شديد وقد سحب بيده مقعد صغير ليضعه أمام الأريكة ويجلس بهدوء ظاهري...

أما عن السيدة فاضلة فقد هدأ غضبها قليلا حينما فطنت تغيره... تعلم انه يبدو غليظ ومخيف بعض الشيء إلا أن دائما ما يتغلب عطفه على غلظته... ارتسمت ابتسامة جانبية على ثغرها وهي تلتفت وتخرج بهدوء من جناح الضيوف والذي أصبح جناح تولين...

لم يطل صمت علي اوغلو وهو ينظر إلى تولين حيث قال بصوت هادئ...

-لن يجدي مكوثك بأحد أركان الغرفة بذعر هكذا بشيء... لن تعودي لأحبائك إذا استسلمت... ساعدي نفسك لنستطيع مساعدتك سيدة تولين...

كانت تستمع لكل حرف مما يقول وهى تنظر أرضا إلى أن أنهى جملته لترفع عيونها اللامعة تنظر إلى معالم وجهه... بحثت عن الغضب المعتاد لم تجد منه شيئا... فقط ملامح وجهه هادئة لا يرتسم عليها تعبير استنكار أو استهزاء... فقط بعض العطف و المؤازرة تنبعث من بين تلك الكلمات التي قالها...

رفرفت أهدابها وابتلعت ريقها بصعوبة بينما أراح ظهره إلى المقعد الذي يجلس عليه ولازالت نظراته لا تحيد عنها...

- هل لازلت لا تعلمين أين تركك أصدقائك؟ لا تتذكرين مكان إقامتك هنا بالتأكيد كان هناك منزل تقضين به أيامك قبل أن تضلي الطريق...

ابتلعت ريقها وهي تتذكر ذلك الفندق الصغير وحجرتها به وتلك النافذة التي تشبه لحد كبير تلك التي بجانبها حيث كانت أشعة الشمس تتسرب من خلالها لتنقذها من كوابيسها... تنهدت وهي تنظر إلى النافذة ثم تنظر إلى علي اوغلو مجددا لتقول

- لا أتذكر شيء...

تنهد علي اوغلو وهو يومئ قليلا ثم شقت ابتسامة واهنة شفتيه وهو يقول

-حسنا سيدة تولين أتمنى لكي إقامة مريحة بمنزلي المتواضع حتى تستطيعي العودة لوطنك وعائلتك...

نظرت له بقليل من الاستغراب لتلك الابتسامة وذلك الهدوء لكن ما لبث استغرابها أن زال حينما اختفت تلك الابتسامة وقال بصرامة بالغة

-لكن... هنالك قواعد لهذا البيت أتمنى ألا تتخطى إحداها وإلا العواقب ستكون وخيمة... فلتنالي قسط من الراحة اليوم تصبحين على خير...

لم يتسنى لها الرد حينما قام مسرعا إلى الخارج وكأن شياطين الإنس والجن يلحقون به... تنهدت تولين وهي تعبث بشعرها ولسان حالها يقول (وها قد عاد لغضبه وشدته المعتادة)

نظرت خارج النافذة مجددا تفكر متى ينتهي هذا الحلم... و خارج الغرفة كان يقف علي اوغلو أمام السيدة فاضلة... كانت ترمقه بنظرات ماكرة وابتسامة عبثية تتراقص على شفتيها بينما كان يقف أمامها يكظم غيظه من نظراتها لأقصى درجة....

و بدون كلمه واحدة ذهب إلى جناحه أخذا معه رياح غضبه وحنقه من هذا الوضع...

مرت أيام لتتحول إلى أسابيع وقد اقترب ظهور بدر جديد بالسماء.... بدأت تولين الاعتياد على المكان في ظل استنكار علي لوجودها بكل مكان... يشعر كأنها غزو ما حدث لبيته و السيدة فاضلة تساعدها بكل الطرق لغزو كل مكان ببيته

إلا انه لا يسمح لها بغزو حياته الخاصة كما تمهد السيدة فاضلة...

كان يراقب بصمت كل تحركاتها... يراقب تأديتها لكل نصائح السيدة فاضلة... طريقة السير طريقة تناول الطعام تعلمها لبضع الكلمات العثمانية... تنطقها كطفلة صغيرة في بداية تعلمها للكلام.... ومع مرور الوقت وجدت تولين سبيلا لفهم السيدة فاضلة بالرغم من عدم مقدرتها على إتقان اللغة بعد... لم تعد

تولين تحتاج لمساعدته الدائمة لسبب ما انزعج من عدم حاجتها له مثل سابقا....

ومع مرور الايام كان يتضخم الصراع داخل علي اوغلو.... حيث ضميره يجلده ليلا لسوء تعامله معها وعقله يبرر له تصرفاته فهي مدللة وقد سام تواجدها بمنزله....

كان إذا تلاقى دربيهما لا يتوانى عن توبيخها بشكل ما .... لم يخلو يوم من توبيخ علي اوغلو لها بينما تظهر كل يوم قاعدة جديدة لتحد من حريتها بذلك المنزل كي لا تسمح لنفسها بالتمادي وكأن هذا منزلها....

و بمنتصف كل هذا كانت السيدة فاضلة هي اليد الحانية للاثنين تارة تواسي تولين وتارة تربت على قلب علي اوغلو المتخبط بين ما قد فات وبين الحاضر الذي قد يذهب بأية لحظة من بين يديه كما كانت تقول له....

وبليلة كان علي يقرأ بكتابه المفضل بينما كانت تولين تجلس بغرفتها تتضاحك مع السيدة فاضلة وهما تغزلان... اخترق صوت ضحكاتها أذنيه ليتجمد بمكانه كتمثال حجري وقد شتتت تركيزه.... لوهلة شعر وكأنه صوت زوجته الغالية وكأنها بعثت من جديد لتضئ يومه بإحدى ضحكاتها المبهجة... وخزت عينيه دموع الاشتياق ليغمض عينيه بشدة وهو يغلق كتابه و يقبض عليه بقسوة... وبخطوات واسعة غاضبة ذهب إلى مصدر الصوت.... و كان اقتحامه لغرفتها كاقتحام العسكر لوكر المجرمين... فما أن دخل بغضبه المتطاير حوله بكل مكان حتى سكتت تولين فجأة هي والسيدة فاضلة... ظل الصمت مهيمن لعدة ثوان حتى انطلقت حنجرته في هتاف صم أذنيهم

-ما هذا بحق الله؟ هل نحن بإحدى الخمارات أم ماذا؟ ألا تجدان أن الليل قد انتصف

بالفعل؟!سيدة تولين أخبرتك بالفعل أن هنالك قواعد لهذا المنزل...

لم تفهم السيدة فاضلة حرفا مما قاله سوى انه توبيخ أخر لتلك المسكينة.... اقترب بضع خطوات وهو ينظر لها بنظرات قاتله للروح وبصوت منخفض لكن يحمل بطياته الكثير من الغضب و... والاستحقار
-نظام وضعته سيدته وسيظل حتى يفنى هذا المنزل فلا تتخطي حدودك مجددا...

رفرفت أهدابها بشدة شعرت بألم خفي بقلبها لذكر سيدته المنزل الراحلة... أغمضت عينيها ونكست رأسها في حين نظرت لها السيدة فاضلة بشفقة بينما ترى تلك اللؤلؤة الفارة من عينيها و بصوت ضعيف تخلله عدة شهقات قالت...

ـ اعتذر منك سيد علي لن يحدث أن أتخطى أية قواعد مرة أخرى أنا فقط.... أنا فقط لم أكن اعلم... سأتعلم بجهد أكبر أعدك...

القي الكتاب جانبا بغضب وهو يقول
ـتتعلمي؟! لن تستطيعي.... لن تستطيعي الإحاطة بكل شيء فأنت مجرد مدللة ابتلاء من الله حتى انك لازلت تتحدثين العربية بعد... لا يمكنك نطق جمله سليمة واحدة حبا بالله كوني ناضجة و تحملي المسؤولية
زفر بشدة وهو ينظر إلى سقف الغرفة ثم نظر لها باستعلاء وهمم قائلا
ـ لا استطيع احتمال فكرة أني قد أبلى بك لمدة أطول
ازدردت لعابها وحاولت كبت باقي دموعها... دعت ربها أن يبتعد سريعا من أمامها أو أنها ستركض خارج المنزل كطفلة مراهقة فهي لن

تحتمل أن تنهار أمام ناظريه يكفي ما قد أهدر من كرامتها حتى الآن...

وقف ينظر لها قليلا بينما يراقب عبرة صغيرة تنزلق بهدوء على وجنتها الحمراء وقد فرت هاربة من مقلتها حينما بدأت عاصفته الهوجاء.... و كدرب من الجنون اجتاح خاطره مشهد له يجفف تلك الدمعة الفارة من عينيها... أدار ظهره مبتعدا عن مجلسهم يمشى بخطوات سريعة حد الهرولة هاربا من هذا المجلس اللعين و من مخيلته الحمقاء...

ما أن غادر علي الغرفة حتى أطلقت العنان لدموعها وقد علت شهقاتها حتى أصبحت أهات وصلت إلى مسامعه ليعاني من صفعات ضميره مثل كل ليلة... فما ذنبها هي بصراعاته الداخلية....

ضمت السيدة فاضلة تولين إلى صدرها وهي تربت على ظهرها وتمسد شعرها بيديها في مواساة لها....

حاولت السيدة فاضلة التحدث مع لتولين بالإشارات وبعض الكلمات التي تفهمها تولين لتهدئتها لتتنهدت تولين وقد هدأ نحيبها بينما تنظر إلى ذلك الكتاب الملقي على المقعد بإهمال.... أمسكت به تتفحصه قليلا ثم فتحته لتجد أقوال جلال الدين الرومي المفضلة لديها وباللغة العربية....

تحول حزنها إلى دهشة... مرت عيونها على تلك الخواطر واحدة تلو الأخرى ليكون لها مفعول النسمة الهادئة اللطيفة بجو قاس حار فتتناسى همها مع كل خاطرة لجلال الدين الرومي...

اتسعت ابتسامتها رويدا رويدا حتى ملأت وجهها تحت أنظار السيدة فاضلة السعيدة

لسعادتها نظرت تولين إلى السيدة فاضلة وهي تقول بلغة عثمانية ركيكة يختلط بها العربية بينما تشير الى الكتاب بيدها

-انه يحب هذا؟ اعني القراءة

قطبت قليلا السيدة فاضلة تحاول فهمها إلى أن انفرجت أساريرها وهي تومئ موافقة بينما تقول بلغة عثمانية

- أجل يحبها كما انه يجيد كتابة الأشعار

قطبت تولين وهي لا تفهم شيئا مما تقوله السيدة فاضلة.... ومجددا حاولت السيدة فاضلة شرح معنى كلمتها حتى فهمت تولين و كانت دهشتها أضعاف مضاعفه لتلك المعلومة إذا فهو يجيد كتابة الخواطر... شاعر عاشق لزوجته .... وعند تلك الخاطرة هامت قليلا وقد تخيلته يجلس بجانب زوجته و يلقى على مسامعها كلمات الغزل الرقيقة... عبس وجهها بطريقة طفوليه حينما تخيلته بمظهر العاشق...

ثم ما لبثت أن فتحت الكتاب مرة أخرى و أخذتها القراءة حتى خلدت إلى النوم....

أشرق صباح جديد وظهرت أشعة الشمس الصافية من خلف غيوم صغيرة متناثرة هنا وهناك في سماء زرقاء وتسربت عبر النافذة لغرفتها باستحياء لتداعب جفونها المغلقة بسلام....رفرفت أهدابها لتتقابل أشعه الشمس الهادئة مع حدقتي يمتزج بهما خضرة جميلة و لون العسل الصافي لا يظهر إلا مع تلك الأشعة الدافئة ...

أخذت شهيق بعمق ليتخلل الشعور بالدفء والأمل كل خلايا جسدها ويسيطر عليها شعور التحدي...

قررت أنها ومن تلك اللحظة لن تيأس ولن تكل أو تمل ستتأقلم... ستعتاد كل شيء رغم انف هذا الليث الغاضب باستمرار إلى تأتي اللحظة التي تستيقظ بها من ذلك الحلم الغريب... لا

تعلم كيف تنام وتستيقظ وتعيش حياة كاملة بداخل هذا الحلم لكن لا تفسير أخر سوى انه حلم....
استقامت في فراشها وهي تعبث بشعرها لينتشر حول وجهها في موجات بنية يطغى عليها لون ذهبي من وهج الشمس...
قفزت من فراشها حتى لا تسمع توبيخا أخر من ذلك المتغطرس... تذكرت توبيخه لتأخرها بالنوم... ولسبب ما عند تلك الخاطرة لم تعبس كعادتها... بل ارتسمت ابتسامة رقيقة على ثغرها وقد تذكرت محمد وعايدة حينما كانا يتذمرا أيضا من تأخرها...

وقفت تنظر إلى الملابس الذي أهداها إياها كاعتذار عما يبدر منه كل ليلة تقريبا وابتسامة مشاغبة ترتسم على شفتيها...

أمسكت بأكثر رداء كرهته فما من يوم ارتدت فيه هذا الرداء إلا وكان يوم لا يعلم به إلا رب العالمين وبطريقتها المرحة قالت...

ـ لقد قررنا العفو عنك أيها الرداء الحريري الجميل وسنعطيك فرصة أخرى وعليك أن تحسن التصرف فأنا في مزاج رائع بحق أرجو ألا تفسده لي...

أخذت ملابسها وبهدوء قفزت على أصابع قدميها بخفه إلى أن وصلت إلى الحمام لتستمتع به قبل إن يستيقظ ذلك الوحش وحينها لن يمكنها أن تخطو للداخل خطوة واحدة بتواجده المهيمن على المكان ستشعر وكأنه يراها وهي عارية تستحم حتى إن أغلق عليها ألف باب وباب...

أحكمت غلق الباب وخلعت ملابسها لتبدأ في أول مراحل سعادتها بهذا اليوم وهو الاستمتاع بطقوس الاستحمام على الطراز العثماني القديم حيث تجلس برقي على ذلك الحجر الرخامي و البخار يتصاعد من اتجاهات مختلفة ليدفئ المكان ويعم جو من الاسترخاء.... متخيلة حولها العديد والعديد من الجواري المخصصات لمساعدتها في الاستحمام وكافة أمورها الأخرى... بدأت بوضع المياه الدافئة على جسدها ليقشعر بدنها و تمتلئ خلاياها بالدفء و السلام....

انقشعت الغيمة الوردية الخاصة بتولين حين شعرت بحركة خارج الحمام فعلمت ان الليث الغاضب استيقظ..

أنهت ما تفعله بسرعة وارتدت ملابسها و أحكمت غلق شرائط ردائها لكنها نظرت إلى فتحته العنق الواسعة لتسب عقلها الذي لم يفكر

قبل اختيار رداء فاضح كهذا حيث يظهر مفاتنها ظهور الشمس وقت الظهيرة... حاولت إخفاء فتحة العنق بوشاح حريري بلون الاحمرالقاتم كلون ردائها واضعه إياه فوق رأسها كما تفعل السيدة فاضلة أحيانا ليظهرها بمظهر ملائكي جذاب ...
خرجت كما دخلت بهدوء على أطراف قدميها العاريتين لكن ما أن التفتت حتى اصطدمت بصدر واسع مغطى بقميص ابيض رجولي فضفاض... رفعت نظرها إلى علي ذو الشعر المشعث إلى حد ما وعيونه الحادة بنظرات الصقر خاصته.... نظراته التي لمحت قطرة مياه لازالت عالقة بأعلى جبينها وشعرها المبلل المغطى بشكل مهمل بذلك الوشاح الذي يبرز جمال بشرتها البيضاء بجانب لونه القاتم .... قبض يديه بشدة مانعا نفسه لمس بشرتها الندية ومسح تلك القطرة....

كم يبغض ويحقد على تلك القطرة فهي لها مطلق الحرية بلمسها أما هو فلا حق له ... لا يحل له بأي حال من الأحوال.. وقع نظره إلى فتحه العنق اللعينة التي تحاول جاهدة غلقها بذلك الوشاح.... رفع عينيه عنها ونظر إلى نقطة وهمية بعيدا عن تلك المخلوقة....

أما عنها فكانت أشعه الشمس ترسم هالة رائعة حوله... أخفضت حدقتيها لتلاحظ يديه المنقبضتين... هل غضب منها؟ أم مشمئز من تواجدها بمنزلة بحرية أكثر مما يريد هو... أغمضت عينيها بألم لكن ما لبثت أن تذكرت عهدها مع نفسها ... لن تيأس ستسعى حتى النهاية أو إلى ما لا نهاية ستظل تسعى حتى تجد سعادتها لن تجعله عائقا يمنع دخول أشعة السعادة ليومها بحلمها الخاص...

رفعت عينيها اللامعتين بإصرار شقي ومرح وقالت بلغة عثمانية سليمة و بابتسامه طفولية

-صباح الخير سيدي كيف كان صباحك

نظر لها بجمود رغم سعادته لسماع نطقها السليم أخيرا... فبادلت نظراته بنظرات مرحة سعيدة ومبتسمة... ثم عادت للغة العربية قائلة
-لقد بدأت أتقن بعض الكلمات الجديدة وانتظر عدة أيام أخرى وستراني كالببغاء اردد كل شيء تقوله بإتقان وكأنني ولدت وعشت هنا لسنوات عدة فأنا تلميذة أجيد التعلم بسرعة ولن تجد مثلي كثيرا... لا داعي للإطراء سيدي...
والآن يجب أن اذهب إلى السيدة فاضلة لتناول الإفطار لان معدتي تستغيث احترامي لك..

قالت أخر كلماتها وهي تنحني قليلا بتحية له كما علمتها السيدة فاضلة وتركته وهي تمشي بخيلاء إلى غرفة السيدة فاضلة ونظراتها تعبر عن عدة أشياء لا حصر لها تارة تعبر عن السعادة وتارة أخرى عن الانتصار بإحدى

جولاتها مع الليث الغاضب المتغطرس خاصتها... ذهبت تاركة خلفها عيون صقر مندهش وكأنه تم اصطياده للتو من قبل صيادة ماهرة بحق... كيف تبدلت روحها بين ليلة وضحاها؟!

حقا تلك المرأة تذهله يوما بعد يوم...

وبعد فترة دخل إلى مكتبته الخاصة ليجدها تجلس على طاولته أمام أشعاره و كتبه .... قالت له باللغة العربية

- أحاول قراءة ما تقوم بكتابته لكنى لم افهمه كله لكن لا تقلق سيأتي يوم وافهمه و قد أحفظه عن ظهر قلب أيضا....

- ماذا تريدين تولين؟
- لا شيء فقط جئت أعيد لك كتابك...

نظر إلى كتابه بيدها فتذكر انه القي به في خضم معركته النفسية

- حسنا أشكرك الآن أريد أن أنهى أعمالي لا يجب تواجدك هنا أكثر...

أومأت له و خطت تجاهه حتى أصبحا وجها لوجه ثم انحنت له برشاقة في تحيه له وابتعدت....
ما أن خرجت حتى كادت ان تصطدم برجل كان يهم بطرق الباب... رفرفت جفونها قليلا وهي تنحني له بتردد قليلا كتحية له كما علمتها السيدة فاضلة لكنها لم تعتاد بعد الإنحاء لأحد...
أما عن الرجل فما أن رآها حتى اخفض ناظريه أرضا وهو يومئ لها برد تحيتها...
رحلت تولين سريعا في حين كان يفكر الرجل من تلك؟!
طرق الباب بهدوء حتى سمح له السيد علي بالدخول... نظر علي الى صديقة الصدوق السيد عاكف وابتسم له مرحبا به
-مرحبا بك عاكف

ابتسم السيد عاكف بتردد وقال

-مرحبا سيد علي...

استشعر علي اوغلو تردده فقال

-ماذا هناك؟

-هناك... لقد رأيت... فتاه هل يوجد سيدة بمنزلك سيد علي؟

أغمض علي اوغلو عيونه بهدوء كم يود توبيخها الآن لكشف تواجدها بماذا سيبرر الآن؟!!!

فتح جفنيه بهدوء ظاهري وارتسمت ابتسامة مترددة قليلا قبل ان يقول

-إنها مجرد جارية تم وهبها لي من قبل صديق...

-من؟

-صديق يا سيد عاكف صديق عربي لم تقابله من قبل...

أومأ السيد عاكف متفهما ثم ما لبث أن فتح دفتره أمام علي اوغلو لبدء عملهم...

و بمكان أخر بقصر آل بولغور كانت جوهرهان تستعد لتخطو إلى غرفة والدها بعد أن سمح لها بالدخول... ارتسمت ابتسامة خادعة على شفتيها وهي تتقدم من أبيها ثم انحنت أمامه وأمسكت بيده تقبلها...

-اشتقت لك أبي مر عدة أيام لم أراك بها...

ابتسم الأب بوهن وهو يربت على رأسها ويقول

-اعتذر ابنتي عن انشغالي هل أنت بخير؟

-بالطبع سأكون بخير دائما بوجودك يا أبي لكن... اشعر أن بك ضيق ما...

تنهد الأب ولسان حاله يقول (وهل من ضيق أكثر من غياب أختك عن عالمنا... ألا يكفي ابني إبراهيم ليكتمل الأمر بغاليتي عتيقة؟) لكنه اثر الصمت وقال

-اعتقد أن تكالب الأعمال على عاتقي قد اوهن جسدي قليلا لا أكثر...

-إذا ألا يجب أن تأخذ قسطا من الراحة؟

نظرت جوهرهان إلى أمها التي نطقت بتلك الجملة وهي تنظر إلى زوجها وابنتها بحنو...

ابتسمت جوهرهان وقد ساعدتها أمها كثيرا لتقول

-بالطبع يا أبي يجب أن تأخذ قسطا من الراحة ما رأيك أن تقوم باستدعاء السيد علي اوغلو وتتناولا الطعام اليوم... اعتقد انه أكثر من يقوم بإراحة نفسك أليس كذلك...

نظر لها بريبة قليلا ليخفي ريبته بابتسامه حنون وهو يربت على رأسها و يقول

-لا بل أكثر ما يقوم بإرحة نفسي هي ابنتي الغالية بالطبع... لكن لا بأس باقتراحك لتخبري وئام أغا باستدعائه...

ابتسمت جوهرهان وهي تنحني أمام والدها ثم التفتت لتغادر إلى استدعاء وئام أغا...

وبعد قليل من الوقت كانت تجلس بجناحها تمسك بيدها قماش مخملي وبه زجاجة السم النادر... وابتسامة شيطانية تتلاعب على شفتيها وهى تتخيل تلك الفتاه التي فضلها علي اوغلو تموت بألم وبطء دون مقدرته على شفائها مجددا كما حدث بالضبط مع زوجته الأولى عتيقة التي كانت هي أيضا سبب موتها.... سمعت صوت طرقات خفيفة على باب جناحها لتأذن بالدخول... وقف وئام أغا بابتسامه مشرقة وهو ينتظر أوامر سيدته

ـ خذ تلك القنينة وئام أغا و حاذر أن تمسها بيدك أعطها إلى ذلك البائع الذي يعطي فاضلة مؤن بيت آل اوغلو... هو يعلم المطلوب منه لقد عقد مع فخري أغا اتفاق لكن حذار أن يعلم من نحن احذر أن يراك احد يا وئام حينها لا ينقذك احد

- لا تقلقي سيدتي سيتم مرادك دون أن تشعري بالخذلان... لكن

- لكن ماذا؟

- لم لا تقومي بفضح تواجدها هناك سيكون هذا اضمن سيدتي دون الخوض بأي أعمال أخرى مثل هذا

تنهدت بملل ثم ابتسمت وهي تستجمع أخر نقاط صبرها

- وما الفائدة من هذا وئام ها؟ لا شيء... ماذا نقول انظروا هنالك جارية؟

- أمرك سيدتي كل ما تريدينه سينفذ بالحرف....

- لا تنس استدعاء السيد علي إلى منزلنا لتناول الطعام مع أبي لاسترجاع بعض ذكريات أختي الغالية... لا تنس يا وئام فطعام بيته لن يكون له اليوم...

أومأت له وهى تبتسم بانتصار... أضجعت على أريكتها الجميلة المخملية وهي تشير له بالانصراف... انصرف وئام أغا إلى حيث أمرته سيدته بينما تعد هي الدقائق في شوق لسماع تلك الأخبار السارة....

و في السوق الكبير جلس البائع بدكانه المزين بأشهى وأنضر الخضروات و البضائع المغرية... يجلس بجسده البدين على ذلك المقعد المسكين الصغير لو كان يتحدث لأطلق أهات الاستغاثة من هول ما يحمل... جاء وئام أغا متشح بعباءة كبيرة تغطي معظم تفاصيله.... وقف أمام الرجل ليفقه الرجل بلحظه انه من ينتظر... وبصوت جهوري قال

- حللت أهلا يا رجل تفضل تفضل

انزعج وئام ووضع إصبعه على فمه قائلا

- هش يا هذا اخفض صوتك سيتم فضحنا خذ

اخرج وئام أغا القنينة المغلفة بحرص بقماش مخملي وأعطاه إياها قائلا

- خذ هذه لا تقوم بفتحها بيدك كن حريصا للغاية قد يؤذيك مجرد لمسك لنقطه منه أنت تعلم كل شيء مسبقا فقط ضعه ببضاعة السيدة فاضلة

نظر له الرجل بقليل من الخوف وقال

- هذا ليس سم أليس كذلك؟ السيد على والسيدة فاضلة لا يستحقان هذا

- لالالا بالطبع لا ليس سم إنما فقط هو مجرد دواء لكنه يسبب بعض تهيج للجلد قد يؤلم قليلا لا أكثر انه مجرد درس صغير لهما فقط نحن لسنا بقاتلين يا هذا

أومأ الرجل قليلا قبل أن يقول بخبث

- لكن ألا يحق لي أن اعلم من أنت؟ من سيدك؟

- لا يهم إن كنت لا تريد فعل هذا لا باس سنجد غيرك لكن أولا ارجع الذهب مائتي قطعة ذهبية لا ينقصون نصف قطعة

وككلب يلهث خلف عظمة لهث خلف الذهب ليقول...

- لالالا بالطبع سأنفذ لا تقلق فقط كنت أتأكد أن هذا الدواء لا يقتل فقط... سأنفذ هيا اذهب أنت من هنا السيدة فاضلة قد تصل بأي وقت....

ذهب وئام أغا وما أن غادر حتى حضرت السيدة فاضلة بابتسامتها المشرقة و طيبتها المعتادة...

- السلام عليكم هل كل ما أريد حاضر؟

- بالتأكيد سيدة فاضلة تفضلي بالجلوس لحظة واحدة ويأتيك كل ما تطلبين

- لا تنس القشدة السيد علي يحبها كثيرا

- لا تقلقي حاضرة بالطبع...

التفت ليحضر طلباتها وبتوتر امسك القتينة بقطعه قماش باليه وفتحها وافرغ محتواها بالكامل داخل إناء القشدة الخاص بالسيدة فاضلة.....

غلف كل ما طلبت و أعطاهم إلى السيدة فاضلة وبتوتر اخذ النقود منها و نظر لتلك السيدة بحزن لجزء صغير من ضميره الحي

وفي منزل آل اوغلو طرقات على البوابة الكبيرة خارج المنزل جعلت علي اوغلو يخرج ليجد وئام أغا بانتظاره... قطب قليلا لسبب الزيارة حين انحنى وئام أغا له قائلا

-مرحبا سيد علي... إن سيد المنزل يطلب لقائك لتناول الطعام اليوم....

أومأ علي قليلا قبل أن يقول

-حسنا وئام أغا أرجو تبليغ السيد فخري بولغور بحضوري اليوم بكل سرور...

انحنى وئام أغا وقد شقت الابتسامة وجهه سعادة بأنه انهي مهمته بنجاح...

وبعد عدة ساعات كانت السيدة فاضلة تشرف على الطعام الذي يعد من قبل الطاهي الخاص بالسيد علي....

- هل انتهيت يا شكري أغا؟

- بالطبع سيدة فاضلة انتهيت هل أضيف شيء للقشدة؟

- لالالا السيد علي لن يأكل هنا اليوم و السيدة تولين تحبها بلا إضافات فقط ضع قليل من العسل بجانبها

أومأ شكري أغا وبدأ بإعداد صينية التقديم الخاصة بالسيدة تولين....

و بعد قليل من الوقت كانت السيدة فاضلة تمشي بخطوات متثاقلة تحمل صينية كبيرة تحتوى على كل ما لذ وطاب .... دخلت إلى جناح تولين ووضعت الطعام على المنضدة

الخشبية الصغيرة واعدت كل شيء يلزم لتناول الطعام لفردين....

أما عن تولين فكانت تجلس بغرفتها تنسج شكلا ما من الخيوط كما علمتها السيدة فاضلة لإشغال فراغها.... كانت أشعة الشمس تتسرب من النافذة خلفها شردت بحالها قليلا و بلون ردائها اليوم بلون الأحمر الداكن تشعر بأنه سيخذلها مجددا... تشعر أنها غارقة ببركة من الدماء إلا انه مغر بشكل كبير مصنوع من الحرير الناعم قماشه الناعم محكم من الكتفين إلى نصف ذراعها ليسترسل على باقي ذراعها ورسغها باتساع و ينسدل الحرير على جسدها برشاقة ونعومة.... تسللت رائحة الطعام الشهي إلى انفها لتصدر أصوات غريبة بمعدتها تنبهها إلى جوعها....

نهضت تولين ووضعت عملها اليدوي على الأريكة وحين كانت تضعه وخزتها إبرتها

الخاصة بشكل سيء ليخرج نقاط متتالية من الدم من إصبعها....

عبس وجهها من الألم ووقفت تحكم الضغط على اصبعها المصاب حينما دخلت السيدة فاضلة لتشهق حين رأت الدماء تلطخ القماش الخاص بتطريزها...

- يا الهي هل جرحت يدك

نظرت لها تولين تحاول فهم كلامها المتتالي السريع ثم ابتسمت مطمئنة إياها

- لا تقلقي سيدة فضيلة مجرد وخزه بسيطة ستزول سريعا

لم يكن ببال فضيلة الوخز فقط... إنما الدماء فوق الغزل ما هو إلى فأل سيء ونذير شؤم ....

- انتبهي سيدتي انتبهي جيدا هذه ليست فقط وخزه هذا خطأ... خطأ كبير انتبهي جيدا

شعرت تولين بالقلق و قد زادت وتيرة تنفسها لم تعلم مقصد السيدة فاضلة لكنها شعرت بتلك الوخزة بقلبها حين تشعر بخطر ما....

نفضت رأسها وابتسمت وربتت على كتف السيدة فاضلة وذهبتا لتناول الطعام...

في حين كان علي اوغلو بمجلس الرجال يجلس أرضا على بعض الوسائد الكبيرة مقابلا للسيد فخري بولغور وبينهما طاولة خشبية صغيرة يتراص عليها كل أشكال وألوان الطعام الشهي...

ابتسم السيد فخري بحنان أبوي إلى ابن ليس من صلبه...

-ألا تأتي هنا إلا بدعوات رسمية الآن يا علي؟

ابتسم علي اوغلو بوهن وهو يقول

-بالطبع لا سيدي لكنك اعلم شخص بأحوال التجارة الآن اشعر كان رأسي ينفجر من العمل...

- العمل فقط؟!

ابتلع علي لقيمته بصعوبة وهو ينظر إلى السيد فخري بينما الأخر يبتسم بهدوء ولم تتغير معالم وجهه بينما يقول

- علمت انك اتخذت مفضلة.... كنت أتمنى أن يكون زواجا وليس مجرد جارية... أتمنى أن تحظى بطفل سريعا ليتم زواجك بني

رفرفت أهداب علي بشدة وهو يبتلع غصة بحقله بصعوبة مانعا أي حرف من الخروج من فمه فلا يدري ماذا يقول؟! بل كيف علم السيد فخري بوجود تولين؟

- هل تسال نفسك كيف علم هذا العجوز بالأمر؟ لكن للعلم كنت حقا حريص علي...

- لا أبدا سيدي لا اقصد أنا فقط...

- لا تبالي... أنت تعلم جيدا أنى كنت من معارضي قرار عزلتك هذا... أنت قبل أن

تكون زوج ابنتي... لقد اتخذتك ابنا لي... كإبراهيم...

تنهد السيد فخري بينما نكس علي رأسه وهو يضغط بقبضتيه على قدميه بشدة.... امتدت يدي السيد فخري إلى ذراع علي ليربت عليه بهدوء وهو يقول

-أكمل طعامك أنى انتظر تلك الساعات معك منذ مدة فلا تقضها بالعبوس بوجهي الآن...

ابتسم علي اوغلو وهو يمسك بيد السيد فخري ليربت عليها ثم شرع في تناول طعامه مجددا بينما كان بركان غاضب ينتظر قشة صغيرة تلقى به لينفجر بتولين و خاصة بتولين وحدها....

و في قصر آل اوغلو وخاصة بنجاح تولين كانت تقف السيدة فاضلة بجانبها وهي تتناول فطورها...

- أرجوك سيدة فاضلة تناولي طعامك معي لا أحب تناوله وحدي ثم انه معد بالفعل لشخصين أرجوك...

تنهدت السيدة فاضلة بقلة حيلة وهي تراها بذلك الوجه الطفولي العابس... جلست بجانبها وشرعت في تناول طعامها.. شعرت بسعادة غامره وللحظة شعرت أنها أصبحت أم ولديها طفلة صغيرة جميلة مدللة .... تنحنحت السيدة فاضلة وقالت

- لقد جلبت لكي القشدة دون زوائد كما تحبينها

- اجل أحبها... لكن لا طاقة لي اليوم بتناول ما يزيد شحومي أكثر أكاد أصبح بحجم الغرفة سيدة فاضلة

ضحكت السيدة فاضلة على وصفها و لغتها التركية الضعيفة التي تزيد كلامها براءة....

امتدت يد السيدة فاضلة إلى الطبق الصغير وأخذت لقيمة صغيرة من القشدة وضعتها

بفمها تلوكها ببطء تتلذذ بطعمها... تبعتها لقيمة الأخرى وأخرى وأخرى....

و في جو مرح جميل مليء بالضحكات وروح تولين الصغيرة البريئة المرحة لم تجربه السيدة فاضلة من قبل.... أنهت طعامها وقبل أن تقوم السيدة من مقامها شعرت برجفة تتحكم بجسدها.... زاغ بصرها و شعرت بحرارة جسدها ترتفع لكنها تمالكت نفسها واخفت شعورها عن تولين التي أكملت طعامها وهي مبتسمة.... بعد قليل من الوقت استقامت تولين لتذهب إلى غزلها مرة أخرى....

قامت السيدة فاضلة بحمل الصينية ولكن خانها جسدها المسكين لتتهاوى أرضا و هي تتلوى ألما....

التفتت تولين حين سمعت صوت ارتطام الصينية و تناثر الأواني بكل مكان... نظرت إلى جسد السيدة فاضلة الملقى أرضا بلا حول ولا

قوة... أسرعت وهي تصرخ باسم السيدة فاضلة

- سيدة فاضلة؟ ماذا بك؟ سيدة فاضلة .... النجدة ساعدوني

لم تستطع كبت دموعها من جزعها لكن توقف كل شيء حولها.. توقف الهواء حولها... لم تتنفس أو بالأحرى لم تستطع التنفس توقف الزمن بها للحظات وهي ترى انف السيدة فاضلة ينزف بغزارة.... ازدادت وتيرة تنفس السيدة فاضلة حتى أصبح كاللهاث وقطرات الدماء تنزل بغزارة إلى إن نزلت بعض قطرات الدماء على يد تولين وعلى ردائها ليمتزج اللونين سويا....

نظرت تولين إلى يديها و إلى الدماء لتقول بصوت هامس

-ليس حلم... هذا ليس حلم... ليس حلم... لست بحلم....

ضاق صدرها واختنقت حنجرتها بالعبرات.... حاولت الصراخ مرة أخرى لم تستطع فتحت فمها ليصدر صوت خفيف مبحوح.. نظرت إلى عيون السيدة فاضلة التي تنغلق رويدا رويدا.... شعرت بلمستها الحانية تربت على يد تولين لتنزلق يدها و تهوى أرضا وعيونها شبه مغلقة وقد ثبت بؤبؤي عينيها على وجه تولين..... تباطئ صعود ونزول صدر السيدة فاضلة... جحظت عيني تولين في هلع...

- لا لا أرجوك لا لا تتركيني هنا وحدي لا

احتضنتها تولين بشدة و أخيرا وجد صوتها طريقه الى حنجرتها لينطلق في صرخات متألمة عالية باسم علي...

بينما كان علي يدلف إلى منزله للتو وهو يتخبط بين غضبه من تولين وخوفه عليها فقد انتشر خبر تواجدها هنا.... ركض سريعا إلى غرفتها ما أن سمع صراخها وقد هبط قلبه جزعا.... تصلب مكانه وهو ينظر إلى تولين

التي تصرخ بكل قوة لديها بينما تحتضن جسد السيدة فاضلة و دماء السيدة فاضلة تلطخ يدها.....

نظرت له تولين وهي تقول من بين شهقاتها

-ليس حلم...

الفصل السادس

ركض علي سريعا وبقوة دفع تولين جانبا وهو يرمقها بنظرات قاتلة كسهام مسممة.... وضع إصبعه يتحسس نبض السيدة فاضلة ليجد أن نبضها ضعيف للغاية لكنه موجود.... حمل جسدها و أسرع إلى الغرفة لوضعها على الفراش وهو يهتف بتولين للإسراع إلى جلب المساعدة....

لكن حالة الجمود المسيطرة على تولين منعتها من أن تتحرك قيد أنمله من مرقدها على الأرض حيث تجثو مطأطئه الرأس مستنده بكلتا يديها على الأرض وجسدها ممدد... تنظر بعدم تصديق إلى الدماء بيدها وعلى ذلك البساط الفاخر و دموعها المالحة تنهمر بلا توقف على وجنتيها وشفتيها المنفرجتين مرتعشتين...

خرج علي من غرفة النوم ليجد تولين على حالها... أهمل وجودها وبخطى حازمة واسعة تركها دون الاكتراث لها ليجلب الحكيمة تاركا خلفه فتاه متخبطة في اشد حالات تيهها وضعفها....

هرول مسرعا إلى منزل تلك الحكيمة وبعد وقت قليل كان علي يقف بترقب بجانب فراش السيدة فاضلة....

و تلك الحكيمة تقوم بفحصها وتحاول إنقاذها بشتى الطرق وبنفاذ صبر هتف علي بالحكيمة قائلا

- هلا أخبرتنا ما بها بحق السماء

- لا اعلم بالضبط سيدي لكنها تبدو حمى... اعتقد أنها أصيبت بعدوى الحمى من السيدة وهي تداويها غالبا... بالتأكيد لم تتبع الإرشادات التي أخبرتها إياها....

التفت بشدة إلى تولين الواقفة بركن بعيد بالغرفة تطالعهم بقلق وخوف حقيقي دون ان تفقه شيئاً... تقابلت عيونهم لترى اتهامه الصريح موجه لها دون أن يحاول إخفاءه... أيعقل انه يعتقد أنها السبب... ضاق صدرها وهي تشعر بالذنب تجاه السيدة فاضلة حاولت اخذ شهيقا كبيرا عل الهواء يدخل إلى رئتيها لكن لم تشعر بالهواء و كأنه سحب من حولها تماما حاولت مرة أخرى فلم تفلح مجددا... أغمضت عينيها بشدة وأسندت جسدها إلى الحائط... ولت ظهرها إليهم فلا تريد أن تشاهد ما يحدث لا تريد مشاهدة الدماء السائلة من انف السيدة فاضلة ووجهها الشاحب وشهقاتها البطيئة التي تبدو وكأنها أخر أنفاسها.... نظرت الحكيمة إلى السيد علي مرة أخرى لتجد معالم الغضب مرتسمة بتجل واضح على قسماته حيث تشنجت عضلات فكه وكسى

الجليد عينيه و تقارب حاجبيه في عبوس شرس بينما يقول

- لكن السيدة تولين لم تتنزف مثلما يحدث الآن هلا فسرت هذا؟!

تنحنحت الحكيمة وقالت

- سيدي اعتقد انه من ارتفاع درجة حرارة جسدها سأجالسها اليوم و سأعمل بنفسي على خفض حرارتها يجب أن تنخفض خلال الساعات القادمة وإلا سيكون الوضع لا يحمد عقباه

أغمض عينيه بشدة وهو يومئ موافقا لكلام الطبيبة والتفت لتلك المذعورة بأحد أركان الغرفة.... و بخطوات فهد غاضب تقدم منها حتى أصبح خلفها بعدة سنتيمترات... اخفض رأسه كي يصل إلى مستوى أذنها وهمس

بتهديد وبصوت هادئ لكن يحمل بطياته غضب مريع....

- إذا حدث لها مكروه فلا لوم على احد سواك وسترين أن ما فات لم يكن إلا بوابة صغيرة للجحيم المقبل....

نظرت إلى الحائط أمامها بخوف و قلق بالغ وهي تستشعر نيران الغضب تتوهج من جسده خلفها .... التفت ينظر إلى جسد السيدة فاضلة ثم تركها وذهب خارجا لا يعلم إلى أين لكنه شعر انه إذا مكث معها بنفس الغرفة لدقيقة أخرى ستكون النتيجة غير محمودة....

و بحلول الليل كان الجميع يعلم بمرض السيدة فاضلة....

كانت جوهرهان تجلس بجناحها الخاص تنظر الى الأغا وئام بغضب...

- غبي لا تفلح بشيء وئام

- لكن سيدتي...

انتفضت جوهرهان من مكانها صارخة به

- اخرس وئام واغرب عن وجهي

ظل وئام يناظرها بأسى فصرخت ناهرة إياه مرة أخرى.... خرج خادمها المخلص مطأطأ الرأس خائب الرجاء في حين ظلت جوهرهان تجوب غرفتها جيئة وذهابا وهي تمسد رأسها الذي تمكن منه ألام المبرحة وهي تقول...

- لم اهزم بعد... اهدئي فقط اهدئي وفكري جوهرهان اهدئي....

ظلت مدة لا بأس بها تجوب الغرفة حين لمعت برأسها فكرة خبيثة لقلب الطاولة بأكملها..... التفتت إلى باب غرفتها وهي تحمل طيات ردائها الزيتوني المخملي بين يديها لتصرخ في استدعاء وئام أغا...

ركض وئام أغا مسرعا إلى سيدته وانحنى لها في انتظار أوامرها....

و بمنتصف الليل حيث لا يسمع ولا يرى شيء من الظلام.... وقف وئام أغا ينتظر ذلك الرجل الكريه مجددا... يقف وهو يدعو ألا يصيبه مكروه يلتفت يمينا ويسارا بخوف حين تسلسل الرجل من خلفه مجددا كما حدث سابقا ليهتف من خلفه

- مرحبا يا أغا

انتفضت وئام صارخا والتفت إليه بذعر

- بسم الله الرحمن الرحيم ألا يوجد دستور عندك يا هذا الله الله

ابتسم الرجل ابتسامته البغيضة مجددا و قال هامسا

- لا تخف يا أغا فلكل اجل كتاب وإذا جاء أجلك لا تستطيع الهروب منه مهما حدث

همس وئام لنفسه بخوف كما تفعل السيدات المسنات

- توبة بسم الله إن شاء الله أنت

ابتسم الرجل الكريه وسال الأغا عن مراده

- ماذا تريد مجددا يا أغا هل فشل السم بعمله؟

- لا لم يفشل لكننا نريد ترياقه

تقابل حاجبي الرجل باستغراب جلي فكان مطلبهم ألا يكون له ترياق والآن يريدان ترياقه

- لكنني قلت لكما أن ترياقه ببلاد بعيده للغاية

- يا الهي ستقتلني سيدتي بالتأكيد تصرف يا رجل أقول لك هناك رقاب ستطير بالهواء وأولهم رقبتي ورقبتك إن شئت... يجب جلب ذاك الترياق اللعين

ابتسم الرجل بمكر وقال

- اعتذر يا أغا فلا ترياق لدي حقا

نظر له الأغا بحقد وقال

-يا خبيث هل تريد استغلال الموقف؟ هل تريد ذهبا أكثر؟

-لا حول ولا قوة إلا بالله اقسم لك يا أغا لا يوجد ترياق لدي الآن لقد نفذ بالفعل وانتم من طلب منى ألا يكون هناك ترياق

صك الأغا وجهه وهو يولول لما قد يحدث له إذا ذهب إلى سيدته فارغ اليدين...

و بمنزل آل اوغلو كان علي يجلس بمكانه المفضل كالعادة بالظلام ينتظر إشراقة الصباح التي تجلب كل الآمال إلى حياته كما كانت تقول زوجته الرقيقة عتيقة ذات الوجه الصبوح المحبب...

و بالأعلى كانت تولين تجالس السيدة فاضلة تساعد الحكيمة بخفض حرارتها وجسدها يرفض....

و بنفس اللحظة تجلس جوهرهان بمنزل آل بولغور تفكر بما ستفعل الآن؟؟!! نظرت إلى وئام أغا وسألته

- هل الطبيب الخاص بطوب كابي هذا الذي تقاعد منذ مدة لازال بأماسيا يا وئام؟

تنهد وئام أغا وهو يقول

- اجل سيدتي لكن بالطبع لن يتواجد عنده الترياق...

- وما أدراك أنت يا غبي قد يكون لديه حل ما لقد خدم السلطان لسنوات عديدة... حسنا قم بالاستعدادات سنذهب إلى قصر اوغلو عند أول شعاع للشمس...

انحنى وئام أغا بخضوع تام بينما لا يهدأ عقل جوهرهان الشيطاني عن التفكير والتدبير...

و عند بزوغ أول شعاع للشمس تحرك علي من مجلسه في حزم إلى غرفة تولين حيث ترقد السيدة فاضلة.... دخل إلى الغرفة دون أن يشعر به احد فكانت الممرضة منهمكة بعملها وحال السيدة فاضلة على وضعه السابق لا تغيير لكن تولين غير موجودة

- لم تنخفض حرارتها بعد

التفت علي اثر ذلك الصوت الانثوى الوهن الصادر من تولين خلفه.... نظر لها بغضب مكتوم و نهرها قائلا

- و أين كنت أنت؟ ألا يفترض أن تكوني هنا تساعديها... بالتأكيد ف مدللة مثلك لن تصمد ليلة كاملة

نظرت له بلوم خفي لنهرها هكذا أمام الحكيمة التي تبدو مستمتعة بالعرض الصباحي هذا... نظرت أرضا بينما رفعت إناء كانت تحمله بيدها لتقول

- لم أتحرك إلا لجلب المياه بالخل التي طلبتها الممرضة منى استأذنك

انحنت بأدب جم أمامه و تجاوزته لتجلس مجددا بجانب السيدة فاضلة.... و كل هذا تحت أنظار خبيثة قررت نقل كل كلمة إلى السيدة جوهرهان....

و بعد قليل من الوقت سمع علي صوت خبط متتالي على باب بيته... نظر باستغراب جلي لكل من الحكيمة وتولين...

نزل بخطوات حذرة إلى أن وصل إلى باب منزله... تردد قليلا بفتح الباب ليصدم بزائرته....

كانت جوهرهان تنظر إلى الحديقة التي لطالما حلمت أن تكون ملكها تزرع بها كل ما تشاء من زهور ربيع حياتها تملأها ضحكات وهي تركض خلف أطفالها من علي... حلمت وحلمت وفاقت من أحلامها على كابوس الواقع حيث اختار حبيبها شقيقتها بدلا عنها هي... هي الأجمل... هي الأذكى... هي ذات النفوذ و المال... تنهدت وسمعت الباب يفتح التفتت إلى علي الذي يطالعها بذهول.. كانت تقف بردائها المحتشم الأسود المخملي و حجابها الذي يزينه تاج رقيق يخفي إلى حد ما شعيراتها وعباءة سوداء تمسكها بإهمال يبدو أنها خلعتها

للتو..... و بصوت رقيق ذو بحة جميلة بدأت الكلام بعد أن طال صمتهم...

- مرحبا علي اشتقنا لك

تنحنح علي و أزاح عينه عنها مما سبب انزعاجها فما أحلى نظرته بعينيها...

- مرحبا جوهرهان خاتون شرفت منزلي المتواضع تفضلوا بالدخول

اتسعت ابتسامتها ودخلت إلى منزله بخطوات بطيئة رشيقة وهى تأخذ شهيق يحمل رائحة منزله و رائحته التي لطالما عشقتها منذ أن كانت مراهقة صغيرة... دخل خلفها وئام أغا ووصيفتها صادقة.... التفتت إليه و قالت

- سمعت أن السيدة فاضلة مريضة للغاية فجئت للاطمئنان عليها...

أومأ علي متفهما وهو يشير لها على الطريق بينما يقول

- أرجوك تفضلي أمل أن يكون مجيئك سبب لشفائها فهي لم تتحسن للأسف

أومأت جوهرهان متفهمة والأسى مرتسم على وجهها ببراعة... أعطت وصيفتها العباءة وأمسكت ثنايا ردائها الطويل الواسع .... صعدت السلم بخطوات ثابتة رشيقة....

وقفت بجانب الباب منتظرة سماح علي لدخولها و لم يتأخر علي بالفعل حيث قام بفتح الباب لها و دخلت...

أما بداخل الغرفة فكانت تولين تجلس بجانب الحكيمة والسيدة فاضلة و رأسها شارد بمكان أخر

((إذا حدث لها مكروه فلا لوم على احد سواك و سترين أن ما فات لم يكن الا بوابة صغيرة للجحيم المقبل...))

ترددت الجملة بذهنها هل هي السبب حقا... نظرت باعتذار و الم إلى جسد السيدة فاضلة

الهامد بلا حركة فقط حركة طفيفة بصدرها الذي يعلو و يهبط بعدم انتظام دلالة على تواجدها بنفس العالم معهم....

-زال البأس عنكم

التفتت تولين بعد أن فاقت من شرودها على ذاك الصوت الأنثوي الناعم.... وقفت تولين مقابل جوهرهان و كلتاهما تطالعان بعضهما الاولى باستغراب لتلك الغريبة بمنزل علي و الأخرى بكره و حقد بالغين يغلفهم ابتسامة ناعمة رقيقة تخفي ببراعة ما يعتمل في صدرها من نيران حارقة تقضي على الاخضر و اليابس.....

ظل الصمت هو سيد الموقف إلى أن قطعه علي بنحنحة خفيفة ثم قال إلى تولين التي نظرت له باستفهام بنبرته الرخيمة

- إنها جوهرهان خاتون الأخت الكبرى لعتيقة زوجتي.....

ولسبب ما قال تلك الجملة بكلتا اللغتين... وقع
كلمه زوجتي لم يكن هيناً على الجميع..
تولين ولسبب ما تألمت وشعرت بالحزن
يتضاعف بقلبها...
و جوهرهان كانت نيران الغيرة تحرق قلبها....
يحبها هي ويفضلها هي رغم موتها حتى انه
يهمل تلك التي يقال أنها مفضلته ويطلق على
أختها لقب زوجته .... ألا يفهم أنها رحلت
وتركته....
أما عن علي فكان كأنه يثبت للجميع أن قلبه
مغلق على احدهم و دفن مفتاحه معها و كان
أول من يثبت لهم هو نفسه...

أخذت جوهرهان نفسا عميقا تسيطر به على
أعصابها وابتسمت لتولين ثم سالت بالتركية
- و من هي؟ هل هي مفضلتك كما سمعنا؟

كان رده الوحيد هو الصمت التام... للحظة شعرت جوهرهان أن الغرفة حارة للغاية بالتأكيد لون وجنتيها صار كالبندورة.... تنحنحت قليلا وهي تقول

- على أيه حال جئنا لنطمئن على صحة عزيزتنا فاضلة ... يا حكيمة أرجوك اخبرينا ما الوضع

تنحنحت الحكيمة وبتردد وخوف ظاهرين قالت

- الوضع غير مطمئن بالمرة سيدتي حرارتها لم تنخفض ونبضها ضعف كثيرا اشك في أنها قد لا تحتمل حتى المساء...

نظر علي بصدمة إلى الحكيمة ثم تحولت الصدمة إلى عاصفة هوجاء حين اخذ يصرخ بها إن تفعل أي شيء

في حين تراجعت تولين تحتمي بأحد أركان الغرفة وهى تغمض عينيها بألم وصدرها يضيق لا تستطيع التنفس والرؤية مشوشة لديها تكاد تفقد وعيها بأية لحظة
في حين حاولت جوهرهان السيطرة على غضبه مهدئة إياه....

- لا تقلق سيد علي بالتأكيد هناك احد ما يعلم ما خطبها سأستدعى طبيب ماهر كان يعمل بقصر طوب كابي سابقا لكنه الآن كبر بالعمر لذا قرر التقاعد لكنه بالتأكيد ماهر.... فقط اهدأ...

وضعت جوهرهان يدها على ذراعه بلمستها الرقيقة وابتسامتها المغرية وعينيها اللامعتين كعيون القطط....

تحرك علي من موضعه خطوة إلى الخلف لتظل يدها معلقة بالهواء فتضمها بشدة وهي تهتف لاستدعاء وئام أغا كي يجلب الطبيب ...

و مرت عدة ساعات لا تخلوا من القلق والذعر و الشماتة لدى البعض إلى أن أتى الطبيب ليجلس عند حافة الفراش وقد بدأ بفحصها ليقول بعد مدة بصوته الكهل و بهدوء تام

ـ هذه ليست حمى إنما هي سم يقوم بالتسبب بأعراض الحمى إلى أن يفارق المريض حياته بعد معاناة....

لم تفهم تولين حرفا واحدا مما قيل فلغتها ليست بتلك الجودة لكن ما فهمته من معالم وجه علي وجوهرهان أن هناك خطب جلل

قالت جوهرهان بصوت مصدوم و به دهشة بالغة

ـ كيف؟ من قد يؤذي أمراه مثل السيدة فاضلة فلم تكن إلا سبب الراحة والسعادة للجميع لم تؤذ بعوضه بحياتها ثم إنها لا تخرج كثيرا ولا اختلاط بها إلا بك علي و....

لم تكمل جوهرهان جملتها وهي تنظر الى تولين... بينما قال علي بصرامة...

ـ ألا يوجد ترياق لهذا السم يا حضرة الطبيب؟

ـ بلى فلكل داء دواء لكن هذا الترياق لا يوجد هنا انه ببلاد العرب...

هل قال بلاد عربية؟؟.... نظر علي مجددا إلى تولين.... ولكن تلك المرة لم تكن نظرته تعبر عن شيء فيها من الغموض ما يقتل قلبها رويدا رويدا....

نظرت جوهرهان إلى نظراته لتولين فلم تفهم سر تلك النظرات... لكن لا يهم المهم أنها ليست بالنظرات الطيبة... تنفست الصعداء ثم قالت

- بالتأكيد هناك ترياق لهذا السم سنبحث عنه بكل مكان بالتأكيد سنجد احد ما يمتلك الترياق اليس كذلك؟

نظر لها علي بأمل ثم أومأ موافقا.... التفتت جوهرهان إلى وئام أغا تأمره بتنفيذ ما تبقى من خطتها.... في حين نظر علي إلى تولين نظرات فهد قد ينقض على فريسته بأية لحظة.... اقترب منها وبهدوء تام امسك ذراعها النحيل بقوة ألمتها وخرجا سويا من الغرفة تحت أنظار جوهرهان المرتابة من الوضع....

ظل صامتا إلى أن وصل بأخر الممر الفاصل بين جناح تولين وجناحه وغرفة السيدة

فاضلة..... فما أن تأكد من ابتعاده عن الجميع حتى صدم جسدها بالحائط بشدة ألمتها... كاد جهازها التنفسي أن يقف لوهله.... احكم وثاقها حيث ثبت جسدها إلى الحائط بوضع يده على عنقها.... كادت روحها تزهق حين لم تستطع التنفس... احمر وجهها بشدة ونزلت دموعها تستغيث ما تبقى من عقله أن يتركها....
وبفحيح غاضب قال

- سم عربي ها..... هناك نسبة ضئيلة للغاية ألا تكوني متورطة بتلك المصيبة تولين.... نسبة لا تتخطى الواحد بالمائة و إذا حدث أن تأكدت من انك السبب سأقتلك بلا رحمة ولا شفقة تولين تأكدي أنى سأقتلك شر قتله....
تركها بعنف ترتطم أرضا بشدة وهى تشهق شهقات متتالية و تسعل بينما تنهمر دموعها بنفس الوقت....

كل هذا تحت أنظار خفية خبيثة لذلك الأغا و ابتسامة رائعة ترتسم على وجهة حيث ساعد القدر سيدته لتحقيق ما تبغي أخيرا وها قد دب الشك بقلب السيد علي اوغلو....

الفصل السابع

ركض الخادم الوفي وئام أغا إلى سيدته يهمس بأذنها راويا ما حدث منذ قليل بين السيد علي اوغلو و تلك الجارية ألمسماه بتولين....

اتسعت ابتسامة جوهرهان الشيطانية و هي تنظر بفخر لما يحدث أمامها فهاهي السيدة فاضلة ملقاة كالجثة الهامدة بلا حول ولا قوة منتظرة بضع قطرات من ترياق غير معلوم مكانه و ها هو القدر يساعدها أخيرا حيث بدأ علي اوغلو بالشك بالفعل في تلك الجارية .... و

فجأة دخل علي بخطوات غاضبة و وجه عبوس و قبضتي يده المضمومة بقوة و عروقه النافرة بكل أنحاء جسده غضبا....

اخفت جوهرهان ابتسامتها ببراعة وهي تشير إلى وئام أغا بهدوء للصمت...

خطت بضع خطوات حتى وقفت بجانب علي لا يفصل بينهما سوى بضع سنتيمترات لتقول بصوتها الرقيق

- لا تقلق علي ...

ما أن نطقت اسمه مجردا حتى نظر لها بنظرات قاتله رفرف جفني جوهرهان ثم نظرت بعيدا عن تلك العيون القاتلة بنظراتها المخيفة و سعلت بخفه و أكملت قائلة

- لا تقلق سيد علي اوغلو أؤمن أنها ستكون بخير لكن لي طلب هل يمكنني؟

نظر علي لها وقد لانت نظراته قليلا ليظهر بعينيه السماح لها بالطلب وقد أومأ موافقا...

ابتسمت و نظرت مباشرة بعيني الصقر خاصته قائلة برقة

- هل تسمح لي بإبقاء إحدى وصيفاتي معكم لخدمة السيدة فاضلة... أتمنى أن توافق أنت خير من يعلم كم تعنى السيدة فاضلة لنا... حتى انه لولا أن جسدها لا يتحمل الانتقال الآن كنت أريدها بجانبي في منزلي كي اهتم بها على أكمل وجه

بدى عدم الرضا واستنكار الفكرة على وجه علي الممتعض فسارعت جوهرهان قائلة
- فقط فكر بالأمر أنت رجل و لديك مشاغلك المعلومة للجميع و لا احد بجانبك سوى الطاهي و السيد عاكف و... تلك الجارية الغير معلوم ولائها
نظر لها بنظرات حادة ورفع احد أصابعه بوجهها محذرا

- لا تتدخلي بأي شيء يخصها هي جزء من منزلي الخاص ولا دخل لك به صمت منذ قليل على إيحاءاتك سيدة جوهرهان بولغور .... أنت تعلمين صبري ينفذ لا تتدخلي

قرع إنذار برأسها وقلبها انه سيرفض و سينقلب السحر على الساحر فما أن يضغط احدهم عليه بشدة حتى ينقلب كل شيء وتنهار كل خططها... تنحنحت وتراجعت قائلة

- بالطبع لا أنت تسئ فهمي سيد علي بالتأكيد لا اشك بتلك الجارية التي من الواضح أن لها مكانه خاصة لديك بالطبع هي حياتك الخاصة لكني فقط كنت أنصحك بالانتباه قليلا

رفع حاجبيه باستهزاء وبرود قائلا

- و مما انتبه بالضبط جوهرهان خاتون

- فقط كن حذر السنة الناس كالسهام المسمومة ما أن تصيب احدهم حتى يبدأ انتشار السم رويدا رويدا إلى أن يصيب القلب ....

رفع جانب فمه في شبه ابتسامه وهو يقول
- سلمت جوهرهان خاتون لا مشكلة لدي فيما يقوله العالم سلمت لنصيحتك

تركها بعد تلك الجملة موليا ظهره لها وهو يخطو إلى الجانب الأخر من فراش السيدة فاضلة وهو يتحدث مع الطبيب بأمور خاصة بمرض السيدة فاضلة في حين رفرفت أهداب جوهرهان لترتسم تلك النظره الحاقده وهي تضغط على فكيها كاتمة صراخها و نوبات غضبها المجنونة بداخلها حتى تعود إلى منزلها....
بعد قليل من الوقت و الجميع جالس بترقب بجانب السيدة فاضلة... وقف الطبيب وقال
-لقد حاولت وبذلت قصارى جهدي أتمنى أن الترياق الذي صنعته يكون نافعا لكن بحكم ما مررت به من حالات فلا أظن ذلك... نحتاج الدعاء...

أغمض علي عينيه بشدة وهو يومئ متفهما للوضع... شكر الطبيب هو وجوهرهان خاتون لتسارع جوهرهان بأمر وئام أغا بإيصال الطبيب إلى بيته

ما أن خرج الطبيب حتى جلس علي بجانب السيدة فاضلة على الفراش يضع يده على جبهتها متحسس حرارتها.... امتدت يده إلى صحن الماء البارد ليجلب قطعة القماش المغمورة به ويعتصرها بقبضته بشدة و يضعها بهدوء على جبهتها تحت أنظار كلا من جوهرهان وتولين...
وقف علي و نظر إلى جوهرهان و كاد أن يتحدث لكن قطع كلماته حضورها وهى بأسوأ حالاتها حيث شعرها المبعثر وردائها الممزق اثر العنف الذي مارسه عليها لإفراغ غضبه المكبوت لأسابيع بقلبه....

تقدمت تولين منهما وانحنت أمامهم باحترام وتجاوزتهم إلى السيدة فاضلة وبيد مرتعشة أمسكت قطعة القماش ومجددا غمرتها بالمياه المثلجة لتضعها فوق جبين السيدة فاضلة...

تحرك علي اوغلو بعيدا عنها وهو يرمقها بنظرات باردة ثم خرج من الغرفة لتلحق به جوهرهان... فرت دمعة من عيني تولين لتليها الأخرى ثم الأخرى وهي تشهق بشدة وتطلب السماح من السيدة فاضلة...
أحنت رأسها لتقترب من كف السيدة فاضلة وتقبله بهدوء كما كانت تقبل كفي والدتها الراحلة... تذكرت مأساتها السابقة وفقدها لأحبائها... و الآن تستمر المأساة...
رفعت رأسها تنظر إلى صدر السيدة فاضلة تطمئن انه لا زال يعلو يهبط كما يفعل الأطفال عند خوفهم من فقدان أمهم...

أمسكت إسفنجه مبللة بمياه بادرة وبدأت بمسح يدي السيدة فاضلة... همست برجاء قائلة

-أرجوك لا تتركيني سيدة فاضلة ...

لم تكد تنهي جملتها حتى شعرت ببطء تنفس السيدة فاضلة... رفرف جفنيها لوهله وهي تقترب أكثر من جسد السيدة فاضلة لتتأكد من أنها لازالت تتنفس لتخترق أذنيها تلك الشهقة الصغيرة معلنه عن خروج أخر أنفاس السيدة فاضلة...

جحظت عيني تولين بشدة وجمدت مكانها لعدة ثوان تكذب ما ترى وما تسمع... تدقق النظر بوجه السيدة فاضلة الشاحب وقطرات العرق الباردة فوق جبينها... أمسكت يد السيدة فاضلة بيد مرتعشة وهي تهمس باسمها بهدوء... ثم بدأ صوتها يعلو مرة تلو الأخرى إلى أن أصبح صراخا هستيري...

بينما كان السيد علي يقف خارج الغرفة أمام جوهرهان التي تقتنعه باستماتة بضرورة تواجد الوصيفة هنا سمع كلاهما صراخ تولين... جمد مكانه لوهلة في محاولة لاستيعاب سبب صراخها... هل يمكن؟! ركض إلى الداخل ليجد السيدة فاضلة جثه هامدة على الفراش بينما تحتضن تولين يدي السدة فاضلة إلى صدرها... ترفع رأسها وهي مغمضة العينين بينما تخرج الصرخاتٍ من أعماق روحها....

لم يدري احد ما هي أحداث اليوم... تارة سيدات تقوم بتجهيز جثمان السيدة فاضلة وتارة أخرى تصطف النساء بملابسهم السوداء في توديع جثمان السيدة فاضلة بينما يحمله السيد عاكف والسيد علي اوغلو وبعض رجال آخرون... جوهرهان تبكي انهارا من الدموع وبجانبها كل من أحب السيدة فاضلة بيوم ما بينما كان وجه

علي اوغلو كالفولاذ ... لا حزن... لا غضب... جمود تام...

وبين كل هذا كانت تولين تجلس القرفصاء بجانب تلك الأريكة وهي تحملق بالفراغ... إذا ما تعيشه ليس بحلم.... واقع... واقع يعيش ويمرض ويموت به بشر... انه ليس احد كوابيسها اللعينة بل هو واقع...
لم تدر كم فات من الوقت وهي تفكر أين هي وكيف حدث ما حدث... سترتجع كل حدث مرت به منذ أن كانت بغابات أماسيا إلى لحظتها هذه... تحاول الفهم فلا يستوعب عقلها ممزق بين تفكيره بحالها وبين حزنها لفقد أكثر من أحبها هنا بل الوحيدة التي أحبتها هنا... هل هي السبب بموتها حقا؟
غرقت وغرقت بدوامات من الأسئلة والتفكير فلم تلحظ ذلك الذي يقف أمامها إلا حين امسكها من ذراعها حتى كادت أصابعه تخترق جلدها

ولحمها... تأوهت وهي تقف أمامه... نظرت إلى وجهه الجامد وعينيه الثلجية بينما كان ينظر لوجهها الشاحب وعينيها الحمراء اللامعة بالمزيد من العبرات بينما يرتعش بؤبؤي عينها في تيه وإرهاق..... لم شفع لها شيء فأغمضت عينيها بشدة وهي تجر خلفه كالدواب بلا حول ولا قوة... بدأت أصابع يدها الحرة ملامسة أصابعه القوية في محاولة يائسة للفكاك من قبضته الفولاذية

تنفسها السريع وارتجافه جسدها الظاهرة بينما يقوم علي بسحبها خلفه بشدة اشبعوا قلب جوهرهان الشامت بينما تراقبهم هي وخادمها من خلف احد الأبواب.....

وبصوت مرتعش وبلغة عربية قالت تولين..

- أرجوك علي توقف عن هذا أنت تؤلمني أنا لم افعل شيء أرجوك لا تؤذني

وكان رد فعله الوحيد هو ازدياد ضغط قبضته حتى كاد ذراعها المسكين أن يكسر وزادت تأوهاتها وتوسلها ودموعها بدأت مجددا بالانهمار على وجنتيها بلا توقف... لم تتوقف توسلاتها إلى أن القي بها بداخل تلك الغرفة المظلمة بالقبو الخاص بمنزله... دفعها بقوة حتى فقدت ما تبقى من توازنها لتقع أرضا وبصوت متألم باكي توسلت مجددا

- أرجوك علي أنا لم افعل شيء أرجوك لا تتركني هنا أنا أخاف الظلام لا تتركني هنا أرجوك

زادت وتيرة تنفسه حتى صرخ قائلا

- اخرسي.... فقط اخرسي لا أريد سماع صوتك

وقفت تولين بوهن و ارتكنت إلى حائط الغرفة تستمد منه بعض الاتزان وشهقاتها لا تهدأ بل

تزيد وكأن جهازها التنفسي يستغيث صارخا و مطالبا بقليل من الهواء.... أما عنه فتقدم منها حتى أصبح جسديهما متلاصقين.... يقفان بذلك الظلام الحالك ينيره شعاع خفيف من نور القمر يدخل باستحياء من تلك النافذة الصغيرة ذات الأعمدة الحديدية بذلك القبو.... شعاع بسيط من ضوء القمر ينير عيونها اللامعة بالدموع وعيونه المتوهجة بنار الغضب الحارقة....

رفع أنامله يسير على وجهها يتلمس بشرتها حتى نزل بيده إلى عنقها و هنا زادت لمساته قسوة ووحشية .... شعر بنبضها تحت أصابعه شعر بسخونة جسدها واهتزازه... شعر بالحنق أنها هي على قد الحياة بينما هي السبب بموت والدته الثانية... اقترب منها أكثر فأكثر إلى أن أصبح لا يفصل بين وجهه ووجهها سوى بضع سنتيمترات تعد على أصابع اليد الواحدة.... شهقاتها وارتعاشه تنفسها رعبها الظاهر له لم

يشفع لها بشيء زاد ضغط بأنامله على عنقها حتى كادت تختنق و أمام وجهها قال

-سأزهق روحك بيدي تولين ولا يعلم احد إن كنت على وجه الدنيا أم بدار الآخرة

ارتفعت يديها إلى يده الممسكة بعنقها وهى تشهق محاولة اخذ قليل من الهواء بشفتيها.... ارتخت أصابع يده عن عنقها و ما أن شعرت تولين بذلك حتى دفعته بكل قوة امتلكها جسدها بذلك الوقت ليبتعد بضع خطوات إلى الخلف.... رفرفت أهدابه قليلا وولى مدبرا.... أما عنها هبط جسدها ليصطدم بالأرض بشدة وهى تلعنه وتسأله سؤال واحد فقط.... لماذا؟!!!!

أغلق الباب عليها تاركا اياها بذلك الظلام وحيدة.... حاولت فتح الباب لكنه أغلقه نهائيها .... صرخت وصرخت لكن لا احد يسمعها... ركلت الباب لكن ارتدت ركلاتها لها حيث ألمتها قدماها ظلت تحوم وتدور بين تلك الجدران

الأربع تستغيث بالله ..... انتهت طاقتها المتبقية بجسدها لتجثو أرضا تحت ذلك الشعاع الخفيف من ضوء القمر وهى تنظر إلى السماء و بالأخص القمر من بين تلك القضبان الحديدية بتلك النافذة الصغيرة منفذها الوحيد.....

الفصل الثامن

لا يعلم كم مر وهو جالساً على مقعده بحجرة اجتماع الرجال بعد أن رحل الجميع... عدا تلك الوصيفة الذي أصرت جوهرهان على تركها بخدمته... ينظر إلى حديقته ونور القمر يختفي رويدا ليظهر نور الصباح الخافت على استحياء من خلف الغيوم الكثيرة... يفكر بتلك القابعة بقبو منزله البارد... تذكر اقترابه منها... نفسها المضطرب جسدها الواهن الذي تلقى نصيبا كبيرا من غضبه...

فرك وجهه بيده ثم استقام واقفا متجها إلى تلك الغرفة اللعينة... دخل بخطوات بطيئة ينظر بكل اتجاه بها... الأريكة ملجأ تولين... النافذة الصغيرة يدخل من خلف خشبها المزخرف أشعة شمس صغيرة متجهة باستقامة إلى ذلك الفراش... حيث فقد السيدة فاضلة...

اخذ شهيقا كبيرا وزفره بشدة وقد تقدم إلى ذلك الصندوق الخشبي بأحد أركان الغرفة وفتحه بشدة ليقابله كل مقتنيات تولين... ملابسها الغريبة التي جاءت بها وكل ما استخدمته منذ أن دخلت إلى تلك الغرفة....

ظل لعدة ثوان يحملق بتلك الأشياء وهو يفكر هل قنينة السم لا زالت هنا؟!!!

وبلحظة أطاح بذلك الصندوق ليتبعثر كل ما به... ملابسها و أدوات زينتها و بعض الحلي التي أهدتها إياها السيدة فاضلة و شيء يلمع بعيدا... تقدم بضعة خطوات ثم انخفض ليأتي بذلك الشيء... تبدو نوع من الحلي ... دقق النظر بها فهي ليست ألوفة... زهور صغيرة مرصعة بتلك الفصوص اللامعة متصلة ببعضها بحلقات صغيرة دقيقة و... دائرة بالمنتصف مزخرفه ومغلفة بزجاج رقيق... يرسم بداخلها بدقه بعض الأرقام العربية و سهم يتحرك بالداخل...

استقام واقفا وهو لازال ينظر لذلك الشيء بينما يتم مراقبته دون أن يشعر من زوج عيون خبيثة...

وبمكان أخر بذلك المنزل الكبير كانت تولين تجلس بهدوء بالقبو تنظر إلى نقطة وهمية خارج تلك النافذة تسأل نفسها... هل هي حقا بزمن أخر؟ كيف؟ كيف يحدث أن تكون بالماضي العتيق... كيف وقد كانت منذ أسابيع قليلة تتعرف على هذا الزمن عن طريق المتاحف والكتب والتماثيل...

هل يجب إخبار علي؟! لكنه لن يصدقها هو بالفعل يتهمها أبشع اتهام الآن كيف لها أن تقول له إنها من المستقبل... كيف ستشرح له وهي لا تفهم كيف حدث هذا؟

و عند هذا الحد قطع شرودها صوت الأقفال التي تفتح واحدا تلو الأخر ليظهر من خلف الباب علي اوغلو.... و كقطة مذعورة احتمت

تولين بالحائط وقد التصقت به وهي تضم ساقيها إلى صدرها....

شعر علي ببعض الشفقة من مظهرها البائس... شعرها المبعثر وجهها الملطخ بآثار دموعها وبعض أتربة القبو... قدميها العاريتين مجروحتين اثر ركلاتها للباب و انتفاضة جسدها وهى تنظر له برعب...
اخذ شهيقا كبيرا وزفره بهدوء وهو يتقدم بخطوات متمهلة وينظر إلى الحلي الخاص بها بيده... نظرت له ولوجهه ثم إلى يده وما تحمله لتجد ساعتها الخاصة... ساعتها الفضية من المستقبل... اتسعت عينيها قليلا ثم نظرت إلى وجهه مرة أخرى لتتقابل أعينهما... كانت نظراته باردة وقد ارتفع احد حاجبيه قليلا بينما تنظر هي بترقب لما سيقوم به...

جلس القرفصاء أمامها وهو يقول

-حسنا كلي أذان صاغية...
ارتعش جفني تولين قليلا وهى تبتلع غصة بجوفها وتقول بصوت مرتعش متردد
-ماذا؟ ماذا الآن؟
رفع يده وقد تدلت الساعة من بين أصابعه لتتأرجح بالهواء وهي تلمع تحت أشعة الشمس... نظرت لها تولين قليلا ثم نظرت له مجددا حينما قال
-مجددا كلي أذان صاغية...
نظرت له بتوجس قليلا ثم تنفست بهدوء قليلا وهي تقول بتردد
-هل ستصدقني؟
جلس أرضا وهو يقول
-الأمر متروك لما ستقولينه...
أومأت وهي بتبسم بسخرية ثم تنهدت وهي ترفع كفها ليعطيها ما يخصها... وبالفعل قام بضعه بكفها لتتلمسه بأناملها الدقيقة وهي

تنظر إلى عقرب الثواني الذي يدور باتجاه معاكس ثم قالت

-حسنا سأروي لك كل ما اعلمه...

مرت دقائق أم ساعات لا يعلم كلاهما كم من الوقت مر بينما كانت تولين تروى له كل شيء منذ أن خطت قدميها إلى أماسيا مع أصدقائها إلى أن وصلت إلى هنا بقبو منزل آل أوغلو بالعصر العثماني...

لم يتحرك سنتيمتر بوجه علي وهي تسرد عليه كيف وصلت إلى غابات أماسيا... كيف قابلته... كيف كانت تعتقد أن هذا كله حلم... تذكر حينما دخل إلى الغرفة مسرعا ليجدها تجثو أرضا بجانب السيدة فاضلة وهي تقول له (ليس حلم)

رفرفت أهدابه قليلا ثم نظر لها وهي تضع ساعة يدها على رسغها وتغلق قفلها بإحكام ثم

تتلمس تلك الزهور الصغيرة... نظرت له بهدوء ثم قالت

-سردت لك كل ما اعلمه وبكل تفاصيله... وأيضا بكل صدق

استقام السيد علي وقد شرد بكل كلمة نطقت بها... نظر إلى الباب الخاص بالقبو وهو مازال شاردا... التفت وما كاد يخطو خطوة واحدة حتى أتاه ندائها بصوت قوى لم يسمعه منها سوى مرة واحدة بأول لقاء لهما بالغابة...

-سيد علي....

التفت لها بملامحه الجامدة لتقابله هي أيضا بوجه دون أية تعبير لكن يشوبه الضعف ثم قالت

-أنا لست بقاتلة...

لم يصدر عنه ردة فعل سوى رعشة بسيطة لجفنيه بينما التفت وغادر دون قول حرف

واحدا لكنه هذه المرة لم يقم بغلق الأقفال..
فقط تركها حرة....
ظلت بجلستها مد لا بأس بها تنظر إلى باب القبو المعدني المفتوح أمامها... تنهدت تولين وهي تقف بهدوء و خرجت لتقابل الواقع المريب المرير الذي تعيشه...
صعدت السلم ببطء و كأنها تتوسل إلى جسدها كي يستمر في الصمود قليلا... تنظر أمامها بعينين حمراوين فقدتا الروح الصمود خاصتها... وبينما هي بتلك الحالة كانت الجارية تقف في مراقبتها كما أمرتها سيدتها... تراها تقف بوهن تتأمل قليلا باب حجرتها المغلق ثم تنهدت وهي تطأطئ رأسها قليلا بينما ترفع أناملها المرتعشة إلى مقبض الباب ومشاهد مؤلمة تنفجر بذاكرتها واحدة تلو الأخرى... الدماء تسيل من السيدة فاضلة... أخر أنفاسها وهي بجانبها... خروج جثمانها من ذلك الباب...

أغمضت عينيها بشدة وهي تكتم أنفاسها في محاولة لتحمل ألام قلبها لكن كان قد نفدت أخر قطرة من طاقتها لينهار جسدها أرضا وهي فاقدة للوعي...

وبجناح السيد علي الخاص كان يقف السيد عاكف بجانب السيد علي بينما يقفان بمواجهة شكري أغا...

نظر السيد عاكف بهدوء إلى ملامح شكري أغا المضطربة بينما كان السيد علي يقف بتحفز وكأنه سينقض عليه بأية لحظة...

و بصوت هادئ نطق السيد عاكف قائلا

-فلتخبرنا ماذا حدث بذلك اليوم

-اقسم لك سيدي أنى لم افعل شيء مخز فقط وضعت ما جلبته السيدة فاضلة اقسم لك حتى أنني بذلك اليوم لم ابتع طلبات المنزل بل السيدة فاضلة

-الم تر السيدة تولين بذلك اليوم

نظر شكري أغا إلى السيد علي الذي نطق جملته تلك بكثير من ضبط النفس ليهتف بسرعة قائلا

-حاشا يا سيدي لا يجوز لي تعدى حرمات المنزل أنا لم اختلط بأحد في هذا المنزل سوى حضرتكم والسيدة فاضلة فقط لا غير....

أومأ السيد عاكف متفهما في حين أغمض علي اوغلو عينيه بشدة... التفت يولي الجميع ظهره وهو يقول

-شكرا لخدمتك شكري أغا

نظر شكري أغا إلى السيد عاكف بتوتر وخوف ليشير له السيد عاكف بالانصراف... صمت تام لم يقطعه سوى صوت استغاثات من وصيفة جوهرهان بولغور ليلتفت كلا من علي والسيد عاكف ينظرا لبعض في استغراب وقلق ليركض كلا منهما إلى مصدر الصوت إلى أن وقف كلا

منهما أمام الوصيفة التي تجلس بجانب جسد تولين أرضا والأخرى تهيم بعالم أخر....

شمس الظهيرة الحارقة تسلط أشعتها الحارة على رأسها المسكين بينما تسير بطريق طويل عارية القدمين مكبلة اليدين برباط قاسي جارح لبشرة يدها بينما يكسو جسدها مجموعة من الأقمشة البالية لا تستر إلا القليل... تشعر بالظمأ و بالإرهاق وآلام متفرقة بجسدها كلما كانت تحاول أن تقف قليلا كان ذلك الرجل الضخم الغليظ يقوم بشد الرابط أكثر ليتألم ساعدها بشدة فتستكمل سيرها المرهق إلى أن تكالب عليها إرهاقها وألم جسدها لتقع أرضا .... اقترب منها الرجل ضخم البنية وهو ينحني و يديه الغليظة تقوم بصفع وجهها في لتستمر بسيرها...

تلك الصفعات لم تكن بالقاسية لكنها كانت كفيلة لإفاقتها من عالمها الضبابي... رفرفت أهدابها وقد تداخلت الصور بعقلها وبعد عدة لحظات من عدم الاستيعاب عادت إلى واقعها حيث كان السيد علي يقف بجانب فراشها وقد انحنى جذعه بينما كانت يده تلمس وجهها في صفعات هادئة وهو يهتف باسمها....

زفر علي اوغلو براحة حين رأى جفنيها يتحركان رويدا رويدا وحدقتيها تظهر من خلفهما في اضطراب إلى أن ثبت نظرها عليه... طال نظره لها وأنامله لا تزال تلمس بشرتها دون أن ينتبه كلاهما.... التفت برأسها لترى تلك الوصيفة تقف في اتجاه أخر من الفراش... استقام علي اوغلو وهو يبتعد عن الفراش بعد أن تنبه لوضعه ووجود الوصيفة... نظر إلى الوصيفة يأمرها قائلا

-فلتستدعي الحكيمة الآن و....

-أريد الراحة فقط... أرجو أن تسمح لي بالمكوث وحيدة لبعض الوقت سيد علي...
لم يستطع علي اوغلو استكمال أوامره لتلك الوصيفة حين نطقت تولين بأنفاس غير مستقرة وبصوت هادئ يشوبه بعض الارتعاش... صمت علي اوغلو وهو ينظر لها بتمعن وحرب طاحنة من الأسئلة تدور بعقلة.... هل يتركها وحيدة؟ ماذا ستفعل؟ هل يجب تركها وهي مريضة ضعيفة؟ هل يجبرها على رؤية الحكيمة؟
-أرجوك...
كلمة واحدة منها وهي تنظر له برجاء نابع من أعماق روحها... كلمة واحدة بصوت منخفض لا يكاد يسمع لكنه اخترق أذنيه ليصل إلى قلبه وعقله ليومئ وهو يقول دون أن يحيد بنظره عن عينيها...
-حسنا لك ما شئت...

التفت يخرج من الغرفة بخطوات هادئة و خلفه تخرج الوصيفة التي تسجل كل شاردة وواردة بهذا المنزل...

اعتدلت تولين بجلستها وهي تحاول النهوض لكن تمكن منها دوار قوى لتسكن بمكانها وهي تغمض عينيها بشدة... ومجددا تقتحم تلك الصورة عقلها وهى مكبلة تساق كالدواب خلف رجل مخيف شهقت تولين وهي تفتح عينها بشدة وتحملق بالفراغ أمامها وعدة أسئلة تتصارع برأسها ما هذا الذي تراه بحق الله؟ هل عادت الرؤى لها مجددا؟ ما هو الحلم وما هو الواقع؟ إذا كان واقعها أنها انتقلت إلى زمن أخر هل الحلم أنها ستكون بتلك الهيئة؟ وضعت تولين رأسها بين يديها وقد ضاق صدرها و تمكن منها الخوف.... لا تستطيع ترتيب أفكارها و كل شيء يتطور دائما إلى الأسوأ.... زاغت عينيها وهي تنظر بجميع

الاتجاهات بالغرفة.... أخذت شهيقا كبيرا وزفرته بشدة وهي تغمض عينيها بينما تربت يدها بهدوء على صدرها...

و بعد عدة ساعات كان علي اوغلو يجلس بمجلس الرجال يمسك احد الكتب يقرا به بعينيه لكن علقه كان يفكر بتلك القابعة بغرفتها لا يصدر عنها صوت... يفكر بما قالت بالقبو... من زمن أخر؟ كيف أتت إلى هنا؟ هل يوجد شيء مثل هذا بحق الله؟ هل هي ممسوسة من الجان أم فقدت عقلها بطريقة ما؟ لكن من أين أتت تلك الأشياء الغريبة خاصتها ؟! هل حقا لا دخل لها بموت السيدة فاضلة؟ لما يشعر بصدقها برغم من أن كل شيء ضدها؟؟؟!!!

أغلق كتابه بشدة حينما رقصت الحروف أمام عينيه وهو يفكر فقط بتولين... وقف ثم اتجه إلى غرفتها مقررا معرفه أدق تفاصيلها...

وقف أمام باب غرفتها مترددا قليلا لتتغلب شجاعته وهو يفتح باب الغرفة ليقف مصعوقا...

تقف باستقامة واضعه يدها على صدرها وهي ترتدي حجابا طويلا كالذي اعتادت السيدة فاضلة ارتداؤه... لم يستطع أن يحيد بنظره عنها حتى وجدها تسجد لله... التفت وغادر الغرفة بهدوء ووقف ينظر إلى باب الغرفة وهو يفكر ما تلك المخلوقة؟ ماذا تخبئ أيضا بجعبتها؟!ازدرد لعابة بصعوبة وهو يطرق الباب برأسه....

وبعد عدة دقائق دلف إلى الغرفة بهدوء ينظر هل أنهت صلاتها أم لا... رفعت عينيها إليه تنظر له ببرود بينما تجلس أرضا وأخيرا وجد صوته الطريق لفمه ليسألها بتعجب

-أنت مسلمة؟

نظرت تولين إلى يدها وهي تتلاعب بطرف حجابها ثم أجابت بهدوء

-اجل

-لماذا لم تخبريني من قبل؟

نظرت له وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيها عجز عن تفسير سببها أهي سعادة؟ لا لم تكن سعادة ربما استنكار.... قطع تفكيره صوت إجابتها الهادئ المشوب بقليل من السخرية

-أنت لم تسأل قط....

قبض يديه بشدة بينما كان يقف عاجزا يحاول إيجاد رد مناسب لكنه لم يجد... إنها محقه هو لم يسأل قط... فقط كان يوبخ يأمر لم يحاول لوهلة معرفة من هي...

ارتخت قبضتي يده وهو يتنهد بهدوء قائلا

-أنت محقة... لذا أنا هنا اليوم... الآن... من أنت؟!

ندت عنها ضحكة سخرية صغيرة بينما يرتفع جانب فمها في ابتسامة صغيرة وهي تقول

-لا اعلم....

قطب علي اوغلو وقد شعر بالاستياء من استهزائها بنقاشه ليرتفع حاجبها وهي تقول له

-لا تغضب... أنا حقا لا اعلم من أنا... هل أنا تولين الفتاه العربية المسلمة الحرة ؟ هل جئت بيوم ما برحلة سعيدة مع أصدقائي؟ هل أنا فتاه ذات لعنة تلاحقها منذ الصغر؟ أم أنني تولين الجارية التي وهبها لك احدهم بلا أهل بلا أصدقاء بلا احد.... هل أنا حرة أم جارية؟

ظل ينظر لها دون التفوه بحرف... لقد كانت كبركان بحالة الخمول منذ أن وطئت قدميها لمنزله والآن وهو يرى بداية انفجارها الحقيقي.... حينما لم تجد رداً أستقامت تولين وهي تقترب منه بخطوات متمهلة ثم وقفت أمامه مباشرة وهى تهمس

-من أنا سيد علي؟ هل أنا بحلم ما أم واقع؟ هل سأستيقظ لأجدك أنت وعالمك تتطاير

بالهواء كالبخار أم أن أصدقائي وعالمي هو الوهم وقد تبخر بالفعل؟

تشنجت عضلات وجهه بينما يدقق بتفاصيلها ... إلي قبضتي يدها المضمومتين بشدة إلى عضلات وجهها المتشنجة إلى نظراتها التي تتحول ببطء من السخرية إلي نيران غضب هستيرية... إلى بؤبؤي عينها المضطربين... اقتربت خطوة أخرى ليكون الفاصل بينهما بضعة سنتيمترات لتقول

-من أنا؟ هل أنا جانية ؟ أم مجني عليها؟ هل وجدت بغرفتي السم أم لا؟

وأمام صمته التام أتيحت الفرصة لها لتتفجر صارخة بوجهه وهي تلكم صدره بقبضتيها بشدة

- هل كنت السبب بقتلها؟ هل ماتت السيدة بسببي أم كان يجب أن أكل السم بدلا منها؟ كنت أنا من طلب منها تناول الطعام معي إذا

أنا قاتله... أنا قاتله... فقط اقتلني كما قلت
أزهق روحي ولا تلتفت ندما لثانية واحدة....
وقف علي اوغلو كحائط صامد أمام لكماتها
المتتالية إلى أن انتهت شحناتها لتقع أرضا عند
قدميه باكية صارخة بآن واحد... أغمض عينيه
قليلا وهو يقبض يديه يلجم جماح غضبه...
غضبه عليها وعلى نفسه أيضا....
زفر بهدوء وهو يجثو أرضا بجانبها وهو
يمسك كتفيها المنتفضتين اثر شهقات بكائها ثم
قال

-لا اعلم من أنت لكن ما اعلمه انك لست
بقاتلة... لست بملعونة... أنت فقط تولين.

رفعت رأسها تنظر إليه بينما دموعها تنهمر بلا
توقف ليقول

-لم يكن خطئك تولين لذا اهدئي

أبعدت يده عن كتفيها لتقف أمامه بصمود كاذب
تمسح دموعها ثم تقدمت إلى الباب وخرجت

تاركة إياه لازال يجثو أرضا بينما تقف الوصيفة بعيدا تراقب كل شيء....

مر ساعات وساعات والسكون يحيط ببيت آل اوغلو... حيث تولين تجلس بالقرب من احد الأشجار بالحديقة تفكر هل سيمكنها العودة مجددا إلى عالمها؟؟ كيف؟ وحتى ذلك الحين يجب أن تحاول التعايش بهذا الوضع.... لا يجب أن يعلم احد أخر بحقيقتها لكن كيف ستتعامل بزمن لا تعلم سوى أشهر أحداثه... لا تعلم عاداته أو تقاليده لا تتكلم لغتهم بإتقان لا تفهم شيء...

أغمض عينيها بينما كانت تحتضن كتفيها وهي تفكر كيف ستتعايش بهذا الزمن بالتأكيد عرفت بعض الأشياء القليلة من خلال مرورها ببعض الأماكن الأثرية بأماسيا قبل أن تنقلب حياتها رأسا على عقب... تذكرت متحف أمراء أماسيا

وذلك الشيخ الكبير الذي أغدقها بوافر من المعلومات حول الدولة العثمانية... جلست تتذكر كل ما تعلمه عن تاريخ الدولة العثمانية من السلطان الحالي؟ اعتقد انه سليمان القانوني هذا ما قاله علي اوغلو إذا من التالي؟ من هم أبنائه... كان الأمير مصطفى احد أبنائه لكن من هم الآخرون؟ هل سيكون الأمير مصطفى هو السلطان؟ هل قال ذلك الرجل بالمتحف انه السلطان مصطفي أم فقط أمير؟

وبمكان أخر حيث جناح السيد علي يقف بجانب شرفته ممسكا بيده بعض الأوراق الخاصة بعمله مع السيد عاكف لكنه ينظر إلى تلك القابعة بالحديقة منذ عدة ساعات لا تفعل شيء سوى أنها تحتضن نفسها وتحدق بالفراغ... نظر إلى وصيفة جوهرهان خاتون وهي تتقدم من موقع تولين قليلا تنظر لها ثم تعود إدراجها

دون الاختلاط بها... التفت علي اوغلو إلى السيد عاكف الذي يقف خلفه ليقول

- سيد عاكف أريد منك طلب صغير
- بالطبع سيد علي هل هناك خطأ ما بالحسابات أم انه...
- لالالا ليس هذا انه فقط.... عندما مرضت السيدة فاضلة تفضلت السيدة جوهرهان بولغور بإرسال وصيفة للمساعدة.... أريد منك إرسالها....

كان السيد عاكف بعالم أخر فما أن اسمع فقط اسم جوهرهان حتى تسارع نبض قلبه و تبعثرت أفكاره .....كم يعشقها لكنها لا تبالي حاول التقرب منها عدة مرات لكنها كانت الجدار الفولاذي لا تتأثر بشيء....
- سيد عاكف؟؟؟ سيد عاكف هل انت بخير؟

ـ ها؟ اجل سيد علي معك اعتذر لقد شردت قليلا

ـ حسنا سيد عاكف فقط أريد منك إرسالها إلى منزل آل بولغور و أرجو أن تقوم بإيصالها....

تنحنح السيد عاكف قليلا قبل أن يقول

ـ اجل بالطبع لا تقلق سيد علي سأفعل المطلوب...

أومأ علي اوغلو وهو ينظر مجددا إلى حديقته... وبعد عدة ساعات كانت الوصيفة تقف بالحديقة تنظر يمينا ويسارا بريبة وهى تتقدم باتجاه ذلك الباب الخلفي لتلقي مكتوبا مليء بتفاصيل بيت آل اوغلو إلى ذلك الرجل الملثم ..... لكنها ما أن التفتت حتى وجدت السيد عاكف خلفها مباشرة....

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ ماذا؟؟؟ اااالا شيء لقد... لقد رأيت شيء غريب فاقتربت لأرى من هنا؟ اعتقد أن هناك لص يحاول الدخول إلى المنزل سيدي

ـ لص؟

ـ اجل رأيت شيء ما تحرك هنا ما أن اقتربت حتى وجدت شخص يركض

ـ ألا يجوز أنها هرة أو حيوان ضال؟

قال هذا وهو يقترب من السياج يدقق النظر لكنه لم ير شيء... التفت إليها وهو يقول

ـ ألا تعلمين انه لا يجوز خروجك من المنزل كما تشائين؟

نظرت أرضا وهي تعتذر عن تجاوزها... تنهد السيد عاكف وهو يقول

ـ حسنا فلتقومي بإعداد كل ما يخصك لأنك ستعودين إلى منزل آل بولغور

قبض قلبها هل تم ضبطها؟ يا الهي ماذا ستفعل بها سيدتها....

- لماذا سيدي؟ اعتذر بشدة عن تجاوزي وخروجي من المنزل أرجوك لن اكرر خطأي مجددا

- لا تقلقي خروجك ليس بالخطب الجلل لكن السيدة فاضلة لم تعد معنا الآن لذا يجب أن تعودي لخدمة سيدتك بالتأكيد هي تحتاج لك بجانبها أليس كذلك

أومأت الوصيفة إيجابا وهى لا تدرى ماذا تقول لتمكث هنا كما كانت سيدتها تريد ولا تعلم ما مصيرها حين تراها سيدتها عند باب منزلها.... تركها السيد عاكف و ذهب يعد عربته ويربت على حصانه في حين تحركت الوصيفة و ذهبت لتحضير أغراضها....

وبعد قليل من الوقت كان السيد عاكف يقف بباب آل بولغور و بجانبه تقف الوصيفة تمسك بأغراضها بتوتر.... نظر عاكف إلى المنزل الضخم يشبه قصر الأمراء لكنه اصغر قليلا....

بالطبع فعائلتها من اكبر العائلات ووالدهم مقرب من الصدر الأعظم
فتح الباب وكان الأغا المسئول هو من استقبلهم ليدخلا و بعد قليل من الوقت جاءت جوهرهان خاتون...
ارتبك قليلا وهو يتنحنح ليقول
- مرحبا سيدتي
نظرت له جوهرهان بعدم اهتمام واستعلاء أومأت له ثم نظرت إلى وصيفتها و حاجبا مرفوع في تساؤل عن وجودها هنا؟
تنحنح السيد عاكف ليجلي حنجرته لم تكن تلك المرة الأولى وليست الأخيرة التي تعامله بدونية بها لكنه رغم ذلك لا يستطيع اقتلاعها من قلبه
- سيدة جوهرهان السيد علي اوغلو يبلغك سلامه وتشكره لجهودك... نرجع أمانتك و لمرة أخرى نشكرك من قلبنا لمساعدتك لنا

التفت جوهرهان لتقابله وجها لوجه رفرف جفنيها عدة مرات ثم ارتسمت ابتسامه جليديه على وجهها.... هو يعلم تلك الابتسامة جيدا إنها تغصب وجهها على الابتسام يعلم تمام العلم أنها كانت تريد همزة وصل بينها وبين السيد علي كما يعلم مقدار حبها له... وهذا ما يزيد ألمه وجرحه نارا....

ارتعشت ابتسامة بائسة على شفتيه وهو يتنحنح مجددا ثم القي تحيته سريعا و غادر منزلها بخيبة أمل جديدة لكنه يواسي قلبه بأنه رآها.... رآها كالبدر بمنتصف الشهر العربي بل أجمل....

تنهد وشعر وكأن قلبه تنفس الصعداء برؤيتها.... ابتسم و هو يلقى نظره أخيرة على منزلها ثم ركب عربته وركل حصانه حتى انطلق سريعا.....

في حين أن جوهرهان كانت كالبركان الثائر تحطم كل ما هو قريب فما كان ينقصها سوى انقطاع وسيلتها الوحيدة لمعرفة ما يدور بهذا المنزل....

تعلم تمام العلم أن هناك شيء خفي بينه وبين تلك الجارية كادت تجن وهي تتخيله يعاملها كما كان يعامل أختها عتيقة من قبل.... ظلت تصرخ وتصرخ حتى جاء وئام أغا يحاول تهدئتها....

- سيدتي أرجوك اهدئي قليلا سنجد حلا بالتأكيد سنجد حلا

انهارت جوهرهان أرضا وهي تبكي بحرقة

- يحبها يا وئام.... اعلم هذا... اشعر به بقلبي كما شعرت بحبه لعتيقة يحبها يا وئام....

انحنى وئام أغا ليقترب من سيدته ونياط قلبه يتقطع من رؤيتها بهذا الضعف ربت على

كتفيها وأحاطها بذراعيه ساندا إياها حتى أجلسها على مقعدها الوثير....
- ساجد حلا سيدتي وعدا سأتخلص منها.... سأجعلك تحصلين على سعادتك سيدتي فقط لا تكوني بمثل هذا الضعف كوني كما عهدتك قوية ذكية جميلة...
شهقت جوهرهان بضعة شهقات وهى تمسح دموعها وتنظر بامتنان إلى وئام الذي يدور بخلده خطة جديدة لإقصاء الجارية تولين....

الفصل التاسع

بينما كانت تجلس شاردة أسفل تلك الشجرة بمنزل آل اوغلو بمظهر لا يمت للدولة العثمانية بصلة.... ترتدي ما اعتادت ارتداءه حينما كانت بعصرها بين أصدقائها وأحبابها... يتطاير شعرها اثر بعض النسمات الجميلة وقد تركته حرا بينما تمسك بيدها بتلك الساعة خاصتها تحدق بذلك العقرب يسير بعكس الاتجاه وهي تفكر... هل يجب أن تسير مثله... عكس كل ما عاشته وتربت عليه فقط تخضع لقوانين الزمن التي تعيش به...

وبذلك الوقت كان السيد علي يقترب منها بخطوات هادئة متمهلة... وقف قليلا ينظر إلى النباتات حوله ثم إلى تلك الشجرة التي اتخذتها تولين ملجأ لشرودها بدلا من الغرفة... رفع حاجبيه قليلا و هو يقول

-لقد قمتي بتغيير ملجأك...
رفعت تولين رأسها تنظر إليه قليلا لتبادله بنظرات لا مبالية ثم أخفضت رأسها تنظر إلى الفراغ أمامها وهي تقول
-اشعر برائحة دماء وموت تجتاح انفي كلما دخلتها لا أحب المكوث بها كثيرا....
تنهد علي اوغلو وهو يجلس أرضا بجانبها بينما يقول
-تبدين كما رأيتك أول مرة... لكن بمظهر مهذب بعض الشيء...
ابتسامة جانبية هي كل ما ند عنها بينما نظر السيد علي أمامه في صمت... صمت لم يدم طويلا حين سألها بصوت يشوبه بعض الريبة والشك
-متى ولدت؟
التفتت تنظر له بهدوء ثم أجابت
-عام ألف تسعمائة ثلاثة وتسعين
-و كم عمرك؟

ومجددا بهدوء دون أن تنظر له قالت

-خمس وعشرون

ارتفع حاجبيه وهو يقوم بحساب عدد السنوات ليقول بصوت مازح

-يا له من زمن... هناك فارق قرون بيني وبينك

ابتسامة جانبية شقت شفتيها لا تعلم هل هي سخرية من حالها أم لمزحته... وبصوت يشوبه الجدية قال

- أتعلمين انه إذا سمع أحد بقصتك تلك إلى أين سيأخذونك؟

اتسعت ابتسامتها ابتسمت قائلة بصوت يشوبه ضحكة لطيفة

- إذا كنا بعالمنا الذي اعرفه فسيأخذونني إلى مكان يدعى مشفى الأمراض العقلية والعصبية أما إذا كنت هنا فأنت أدرى إلى أين يأخذوني

نظر أمامه وهو يتخيل ما قد يحدث ثم قال وعينيه تضيقان كأنه ينظر إلى صورة ما...

- إلى شيخ ليطرد الجان المسيطر عليك بالتأكيد أو خان ما أو وقف إحدى السلطنات وهناك تكونين مشردة وبرداء يرثى له

رفرفت أهداب تولين وقد اتسعت عينييها وهي تنظر له وهي تسمع كلامه وهي تتخيل ذلك ثم ما لبثت أن انفجرت بالضحك فنظر لها مجددا يتأملها قليلا وقد شقت ابتسامة صغيرة ثغره لتتسع رويدا رويدا إلى أن شاركها ضحكها وهو يصورها بخياله بمظهر مشرد بأحد الأوقاف.... وتدريجيا اختفت ابتسامته وهو ينظر لها بتعاطف جلي...

- أنت تعلمين جيدا أن ما حدث لك لا تفسير مطلقا اعلمه

أومأت وهي تنظر أرضا وهي تتنهد بيأس بينما تضم ساقيها إلى صدرها...

- قد تحدث معجزة ما وتعودي من حيث أتيت لكن إلى هذا الحين هناك الكثير يجب أن تعلميه كي تستطيعي التعايش بهذا الزمن وبتلك البلاد

همس بالموافقة وهى شاردة هو كلما ند عنها ليومئ السيد علي ويعود الصمت مجددا ليكون سيد الموقف وكلا يشرد باتجاه أسفل تلك الشجرة

مرت ساعات اليوم برتابة على كلا منهما إلى أن سمعت تولين بضع طرقات خفيفة على بابها... فتحت ببطء لتجد علي اوغلو يقف و ابتسامة مرتبكة مترددة ترتسم على شفتيه بينما يقبع بين يديه شيء ما غلف بشكل جيد... رفع يده إليها وهو يقول

- هذا لك... أتمنى أن ينال إعجابك...

جملة واحدة كانت كل ما قاله وهو يعطيها تلك الهدية ثم ولى مدبرا بينما كانت تولين تنظر له بصمت وهي تتلقاها...

أغلقت الباب وهي تنظر إلى ما بيدها.. حلت الرباط برفق ليظهر ذلك الرداء البسيط الهادئ بمظهره... ابتسمت وهي تتلمسه بأناملها و

لسان حالها يقول أن أكثر ما أحبته بذلك العصر هو تلك الأقمشة الحريرية بل وأشكال الملابس أيضا...

وضعت الرداء فوق جسدها ثم ابتسمت وهي تتنهد... نظرت إلى تلك الساعة الملقاة على فراشها وقد عزمت أمرها...

و بذلك الوقت كان السيد علي يمشي بخطوات متمهلة بحديقته يفكر هل ستتقبل تلك الهدية؟ أم سترفضها وتلفظها خارج حجرتها بل تلفظه هو خارج حياتها... قطب غاضبا قليلا وهو يتساءل هل تجرؤ؟ ثم يعود لينفي هذا الخاطر لقد مضى خلافهما منذ أن تشاركا الكلام صباح اليوم...

تنهد بشدة وهو يعبث بشعره بأصابعه قليلا ثم دخل إلى منزله وقد قرر اللجوء إلى القراءة...

وصل إلى جناحه وخطى إلى داخله ليقف وقد تصلب جسده لوهلة وهو ينظر إلى تلك التي

تمشي بخطوات متمهلة وهي تنظر إلى الكتب والمجلدات خاصته...

ارتخى جسده وهو يستند إلى باب جناحه وقد شبك ذراعيه أمام صدره بينما ينظر لها وابتسامة هادئة على وجهه... لا يعلم ما يشعر به هل هو سعادة لأنها تجاوزت خلافهم وتقبلت بادرة المصالحة.... أم لأنها تقبلت هديته وترتدي الرداء بالفعل... نظرات عينيه تسير ببطء عليها من رأسها إلى أخمص قدميها وهي تسير برشاقة وأصابع يدها تتلمس بعض الكتب لديه...

-اعتقد أن الرداء لاءمك...

التفتت حين صدرت تلك الجملة منه بصوته الهادئ لتبتسم وهي تمسك أقمشة ردائها وتبتسم رفعت عينيها إليه وهي تقول

-اعتذر عن اقتحامي لجناحك الخاص... أردت مقابلتك.

أومأ السيد علي وهو لازال بوضعه وبابتسامة هادئة قال

-حللت أهلا

اتسعت ابتسامتها لتصبح ضحكة صغيرة وهي تعتقل تلك الخصلة الشاردة من شعرها المموج خلف أذنها... خطى السيد علي بضع خطوات نحوها وهو يقول

-اعتقد أن تلك الملابس أيضا تليق بك نوعا ما... لكن الأخرى تمثلك حقا... عفوية و مشرقة...

شاب وجهها الحمرة وهي تهرب بعينيها عن نظراته المربكة ولسان حالها يسال ما به اليوم؟ و بصوت مرتبك قالت

-لديك موسوعة كبيرة من الكتب لكن لا افهم معظمها للأسف... لكن هناك كتاب لجلال الدين الرومي أتحبه؟

وقف أمامها مباشرة ولازالت نظراته مرتكزة عليها وهو يقول

-أحب خواطره... لكن هل سيوجد أحد مثله مستقبلا؟!

نظرت له تولين تحملق بوجهه الهادئ تبحث عن سخرية او تهكم بنظراته او بسمته لكنها لم تجد...

لم تجد غير ملامح هادئة مريحة... ابتسمت وهى تتنهد بهدوء وقالت...

-سيولد شعراء رائعين لكني لم أحب خواطر أيا منهم كما أحببت خواطر جلال الدين الرومي

اتسعت ابتسامته وهو يقول

-رائع وأخيرا شيء مشترك...

اتسعت ابتسامتها لتصبح ضحكة خفيفة بينما تحنى رأسها تنظر أرضا... ارتسمت هالة دافئة

حولها من فعل أشعة الغروب التي وجدت طريقها إليهم من خلال شرفته الواسعة...

-إذا ما رأيك ببضع ساعات عند غروب كل يوم لقراءة بعض خواطره...

رفعت رأسها تنظر له ثم أومأت وهي تبتسم بهدوء....

و بقصر أخر كان وئام أغا يقف أمام تلك الوصيفة الملعونة تخبره بكل ما حدث خلال إقامتها ببيت آل اوغلو... اتسعت عينا وئام أغا وهو يقول بهمس

-مستحيل... هل تقولين مسلمة حرة؟

-اجل يا أغا هذا ما سمعته و رأيته بأم عيني كانت تؤدي صلاتها حينما دخل السيد علي... اعتقد انه أيضا لم يكن يعلم أنها مسلمة لا اعلم ماذا يدور بذلك المنزل

ازدرد وئام أغا لعابة بصعوبة وهو يضع يده على فمه يفكر ما هي تلك العلاقة المريبة

بينهم؟ و كيف لمسلمة حرة أن تجلس ببيت آل اوغلو إلا ... إلا إذا كانت زوجته...

اتسعت عينا وئام أغا خوفا من أن ما يجول بخاطره هو الأقرب للحقيقة لكن مهلا... إذا كانت زوجته بالتأكيد كان سيعلم أنها مسلمة...

نظر وئام أغا بصرامة للوصيفة وهو يقول

- هل أنت واثقة من كل كلمة قلتها...

- اقسم لك يا أغا أن هذا كل ما اعلمه فبعد انفجارها بوجه السيد علي لم يحاول كلاهما الاختلاط بالأخر...

- حسنا أغلقي فمك جيدا فلا أريد لحرف مما قلتيه أن يخرج مجددا... حتى إلى سيدتك جوهرهان أتفهمين؟

أومأت الوصيفة بخوف وهي تضع يدها على فمها بينما التفت وئام يسير هائماً على وجهه يفكر بطريقة للتخلص من تلك الفتاه...

و بقصر آل اوغلو كان السيد علي يجلس مغمض العينين باسترخاء على مقعده الوثير بجناحه الخاص بينما يستمع باستمتاع لصوت تولين وهي تقرأ بعض من خواطر جلال الدين الرومي الذي اتفق كلاهما على حبه...
تجلس على تلك الوسادة الوثيرة المريحة أرضا بينما تتسلط عليها اشعة الغروب ليتوهج وجهها وشعرها الأشقر...
فتح علي اوغلو عينيه ينظر لها بينما كانت هي مسترسلة بقراءتها بصوتها الهادئ...
نظر إلى ردائها الأبيض الذي أهداها إياه يليق بها كثيرا... رفع نظره إلى شعرها وقطب قليلا ليقطع استرسالها قائلا

- هل جميعكم بالمستقبل هكذا؟

نظرت تولين إليه لتجده يحدق بها رفعت أناملها تقيد خصلة وهمية خلف أذنها بخجل بينما تهبط يدها إلى عنقها وهى تنظر أرضا وتجيب سؤاله قائلة

- هكذا كيف؟

-اعني هل جميعكن لا ترتدون الحجاب مثلما تفعلين؟

نظرت تولين أمامها بشرود تتذكر عدد المرات التي نصحتها بها صديقتها لارتداء الحجاب... كم عدد المرات التي انتقدتها عائلتها لهذا السبب إلا أنها لم تبالي فكانت تلك حريتها الشخصية كما كانت تقول دائما... تنهدت وقالت

-لا ليس الجميع لازال الحجاب موجودا لكن بأشكال مختلفة عما رأيته هنا... إلا انه لازال موجودا...

-إذا لماذا لم ترتدي الحجاب أنت أيضا؟

شردت قليلا تفكر في سبب عدم ارتدائها الحجاب... هل لأنها تشعر بأنها ستكون مقيدة بطريقة ما؟ أم لأنها تتمرد على كل ما يريده من حولها لتثبت أنها حرة...

رفرفت أهدابها وهي تنظر له قائلة بهمس

-لا اعلم...

ارتفع حاجبيه قليلا وهو يومئ بلا سبب بينما أغمض عينيه مجددا...
نظرت تولين إلى ذلك الكتاب بين يديها وشردت به...

مر يوم تلو الأخر ببيت آل اوغلو و الهدوء يعم الأجواء... تنتظر تولين مغرب كل يوم حيث تجتمع بالسيد علي لساعات للقراءة والتحدث عن الماضي والحاضر و المستقبل...
لم تكن وحدها من ينتظر تلك السويعات بل كان هو أيضا يشعر كطفل يجب أن ينهي دراسته أولا قبل أن يتم إهدائه بضع ساعات للترفيه المحبب للقلب...
تعلمت الكثير من العادات القديمة الغير قابلة للهتك بهذا الزمن كاختلاط الرجال الأجنبية بالنساء... الآن علمت سبب غضبه الشديد حينما كانت تتخطى بدون قصد بضع القواعد التي أملاها عليها سابقا... فهنا القوانين

صارمة رادعة هكذا كان عهد سليمان القانوني ولهذا لقب بالقانوني....

و بيوم طال انتظارها له حيث بدأت الشمس بالغروب إلا أن السيد عاكف لم يخرج من غرفة اجتماع الرجال بعد... تنهدت تولين وهي تبتعد عن نافذة غرفتها بعد أن نظرت مطولا إلى قرص الشمس الدامي...

خطت خارج غرفتها تنظر يمينا ويسارا ثم سارت باتجاه الحديقة إلى شجرتها المفضلة.... جلست تولين أسفل الشجرة وقد تسربت أشعة شمس الغروب إليها لتضفي حولها قليل من السحر فوق سحرها هكذا كان يراها علي اوغلو وهو ينظر لها بينما يقف بالقرب من شرفته وقد تمكن منه الشرود وسيطر على تفكيره وجودها أمامه بتلك الهاله الرقيقة..

شعر بدقات قلبه تتسارع بطريقة محببة ليبتسم بسعادة...
لم يستطع سماع شيء مما قاله صديقة المقرب السيد عاكف الذي قد طال عمله أكثر مما ينبغي...
رفع السيد عاكف نظره وترك قلمه حينما لم يجد ردا من السيد علي... نظر له وهو يقف شاردا وبسمة صغيرة ترتسم على ثغره وهو يراقب تلك البسمة التي ترتسم بعيون صديقه قبل أن تصل إلى فمه....
سعل السيد عاكف ليحظى بانتباه علي اوغلو مجددا ويقول...
-اعتقد أننا اطلنا اليوم لكن اعتذر سيدي هنالك بعض العراقيل نقابلها تلك الأيام مع التجار لذا يجب حسم الأمر اليوم...
ابتسم علي اوغلو وأومأ موافقا وهو يعود إلى رشده ليكمل أعماله مجددا...

مضى الوقت إلى أن حل الليل وهي تجلس أسفل تلك الشجرة... نظرت تولين إلى السماء تتبين النجوم لكن كانت السماء تحيط بها الغيوم من كل اتجاه... لا تجد النجوم اللامعة ولا القمر المنير فقط الظلام... لوهلة قبض قلبها لكنها رفعت يدها تربت على صدرها بهدوء....
وبتلك اللحظة كان علي اوغلو يقف أمام تلك النافذة بغرفة اجتماع الرجال ينظر إليها تجلس بهدوء بينما ترفع نظرها الى السماء وكأنها تبحث عن شيء... ارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة لكن ما لبثت ابتسامته أن ترددت إلى أن تحولت إلى تقطيب شديد وهو يرى شيء ما يتحرك بالقرب من تولين... اقترب من النافذة يتبين ما هذا الشيء...
لكن جحظت عيناه حين رأى شخص ملثم يضع يده فوق فم تولين كاتما صراخها بينما يحملها بسهولة ويركض بعيدا....

بضعة لحظات.... فقط بضعة لحظات جمد بها علي اوغلو بمكانه ليشاهد كل هذا كأنه بكابوس يريد الركض به ولكنه لا يستطيع... وكأن قدماه مقيدتان بالأرض....

شعر وكأن صاعقة ضربته بشدة لينتفض ويركض إلى الحديقة بالاتجاه الذي ركض به الملثم... لكنه وجد الظلام والفراغ مقابلا له.... ركض وركض إلى أن وجد كل الطرق متشابهه أمام عينيه... ازداد فزعه وهو ينظر بكل اتجاه فلا يجد اثر لمخلوق غيره...

تباطأ ركضه إلى أن أصبح هرولة لينتهي بوقوفه وقد انحنى جزعه وهو يشهق بشدة في محاولة لإقحام بعض الهواء داخل رئتيه....

هل يؤلمه قلبه؟ لا بل يتمزق إلى أشلاء... يشعر بقلبه وكأنه سيقف خوفا.... هل تلك

النهاية؟ ألن يرها مجددا؟ لا يعلم من كان هذا وماذا يريد؟ ولما هي؟

وقف يضع يده على صدره بينما ألمه يتضاعف... يتألم بنفس مقدار ألمه حين فقد عتيقة منذ زمن.....

ضاق صدره وهو يشهق بشدة محاولا اقحام بعض الهواء الى رئتيه وقد تمكن منه الشعور بالعجز... انهار أرضا وهو يصرخ بقوة كليث جريح بينما تكالبت الغيوم بالسماء لتنذر بعاصفة قوية تبدأ لتوها....

الفصل العاشر

فتحت عيونها ببطء وهي تشعر بدوار و الآم شديدة برأسها.. تسلل الى عينيها ذلك الضوء المنبعث من المصباح الزيتي الموضوع بأحد أركان تلك الغرفة الغريبة....
قطبت تولين قليلا وهي تحاول التركيز فيما يحدث..... ما هذا المكان؟ و ما تلك الآلام المزعجة برأسها؟؟
و بلحظة واحدة اقتحم ذاكرتها ما حدث.... جلوسها بانتظار السيد علي مثل كل يوم ببقعتها المفضلة إلا انه تأخر كثيرا... ثم... ثم ذلك الملثم الذي وضع شيء ما على انفها كاتما أنفاسها و بعدها لم تشعر بشيء أخر.....
اتسعت عينيها بشدة وكأنها رأت شبحا ما.... انتفضت تولين بجزع تنظر يمينا ويسارا تنظر إلى ملابسها التي تبدلت إلى ملابس رثة مبعثرة.... لم تكن تلك الخرق البالية التي

ترتديها الآن هي ما كانت ترتدي بل كانت ترتدي رداء حريري غاية بالجمال والرقي.... تحسست تلك الأقمشة المهترئة التي بالكاد تغطى مفاتنها...نظرت حولها إلى أركان الغرفة البسيطة تلك....

دارت ودارت بكل أنحاء الغرفة حتى فتك الدوار برأسها وسقطت أرضا وهى تشهق بصوت عال....

علت شهقاتها أكثر فأكثر إلى أن تحولت لصرخات مستنجدة....

زحفت إلى باب تلك الغرفة الضيقة و بيدها المرتعشة الواهنة طرقت طرقات متتالية مستغيثة وهى تصرخ بهستيرية....

في حين أن ذلك الباب كان فاصلا بين تلك المنهارة جسديا ومعنويا وبين جوهرهان بسعادتها الغامرة....

وكان لصراخ تولين وشهقاتها المتألمة وهى مغلوبة على أمرها اثر السحر على نفس

جوهرهان حيث زادت دقات قلبها الفرحة و تضاعفت سعادتها.....

نظرت جوهرهان إلى وئام أغا المبتسم بزهو لسعادة سيدته وهي تقول ببسمة هادئة و بنبرة منخفضة....

- و أخيرا صارت تولين بمكانها المناسب... خادمة وجارية لكن أين سترسلها يا وئام؟

ابتسم وئام بخبث وقال بصوت لئيم

- بمكان لا يمكنها الفكاك منه مطلقا حتى أخر عمرها....

و كأنه أرسل إشارة إلى جوهرهان بذلك المكان لتتسع ابتسامتها حتى شملت وجهها كله ثم نظرت إلى ذلك الباب القابع خلفه تلك المنكوبة الصارخة المتألمة حد الهلاك....

أما في مكان أخر حيث الأشجار المتداخلة و الظلام الحالك كان على يركض هنا وهناك علة يجد أثرا لها... يشعر انه يعيش كابوس ما

فيريد الركض بأسرع ما لديه لكن الواقع انه يرفع قدمه من الأرض بصعوبة بالغة و كل شيء يمر من حوله ببطء شديد.... تعب من محاولاته للركض... وقف يحاول التنفس وهو يشهق بعمق....

قضى كثيرا بين الأشجار يركض يمينا ويسارا إلى أن لمح شيء معلق بأحد الأغصان اليابسة يتطاير بخفة بنسمات الهواء الباردة....

ركض باتجاهه فما كان إلا وشاح تولين...

امسك به برفق بين يديه يتحسسه بأنامله....

رفعه إلى انفه يشم عطرها به وقد لمعت عينيه بدموع خفيفة يحاول جاهدا كبتها...

استقام وهو يقبض بشدة على وشاح تولين.....

نظر إلى السماء ليجد لون السماء لينذره بحلول فجر يوم جديد.... تلك الغيوم لم تتقشع بعد فلا تستطيع الشمس أن تظهر بصفائها

ودفئها ككل يوم إلا أنها تنير السماء بهدوء حزين....
نظر أمامه بيأس ثم تنهد وهو يقبض أكثر فأكثر على ذلك الوشاح و بخطوات متخاذلة عاد إدراجه إلى منزله ...

مر وقت لا يعلمه وهو يدور بمجلس الرجال بمنزله كليث مقيد بقفصه تارة يركل الهواء وتارة يلكم بعض الوسائد بغضب بينما يطلق بعض الآهات والصرخات الغاضبة و سؤال واحد يثقب رأسه بشدة... من هذا الشخص؟؟

نفدت طاقته تماما و تمكن منه الوهن... اقترب من مقعده الخاص بمجلس الرجال ثم ترك جسده يقع باستسلام على ذلك المقعد....
فرت دمعتين ساخنتين من مقلتيه بينما يضغط فكية بشدة غضبا وألما وهو يحكم قبضته على

ذلك الوشاح وينظر إلى الحديقة و بالأخص عند تلك الشجرة حيث فقدها.....
سمع بضعة طرقات على بابه فأنتفض راكضا إلى باب منزله ليجد أمامه صديقه السيد عاكف ينظر له باستغراب وقد تعجب من مظهره المبعثر وحالته التي يرثى لها....

و بمكان أخر كانت تولين لا تزال تبكى وتشهق بخوف وهي تضم قدميها إلى صدرها تجلس بخوف بأحد أركان تلك الغرفة....
ظلت على تلك الحال لمدة قليلة حتى دخل رجل ضخم إلى الغرفة.... ارتعش جفني تولين بشدة ثم اتسعت عينيها حين تذكرت...
انه هو ذلك الضخم بحلمها... هل تتحقق نبوءتها مجدد؟!!
فزعت تولين وأخذت تحاول الاحتماء بشيء ما فلم تجد غير الجدار تلتصق به..... أما عن ذلك

الرجل فكانت ملامحه غليظة و هيئته مخيفه كأحد قطاع الطرق....
تقدم بضع خطوات إلى أن وقف مقابلا لها....
ظل يتفحصها قليلا بينما زاد انكماشها وحاولت ستر جسدها بتلك الخرق الباليه الموضوعة عليها.... وبعد عدة لحظات تحدث ذلك الرجل بلغته

- قفي هيا...

ظلت تولين على حالها لا تفهم شيء بينما كرر أمره مرة أخرى فلم يجد استجابة ....

امتدت يديه الغليظة يشد ذراعها كي تقف حينها فقط أعطت تولين ردة فعل حيث بدأت بالصراخ والركل بقدميها والإطاحة بكل شيء أمامها بيديها....
حاول الرجل السيطرة على يديها وقدميها فناله لطمه خفيفة لكنها كل ما تقدر عليه تولين....

ازداد غضبه وزادت وتيرة أنفاسه فأصبح كالثور الهائج....
و بلحظة امسك بشعرها يشده بقوة ثم لطمها لطمه شديدة فقدت اثرها اتزانها لبعض الوقت....

حدث الأمر وكأنه مثل سقوطها من ارتفاع ما.... كما كان شعورها حين سقطت من اعلي المنحدر.... الم برأسها يفتك بها بعد تلك اللطمه.... عدم اتزان .... تشعر بالغرفة تدور وتدور من حولها... هل ستفقد الوعي الآن؟!!
تمنت أن تفقده حينها لن تشعر أو ترى ما سيحدث لها....
لم تدري ماذا حدث رؤيتها الضبابية منعتها من استطلاع ماذا يحدث..... فقط شعرت أن احدهم يحملها ثم شيء خشن للغاية يحكم ربط يديها... أغمضت عينيها بشدة و فتحتها عدة مرات إلى

أن رأت ذلك الرباط القاسي.... همست بوهن لنفسها قائلة

- يا الهي ليس مجددا...

نظرت إلى ذلك الرباط الخشنة الذي يقيد يديها بشدة حتى أن أناملها أصبحت بلون قريب من الأزرق فلا تصل الدماء بشكل سليم إلى أطراف يديها حاولت فك وثاقها فلم تفلح.... نظرت حولها بتلك الغرفة لشيء يساعدها فلم تجد.... و على حين غرة شعرت بذلك الضخم الغليظ خلفها.... نظرت له بوجل بينما انتفضت تولين للخلف مبتعدة بقدر الإمكان عنه حينما رأت يده تمتد إليها....

لمحت تولين نظرة أسف بعينيه إلا أن تلك النظرة محت تماما حين انعقد حاجبيه وهو يمسك بالرابط المتدلي من يديها ويسحبها معه ويغادر تلك الغرفة.....

حاولت توليت التباطؤ وهي تهمس ببكاء تتوسل بلغتها العربية

- أرجوك سيدي أنا لم افعل شيء خاطئ ولن افعل أرجوك أطلق سراحي لن اخبر عنك أحدا فقط اتركني لوجه الله....

نظر لها بجمود و هو يتمتم بعض الكلمات بلغته لم تفهمها تولين فتنهدت ودموعها تسيل من عينيها...

سحبها مجددا خلفه لطريق لا تعلمه لكنها استسلمت لقدرها فلا شيء قد يحدث لها أكثر مما كتبه الله لها.... أملها في الله وحده....

ظل ذلك الرجل الضخم يمشي بخطواته الواسعة ممسكا بذلك الحبل الخشن الذي يقيد يدي تولين بشدة حتى جرح رسغيها....

كانت تحاول اللحاق بخطواته الواسعة الطويلة كي لا تتألم يديها أكثر فكلما تباطأت كان يقوم بشد ذلك الرباط الخشن فإما أن يختل توازنها و تقع كمرات عديدة فاتت منذ أن بدأت تلك الرحلة اللعينة مع ذلك الشخص البغيض و حينها ينهال عليها بالضرب أو السباب الذي لا تفهمه لكنه بالتأكيد سباب حيث ينهى كلامه بصوته العال المزعج بان يبصق عليها..... أو يتسبب الحبل في زيادة الجروح بيدها لذا كانت تفضل تعب محاولات اللحاق بخطواته على أن تتلقى الضرب و السباب منه....

مرت عدة أيام لا تتذكر عددها أيام متواصلة من التعذيب وانقطاع المياه والطعام و السير بالطرقات وسط الغابات تارة ووسط القرى تارة أخرى لتصل بالنهاية لجمع غفير من فتيات بمثل حالتها البائسة.....

وقفت تولين بذهول تام تنظر إلى أولئك الفتيات الجميلات بلباسهن المهترئ ووجوههن المتسخة و حالتهن الرثة هي لا تختلف عنهن كثيرا.....

فاقت من ذهولها وتحديقها على ذلك الغليظ يشد الرباط كمن يسحب دابة خلفه لا إنسان له شعور وكرامة حتى أن بعض الحيوانات تحتج على تلك المعاملة فتثور وتركض بعيدا أو تقوم بضرب مالكها لكنها ليست بالقوة الجسدية مثل الدواب كي تقوم بذلك .... ابتسمت تولين وهي تهزأ من نفسها حتى الدواب لهم حقوق ولهم احترام عنها... هل كتب عليها أن تهان بهذا العصر؟ بدايتها كانت علي اوغلو والآن هذا الغليظ!!!

وحين تذكرت السيد علي نبض قلبها بألم وهي تتساءل ترى هل يعتقد أنها هربت؟ هل هو

مستاء؟ أم لا فرق بين وجودها من عدمها...
تنهدت وهى تمسح دموع قهرها وحزنها ....
لم يكن ذلك تخيلها عن عهد سليمان القانوني
الم يلقب بالقانوني فقط لأنه وضع القوانين
الحازمة التي تطبق على الكبير قبل الصغير
وأقام دولته على العدل....
فاقت من شرودها على شيء يثير الغثيان حتى
أنها كادت تتقيا.... هل بيعت للتو؟؟؟
هل حقا ما تراه صحيح؟
نظرت حولها تحاول فهم ما يحدث هنا فصرخت
بلغتها العربية
- ماذا يحدث هنا بحق الله؟ لا يمكنك بيعي يا
هذا أنا حرة أتسمعني أنا امرأة مسلمة حرة هذا
لا يجوز أرجوك آلا يوجد احد يفهمني على
الإطلاق هنا.....
نظرات الجميع حولها كانت وكأنها تقول تعاويذ
ما تفاوتت النظرات بين غضب من ذلك الهمجي
الذي اصطحبها حتى هنا و بين اللامبالاة من

الرجال الآخرون وخاصة زعيمهم الذي امتلأت جعبته بتلك القطع الذهبية لأخذها بعيدا و نظرات مختلطة من الحزن والشفقة من الفتيات الأخريات إلا واحدة فقط تجلس القرفصاء مع باقي الفتيات المقيدات تنظر لها بذهول تام .... و كأنها تفهمها....

اقترب احد الرجال إليها يتفحص وجهها ثم ابتسم بتهكم ونظر إلى الرجل الضخم قائلا بغلته

-ألا تعلم من أين تلك؟ تبدو ملامحها عربية؟ هل هي فارسية؟

نظر الرجل الغليظ لها بلامبالاة وقال

-لا يهم لا دخل لنا فقط قم بتسليمها مع الجوار و إذا تم رفضها.... تخلص منها بطريقة ما....

نظر الرجل الأخر إلى تولين ثم قال

-يا لأسفي على هذا الجمال.... أتمنى أن يقبلوها فهذا الجمال نادر مزيج من الشرق والغرب.....

ثم أطلق ضحكات عاليه وهو يرفع قنينة مياه إلى فمه وشاركه الضحك الرجل الغليظ وأخر يقف بجانب الفتيات الجاثيات أرضا....

في حين جن جنون تولين أكثر وأخذت تصرخ مرددة نفس الجملة.... فما كان من تلك الفتاه الجالسة إلا أن اقترب من تولين وسحبتها بقوة لتستكين بجانبها عنوة وهي تنظر إلى الرجل و تعتذر منه ليسامحها....

نظرت تولين بعجب لتلك الفتاه ذات الشعر الأسود الحالك والبشرة البرونزية و العينان السوداء ذات الأهداب الكثيفة...

همست تولين لها

- هل تفهميني؟ أنت تفهميني صحيح؟

- اجل أفهمك وافهمهم أيضا لذلك اتبعا فقط ما أقوله وإلا ستصبحين جثه هامدة بحلول الليل

شهقت تولين واتسعت عينيها بشدة و هي تنظر للرجال بلباسهم الأسود الحالك ولظهر الرجل الغليظ الذي سلم أمانته ورحل بعيدا.....

همست تولين برعب وهي تمسك بيدي الفتاه بشدة

-أنا لا افهم شيء أرجوك من هؤلاء و من انتن ولم نحن هنا؟

طلت نظرات بلا معنى من عيني الفتاه السمراء ثم قالت

- نحن جوار.... لقد تم بيعنا وسيتم الكشف علينا حلما نصل إلى مكاننا.... ويجب أن نجتاز هذا الكشف

شهقت تولين بجزع وهي تهمس قائلة

- عن أي كشف تتحدثي أنت؟ لن اجتاز شيء ولن أكون جارية هذا لا يجوز أقول لك أنا حرة مسلمة حرة لا يجوز

نظرت لها الفتاه ببرود وقالت

- حقا؟! إذا لما لا تخبري هؤلاء بهذا الخبر الرائع ليستلوا سيوفهم لقتلك الآن

جحظت عيني تولين بهلع وهي تهمس

- قتلي؟!

- اجل هذا ما قاله الرجل الذي سلمك منذ قليل.....

ازدادت وتيرة تنفسها وشعرت كأنما يهرب الدم من جسدها....

- ماذا افعل الآن؟

- فقط ألزمي الهدوء وستنجي لا تقلقي.....

ابتلعت تولين ريقها بصعوبة ..... حلقها جاف ووجنتها تؤلمها حيث صفعها ذلك الوغد ويديها تدميان اثر الحبال.... و الأهم قلبها يتخبط بجدران صدرها خوفا وهلعا من الحاضر والقادم.... لم يكن بمخيلتها أن الماضي بهذا القسوة....

مضت عدة ساعات من السير المستمر إلى أن وصلوا إلى وجهتهم.....

وقفت تولين فاغرة الفاه أمام هذا القصر المهيب... جميل كما لم تر من قبل لكنه بطريقة ما يبعث بالرهبة بقلب من يراه.....
وقفت تولين بجانب الفتيات بانتظار المجهول إلى أن قام عدة رجال بالخروج.... من بوابة القصر الكبيرة.... يرتدون من الملابس ما هو متشابه وأنيق... يبدون كخدم بالقصر لكن هنالك قائدهم يتبختر كالطاووس أمامهم وهو ينظر إلى الفتيات من رأسهن إلى أخمص أقدامهن....
تحدث قليلا من أولئك الرجال ثم ملء جيوبهم بالذهب مجددا.... تباع مجددا.....زفرت بغضب لتلك الفكرة فنظر إليها ذلك الرجل المسئول.... تقدم إلى أن وقف أمامها ويديه خلف ظهره.... ظل يتأملها ويدقق بها ثم سألها بهمس بلغته
- هل هناك خطب ما؟
لم تفقه تولين شيء فنظرت إلى الفتاة السمراء خلفها لتجيب عنها قائلة

- سيدي إنها لا تفهم اللغة العثمانية إنها عربية

ارتفع حاجبيه وهو يبتسم بإعجاب شديد حتى صارت ابتسامته ضحكة خافته ثم لوح بيديه إلى احد أتباعه وهو يقول

-تأكد من صكوك بيعهن وأدخلهن بمجرد الانتهاء....

انحنى الرجل بخضوع تمام وما أن رحل هذا المسئول حتى استقام الرجل ثم اقترب من احد خاطفي تولين ليأخذ صكوك بيع الفتيات... إلا انه دون أن يشعر به احد تلقى بعض القطع الذهبية بدلا من احد الصكوك...

لم يرى أحدا ما حدث إلا زوج من إلا عيون سمراء ذات أهداب كثيفة لا تغيب عنها شاردة أو واردة...

أما عن تولين كانت تفكر هل ما حدث لها حينما اتهمها علي اوغلو بالقتل يعد نوع من أنواع التعذيب النفسي؟ لا .... فلم تكن تعلم تولين مدى التعذيب الحقيقي حين أخذت الوصيفات

بالتدقيق بكل شبر بجسدها للتأكد من سلامة ما تم شراؤه... هبطت دموعها قهرا وخجلا... كلما حاولت التحدث أو الصراخ اعتراضا تتلقى نظرات تحذيرية من تلك السمراء كي لا تفتح فمها.....

انتهت تلك المهمة المؤلمة وحان وقت الاستحمام.... كانت تحلم بتلك الطقوس في الحمام التركي.... ها قد عاشته بأبشع صوره....

جلست تولين وهي تحكم وضع تلك المنشفة حول جسدها بينما تمسك بيدها وعاء نحاسي وتنظر بهدوء حزين إلى المياه الدافئة ذات الأبخرة المتصاعدة....
بينما عينا تلك الفتاه تراقب سكناتها قبل حركاتها... ولوهلة شعرت بالشفقة تجاهها... تقدمت منها لتجلس بجانبها وهي تقول

-يجب عليك التعايش مع وضعك الحالي....
نظرت لها تولين ثم أغمضت عينيها ولسان حالها يقول.... مجددا التعايش مجددا يا الهي....
امتدت يد الفتاه إلى ذلك الوعاء القابع بين يدي تولين ثم ملأته بالمياه الدافئة وبدأت بمساعدة تولين لاستئناف استحمامها....

انتهت تولين من الاستحمام هي والفتيات الأخريات وقدمت لهن ألبسة ليست بأناقة ما ارتدته بمنزل علي اوغلو لكنها على الأقل أكثر أدميه من تلك الخرق البالية....
نظرت تولين إلى الفتاه ثم سألتها
- ماذا الآن؟ أين نحن؟ هل هذا قصر وزير ما أم ماذا؟
ابتسمت الفتاه السمراء ثم قالت
- لا بل انه قصر الأمير مصطفى.....

جحظت عينيها بشدة و تدلى فكها إلى أسفل وبعقلها تتساءل... قصر من؟ الأمير مصطفى؟ وبلحظة تردد صوت ذكوري كهل داخل عقلها وهو يقول (انه الأمير مصطفى) صور مشوشة متداخلة بعقلها كانت سبب بان هاجم الألم رأسها المسكين... أغمضت عينيها بشدة لتتضح تلك الذكرى الصغيرة حيث كانت بمتحف أمراء أماسيا... ذلك التمثال الشمعي... و ذلك الرجل الكبير وهو يقول لها

(انه الأمير مصطفى الابن الأول للسلطان سليمان خان و لقبه الأمير المظلوم......)

شهقت تولين وهي تهمس بصوت خافت

- انه هو... الأمير المظلوم...

الفصل الحادي عشر

ظلت تولين بدهشتها مدة لا باس بها تحملق بتلك السمراء غير مصدقة لما سمعته..... ظلت الفتاه السمراء تتأملها قليلا في عجب لاندهاشها.... لكن عجبها زال حينما رأت الوصيفة الأولى لحرم قصر الأمير مصطفى حاولت انتشال تولين من حالتها تلك وهى ترفرف بأهدابها بشدة فلم تفلح لذا اضطرت لوخزها كي تنتبه.... تسمرت تولين حين سمعت صوت امرأة قوى يقول بسخرية

- هل لجلالة السلطانات أوامر؟

التفتت تولين بهدوء لتواجه عفيفة خاتون.... نظرت عفيفة خاتون بعلو و تكبر لهما في حين تدخلت السمراء بسرعة لتهدئة الموقف انحنت باحترام واعتذار قائلة

-اعتذر سيدتي و اطلب السماح منك نحن فقط لسنا معتادون على قواعد القصر بعد

نظرت عفيفة خاتون إلى السمراء برضا في حين نظرت بتهكم واستعجاب لتولين الواقفة بعجز وخوف مشوب بالتعجب الخفي....

نظرت إلى السمراء وهى تسألها

-ما اسمك

ابتسمت الفتاه بارتياح وشعرت أنها نجحت في نيل إعجاب الوصيفة

- درة... اسمي درة يا خاتون

- اسمك جميل..... و أنت ما اسمك؟

نظرت تولين بعدم فهم للوصيفة الأولى في حين نطقت درة بسرعة لتدرك الموقف

-سيدتي إنها لا تتقن غير العربية

ارتفع حاجبي عفيفة خاتون بتعجب ثم نظرت بازدراء إلى تولين .... التفتت عنهم وهي تأمر جميع الجواري بالاصطفاف ثم بدأت في سرد مهام الجوار و قواعد الحرم بالطبع لم تفهم

تولين حرفا لكنها آثرت الصمت حتى تجلس مع درة لتفهم كل حرف.....

انتهى اليوم و حل الليل لتذهب كل فتاه إلى فراشها في حين جلست تولين بجانب درة تسألها

-ما اسمك؟

نظرت لها درة ببرود وهي تقول

-درة

ابتسمت تولين ابتسامة واهنة وهي تقول

-اسمك لطيف أنا ادعي تولين... أنت عربية الأصل؟ من أين أنت؟

نظرت درة إليها تحملق بها قليلا قبل أن ترد

-من الفرس

أومأت تولين بهدوء وقد بدأت تلك البسمة بالتلاشي رويدا ليحل الوجوم مكانها... ظلت تنظر يمينا ويسارا إلى ذلك المكان حولها... تلك المصابيح الزيتية القديمة والشموع المتناثرة هنا وهناك تضيء المكان بطريقة

محببة مريحة دافئة بينما تتراص الفتيات بنظام بفراشهن كل يغرق بأحلامه الخاصة بينما هي لا تعلم لما هي هنا وكيف والى متى؟ تنهدت وهي تنظر مجددا إلى درة التي لا تزال تحملق بها بوجه دون تعبير ثم قالت...

-أنا لا افهم شيء حتى الآن ... لا اعلم كيف جئت إلى هنا ولماذا حتى أنى لا افهم لما أفوز دائما بكره وازدراء كل من يقابلني بهذه البلاد العجيبة...

قالت تولين جملتها تلك ثم أطلقت أهات وهي تعبث بشعرها المتناثر حول وجهها بفوضى لطيفة لتبتسم درة وهي تقول بهدوء

-لأنك طبيعية... لا يجب أن تتعاملي بفطرتك هنا تولين... أنت تسيرين على نهر مجمد ...هنا يجب أن تحترسي من كل خطوة وكل حرف وكل نظره...

نظرت لها تولين برهبة مما قالت وهي تسألها

-لماذا؟

-لأنك بوكر المؤامرات
زاغت عينيها لوهلة وهي تفكر أن هذا ما كان ينقصها... همست بخوف تسألها
-ماذا افعل الآن؟
تنهدت درة وهي تقول
-لا شيء فقط الانحناء وأنت ترددين أمرك مطاع ثم يمر الأمر مرور الكرام...
قطبت تولين وهي تقول
-سأكون كالنعام إذا
قطبت درة وهي تتساءل عما تقصد لتقول لها تولين
-انه لا شيء...
نظرت لها درة بريبة قليلا وهي تقول
-ما هو العداء الذي وقعتي به لتباعي بتلك الطريقة؟
نظرت لها تولين بيأس وهي تقول
-اقسم لك أني لا ادري... لا ادري حتى مع من ذلك العداء....

-لكن غالبا عدوك من الأثرياء حقا لقد تم وهب الكثير من الذهب كي تدخلي القصر...
ابتسمت تولين بسخرية وهي تقول
- هل أكون من الشاكرين لأني باهظة الثمن؟
ضحكت درة بهدوء وهي تنظر لها بعطف لتقول
-لا تقلقي هنا أنت بأمان شرط ألا تغضبي احد يجب أن تتعايشي بطريقة ما هنا والاهم يجب أن تتعلمي وتنتبهي للقواعد
-أية قواعد لم افهم شيء من تلك المرأة المريبة
وضعت درة يدها فوق فم تولين وقد اتسعت عينيها وهي تقول
- هل جننت يجب أن تتحدثي بلباقة هنا... تلك المرأة ذات شأن إنها كبيرة الخدم والوصيفة الأولى لدى السلطانة يجب أن تنالي رضاها
رفرفت أهداب تولين بعدم فهم لتتنهد درة وهي تقول

-حقا أمامك الكثير لتتعلميه لا بأس ربما يكتب لي الخير عند الله إذا ساعدتك قليلا... اتسعت ابتسامة تولين وأخيرا أحدا ما بجانبها.. تذكرت السيدة فاضلة هكذا كانت تحاول مساعدتها.... أغمضت عينيها وهي تمنع هطول دموعها لذكراها وذكرى ما مرت به بمنزل آل اوغلو من خير وشر....

مرت ساعات وساعات بين تولين ودرة تشرح لها كل شيء عن حرم قصر الأمير بل عن الأسرة الحاكمة.. كانت تصغي لها بانتباه بل وتسألها كثيرا كطفلة تروي لها أمها أساطير الأولين.... قامت درة بشرح مهامهم في الحرم من تنظيم وتنظيف الحرم وجناح الأمير وجناح السلطانة وتحضير طاولات طعامهم.... شرحت لها أيضا أنواع الدروس التي تتلقاها كل فتاه تدخل الحرم العثماني.... فيدرسون القراءة

والكتابة باللغة العثمانية.... و يدرسون الفنون الموسيقية....
شرحت لها عن السلطانة مهديفران الزوجة الأولى للسلطان سليمان خان.... والدة اكبر أمراء الدولة العثمانية الأمير مصطفى.... أمير يملك الكثير والكثير من طباع السلطان سليمان يملك الحكمة والقوة البدنية يملك الذكاء والهدوء والصبر والثقافة....

و بالطبع توسع شرح درة لسلالة آل عثمان.... تحدثا عن اقوي سلطانة بعهد سليمان القانوني .... الجارية التي أصبحت اقوي سلطانات الدولة العثمانية.... السلطانة هرم.... كيف بدأت طريقها إلى قلب السلطان... كيف تغلبت على الصعاب و مكر ودهاء السلطانة مهديفران.... كيف استخدمت ذكائها وفطرتها كأنثى ضد السلطانة مهديفران حتى أطاحت بها وبأول ولي عهد الأمير مصطفى حتى نفيا إلى هنا....

إلى أماسيا.... بعد أن كان حاكم ولاية مانيسا والتي تعد سنجق ولي العهد...

مرت ساعات حتى غفت كلتاهما تعبا.... فلم تمض سويعات قليلة حتى بزغ الفجر وبدأت وصيفات الحرم في إيقاظ الجواري لبدأ أول يوم فعليا بحرم القصر.....
بدأت الفتيات بالاصطفاف أمام عفيفة خاتون وذلك الأغا المسئول عنهم.... صدح صوت عفيفة خاتون الصارم وهي تقول
-اليوم أول يوم لكن سيبدأ مرجان أغا بتدريبكن حسب أصول وقواعد الحرم...
ومن تحاول الخروج عن قواعد القصر عقابها واحد لا غير.... السجن حتى أخر يوم بعمركن....

نظرت بتوعد إلى الفتيات تتبين ردود أفعالهن فكانت متفاوتة بين الخوف والخضوع الحزين

لكن وحدها تولين تعبيرها واحد لا يتغير... الاستعجاب والاستغراب..... نظرت تولين إلى عيني عفيفة خاتون لكنها لم تبادلها النظرات فكانت تنظر خلفهن جميعا.... نظرت تولين خلفها لأعلى لتجد سيدة اقل ما يقال عنها أنها ملكة.... جمالها يضيء المكان... شموخها بوقفتها تدل على كبرياء عظيم.... أطالت تولين النظر إليها فما كان من تلك السيدة إلى أن تلاحظها وتنظر إليها من اعلي بتكبر شديد.... لاحظت درة فعلة تولين فقامت بوخزها بسرعة كي تخفض نظرها... استجابت تولين لحركة درة لكنها قابلت نظرات عفيفة خاتون الغاضبة.... ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تحاول تخمين مكانة تلك السيدة .... اتسعت عينيها بشدة وقد توهج خاطر بعقلها... هل يعقل أن تلك... السلطانة مهديفران!!!!!

أشارت عفيفة خاتون إلى مرجان أغا ليبدأ في تعليم الفتيات في حين انصرفت السلطانة بعد أن ألقت نظرة على نظام الحرم...

بدأ مرجان أغا في تعليم الفتيات بأمور الحرم... وكعادة تولين لم تفهم شيء إلا بعد أن قامت درة بترجمة الأوامر لها....
أمر مرجان أغا الفتيات في البدء بتنظيف الحرم... وبالفعل بدأت كل فتاه بأخذ دلو ماء لتبدأ عملية التنظيف... في حين وقفت تولين تحاول مجاراة درة بتصرفاتها إلا أنها توقفت عن العمل فجأة تنظر إلى خلية النحل تلك... كل يعمل باتجاه ليظهر بالأخر العمل متكامل لا غبار عليه... شردت بذلك المكان وهي تفكر هل لازال هناك اثر لذلك القصر بالمستقبل؟ هل تم اخذ مقتنياته لتوضع بمتحف أماسيا؟ فاقت من شرودها حين سمعت صوت فتاه أخرى تقول

-أنت يا فتاه لم توقفت عن العمل؟ هل السلطانة تعبت أم ماذا؟
نظرت لها تولين باستغراب لكنها فطنت أن تلك الفتاه تحاول افتعال شجار معها نبرة صوتها وتعبير وجهها يدلان على ذلك....
أهملتها تولين وتجنبت الرد فما كان من الفتاه إلا أنها ألقت بدلو الماء على تولين فتبللت من رأسها إلى أخمص قدمها....
شهقت تولين بشدة وهي تحاول التنفس بصعوبة .... تذكرت تولين صفعات الرجل الغليظ وتعنيفه لها... تذكرت ما فعله قطاع الطرق معها وما واجهته مع علي اوغلو حينما رحلت السيدة فاضلة و الآن تلك الجارية....تأجج الغضب بقلبها وقالت بصوت منخفض...(هذا يكفي طفح الكيل)
و بلحظة واحدة كان شعر كلتاهما بيد الأخرى في شجار عنيف.... تعالى صراخهم إلى أن

وصل لآذان عفيفة خاتون لكن توقف كل شيء بقدومها....
انفصلت الفتاه عن تولين وبدأت في الشكوى لعفيفة خاتون.... ضحكت تولين باستهزاء حينما تذكرت احد الأمثال الشعبية بمصر حقا يمثل الوضع الحالي...
حاولت الشرح لعفيفة خاتون كل ما حدث لكن لا حياة لمن تنادى فلا يوجد احد يفهمها الآن سوى درة المنكمشة بأحد أركان الحرم....
لم تشعر تولين سوى بتلك الصفعة القوية من يد عفيفة خاتون ليختل توازنها فتسقط على إثرها أرضا.... ترى هل يوجد احد أخر سوف يصفعها.... تلقت صفعات بيومين كما لم تتلق بحياتها كلها.....
حاولت البكاء عل وجع روحها يهدأ قليلا لكن لا دموع بمقلتيها... نظرت الفتاه بتشف و فرحة لكن ما لبثت فرحتها أن ذهبت إدراج الرياح حين صدح صوت عفيفة خاتون أمرة بجلد كلا

من الفتاتين عشرون جلدة..... ظلت تولين جاثية أرضا بينما امتلئ المكان بصراخ وعويل الأخرى وهي تتوسل إلى عفيفة خاتون طالبة العفو و السماح...

اخذ الأغوات تولين وتلك الفتاه إلى غرفة مظلمة بالقبو... وكم تكره تولين الأقبية .... بادئ الأمر ظنت أنها ستسجن إلا أنها فطنت لعقابها حينما بدأت احد الأغوات بتقيدها جيدا بينما قام الأخر بتعرية جسدها لتظهر بشرتها البيضاء الناعمة وقفت تولين تبكي بصمت ويديها مقيدتان بشدة لأعلى وهي شبه عارية.... أغمضت عينيها بشدة تنتظر أن تأتيها السياط من حيث لا تدرى.... صمتها لم يدم كثيرا حين انطلقت صرخاتها تزلزل الغرفة حينما هبط السوط على جسدها البض بقسوة ليترك أثاره الدامية المؤلمة للجسد والنفس...كانت روحها تنسحب تدريجيا من جسدها مع كل جلدة.... ذهب صوتها إدراج

الرياح من كثرة ما صرخت فما عادت تقدر على إصدار الهمس بينما تشوه جلدها الأبيض و بشرتها الناعمة....

و بعد مدة تم فك قيدها و قد قام الأغوات بسحبها إلى مضجعها..... كانت كل الفتيات يغرقن بأحلامهن إلا درة تجلس بضيق بانتظار تلك المسكينة.... وما أن ألقى الأغوات تولين بجانب مضجعها حتى هبت درة إليها لترى جسدها العاري المشوه وروحها الممزقة إربا....

أمسكت درة بقطعة من القماش المبلل وبدأت بمسح الدماء عن ظهر تولين في حين كانت تولين تتلوى ألما مع كل لمسة كاتمه آهاتها بوسادتها..... و فجأة شعرت تولين بشيء بارد مريح كانت تضعه درة على جروحها وهي تهمس قائلة

-انه علاج جئت به من الطبيبة دون علم احد.... لا يجب أن تصبح لديك علامات على جسدك يجب أن تتعافي وتتعلمي

هبطت دموع تولين وهي تهمس بصوت مبحوح قائلة

- ماذا يجب أن افعل؟ أنا لا اعلم شيء علام عوقبت اليوم أنا لا افهم.... اشعر بالآم شديدة

- بالطبع يجب أن يؤلمك ظهرك فقط استحملي و....

- لا ليس ما يؤلمني ظهري فقط بل قلبي يؤلمني.... اشعر بالقهر يا درة

تنهدت درة وهى تستقيم بجلستها وتنظر إلى وجه تولين الباكي... وبصوت صارم جاد قالت

-أهم قاعدتين هنا يا تولين يجب أن تعلميهم..... اهتمي بشأنك فقط.... وتملقي.... يعشق سكان القصور التملق.... حتى اصغر عامل هنا يحب التملق..... كل

من هو أعلى رتبة يحب التملق ممن يصغره....
إذا حدث وحاولت إحداهن افتعال شجار فتجنبيه.... يمكنك الرد لكن بطرق أخرى لا تؤذيك ..... هنا يجب استخدام العقل عن اليد... الم اشرح لك من قبل ما حدث مع السلطانة مهديفران حين تطاولت باليد على السلطانة هرم؟ كانت النتيجة دائما بصالح السلطانة هرم لأنها استخدمت عقلها لا يدها.....
فقط اهدئي الآن واستلقى ذلك العلاج سيحسن وضعك قليلا....

ارتجف جسد تولين بينما تضع درة الدواء بحرص على جراحها لتتنهد درة وهي تشعر بالأسف لحال تلك الضالة بعالم غريب...

مرت الأيام يوم تلو الأخر وقد تأقلمت تولين بوضعها الجديد بحرم الأمير..... يمر وقتها مع درة تارة بتنظيف الحرم و تارة بالتحدث عن تلك السلطنة و عن أمرائها وسلطاناتها....

يبدأ يومها بالأعمال بالحرم وينتهي بدروس القراءة والكتابة و العزف على الآلات الموسيقية الوترية....
لم تتوان بعض الجوار من المحاولة لسحبها لشجار أخر لينتهي الأمر بأن تكظم غيظها كما علمتها درة من قبل... و بأشد لحظاتها كانت تلجا لله لكن سرا... فكما أخبرتها صديقتها الوحيدة درة انه ما أن يعلم احدهم أنها مسلمه ستجد ما لا يحمد عقباه....
عاشت أيامها كطيف خفيف نادرا ما يلاحظها احد إلى أن جاء يوم كانت تقوم بترتيب أغطيتها لتسمع صوت مرجان أغا يتحدث بلغته
-أنت يا الفتاه ما اسمك مجددا؟

ظلت تولين تنظر له بعينين متسعتين لا تفقه شيء مما يقول بسبب سرعته... كرر سؤاله وقد بدا عليه الضجر... أتت درة من خلفها و أجابت مرجان أغا قائلة

-اسمها تولين يا أغا لكن كما قلت مسبقا إنها لا تفقه لغتنا

بدا الامتعاض على وجه مرجان أغا وهو يقول

-كل تلك الأيام ولم تتعلم شيء يجب أن تقوم السيدة عفيفة بتعنيف تلك المعلمة خاصتك أو تعنيفك أنت لخمولك...

تدخلت درة مرة أخرى بابتسامة رقيقة جذابة وبغنج

-هل كنت تريد شيئا ما يا أغا

فرجت أسارير الأغا وهو يضحك بلؤم على محاولاتها للتقرب منه كي تكسب مكانه بين الجاريات الأخريات

-لا... لا أريد منك أنت... فأنت لا تؤتمني لأنك ماكرة

عبست درة و زمت شفتيها كالأطفال فضحك مرجان أغا ثم تحولت ملامح وجهه للصرامة على غفلة وقال لدرة

-اخبريها أن تذهب إلى المطبخ هناك قد أعدت صحون غداء السلطانة مهيدفران فلتقم بتوصيلها

ابتسمت درة وهي تنحني للأغا باحترام وطاعة لأمره....

ما أن غادر الأغا حتى اختفت بسمتها بينما تراقبهم تولين بنظرات مرتابة متخوفة....

نفخت درة بملل وهي تلتفت إلى تولين قائلة

- هيا اذهبي إلى المطبخ لجلب صحون غداء السلطانة مهيدفران

- لكن ألا يوجد احد غيري أخاف من مواجهة احد ما فلا استطيع فهمه

- لا تقلقي لا يحتاج الأمر إلى الحديث فقط اذهبي و امسكي بصينية الطعام وضعيها بيدي وصيفات السلطانة و عودي مجددا.....

لم تتحرك تولين وهي تفكر بقلق فعاودت درة تحثها على الإسراع كي لا يغضب مرجان أغا
بعد قليل من الوقت كانت تولين تقف بانتظار اللمسات الأخيرة لطعام السلطانة أمام المطبخ الملكي العثماني....خرج احد الأغوات يمسك بالطعام المخصص للسلطانة لتمسكه تولين بيدين مرتعشتين وتذهب بطريقها إلى جناح السلطانة....
لم تسير بهذا الدرب من قبل بل لم تحاول التجول بالقصر مسبقا رغم قلبها المشتاق لرؤية كل شبر هنا إلا أن خوفها تغلب عليها....
و قبل أن تصل إلى بوابة جناح السلطانة استكانت بمكانها قليلا تحاول تهدئة نبض قلبها و هي تحدث ذاتها باللغة العربية قائل
- فقط اهدئي لا شيء سيحدث مجرد تسليم لجارية أخرى وأعود لمكاني لا شيء يقلق فقط اهدئي
- وهل هناك ما يقلق لتلك الدرجة؟

انتفضت تولين اثر سماع صوت ذكوري خلفها ليقع كل ما بيدها أرضا وهى تتقابل وجها لوجه مع ذلك الرجل الطويل ذو اللحية الكثيفة والعيون الثاقبة....

اتسعت عيني تولين وهي ترى رجلا ذو معالم مألوفة يقف أمامها....رفرفت أهداب تولين بشدة ذعرا ودهشة.... لكنها سرعان ما أخفضت ناظريها إلى صحون طعام السلطانة متناثرة أرضا... وضعت يدها على فمها و قد جحظت عينيها بشدة.....

- يا الهي قضي علي .... جاءك الموت يا تارك الصلاة... سيجلدونني مجددا.... لا بل سيقوم الأغوات بسجني مدى الحياة.... لا لا بل سيقتلونني

نظرت تولين إلى الرجل الماثل أمامها الذي ينظر لها باستغراب وحاجبيه يتقابلان بشكل يوحي انه غاضب و سالت بهمس

- هل ستقتلونني؟ أرجوك يا أغا لا تقتلوني سأفعل أي شيء لأكفر عن ذنبي لكن لا تؤذوني .... سأقوم بتنظيم الحرم وحدي... أو... أو... سأقوم بتنظيف كل ملابس الجوار وحدي.... يمكنكم أن تقوموا بمنعي أيضا من وجباتي اليوم أو لمدة يومان بل ثلاث أيام.... لكن....

أشار بيده إليها أن تصمت مقاطعا إياها بصوته الهادئ وبلغة عربية سليمة

-اهدئي قليلا.... من أنت؟

اتسعت عينيها بشدة وأخيرا احد ما بالقصر يفهمها غير درة....

- أنت تفهمني؟ أنا... أنا جارية هنا بالحرم يا اغا

- ما اسمك؟

أخفضت تولين نظرها عنه نظرت أرضا كما علمتها درة حين تتحدث لأحد ذو شان اعلي منها....

- تولين سيدي

- تولين... يا له من اسم غريب.... و جميل.....متى حللت بقصري يا تولين؟؟

قصري؟؟؟؟!!!!! قصري؟؟؟ أجراس إنذار قرعت برأسها وكلمة قصري تتردد بعقلها... رفعت عيونها بسرعة تنظر إليه بدهشة جعلت الابتسامة ترتسم على شفتيه بصورة رائعة.... نظرت إلي عينيه مباشرة وهي تقول

-أنت؟!!! هل أنت حقا الأمير؟؟؟؟ يا الهي انه يوم وفاتي بالتأكيد.....

اتسعت تلك البسمة لتصبح ضحكة لطيفة حينما سمع ما قالت و بتلك اللحظة خرجت عفيفة خاتون من جناح السلطانة مهديفران.... نظرت عفيفة خاتون إلى الطعام المتناثر أرضا و إلى تولين بوجهها الشاحب... ثم انحنت

باحترام إلى الأمير و نظرت أرضا وبصوت منخفض اعتذرت قائلة

-اعتذر سموك عما حدث فهذه الفتاه لم تتعلم بعد أصول القصر و أعدك أن تنال عقابها دون نقصان و....

قاطعها الأمير مصطفى بإشارة من يديه ونظر مجددا إلى تولين المرتبكة و قال بلغة عثمانية

- لا باس عفيفة خاتون.... فقط احضري غداء أخر لوالدتي و.... اجعلي هذه الفتاه تأتي إلى جناحي عند غروب الشمس....

انحنت عفيفة خاتون بإطاعة تامة لأمره... في حين ظلت تولين على وقفتها ناظره أرضا فقامت عفيفة خاتون بجذبها كي تنحني مثلها....

مر الأمير من جانب تولين بهدوء.... وما أن مر حتى رفعت رأسها تنظر إلى ظهره المستقيم ومنكبيه العريضين... جسده المتناسق المغلف بأغلى وأجمل الأقمشة ... نظرت إلى عباءته

الواسعة بنقوشها الجميلة ترفرف خلف خطواته الواثقة المتعالية المتناسقة.... رأت مثلها من قبل في صورة لتمثال يمثله بذلك المتحف...

تنهدت وهى تتأمله في حين نظرت لها عفيفة خاتون بلؤم قائلة

- هل فعلت هذا عن عمد لتلفتي انتباهه ؟ كم أنت خبيثة وكنا نحسبك مسكينة....

قطبت تولين حاجبيها بعدم فهم فأشارت عفيفة خاتون بقلة حيلة انه لا فائدة منها و أشارت إليها لإتباعها....

وقفت تولين بجانب درة بغرفة خاصة أمام عفيفة خاتون ومرجان أغا.... كانت ترتكز عفيفة خاتون على عصاها الضخم و ترفع حاجبا واحدا بترفع وهي تقول إلى درة

-لقد تم الأمر بأن تذهب صديقتك تلك إلى جناح الأمير الليلة....

رفرفت أهداب درة بشدة وقد شحب وجهها لتنظر إلى تولين المتوترة بشدة هي الأخرى مخافة أن ينالها عقاب ما الآن... ازدردت درة لعابها وهي تقول

-أمره مطاع يا خاتون لكن... لماذا أنا هنا؟

-لأنك الوحيدة المقربة منها ومن تفهميها لذا... قولي لها أنها يجب أن تبدأ بالاستعداد لمقابلة الأمير....

نظرت درة بتوتر إلى تولين وهي تترجم لها رغبة الأمير بتواجدها معه في جناحه عند الغروب في حين التفتت درة خاتون لتخرج تاركة خلفها عاصفة من التوتر...

الفصل الثانى عشر

التفت مرجان أغا إلى الفتاتين ينظر لتولين بابتسامة سعيدة بعد أن أمرته عفيفة خاتون كي يقوم بكل التحضيرات اللازمة لذهابها إلى جناح الأمير مصطفى بينما كان كلتاهما تدوران في دوامات من الخوف والتوجس.... التفتت درة إلى تولين ثم أمسكت ذراعها بشدة وسحبتها إلى مكان حيث لا يسمعهم احد فمن المعروف أن بكل مكان بالقصر أذان.....

احتجزت درة تولين بأحد الأركان وهى تنظر لها بخوف وتسألها بصوت منفعل مرتعش....

-أنت ماذا فعلت بحق السماء؟! بأي مصيبة أقحمت نفسك أيتها الحمقاء؟

ارتعدت أوصال تولين وهى ترى الرعب بعيني درة دمعت عيناها خوفا وهي تشرح ما حدث معها بصوت مهزوز....

- أنا لم افعل شيء يا درة اقسم لك كل شيء حدث مصادفة قلت لك من البداية ألا اذهب مخافة أن يراني احد ما لا اعرفه ويحاول التحدث معي وأنت تعلمين ما أمر به من عدم فهم اللغة وعدم فهم القوانين.... أخذت الطعام كما أخبرتني وذهبت لجناح السلطانة لكنى خفت... وقفت التقط أنفاسي لكن ادركنى الأمير ما أن تحدث حتى وقع كل شيء بيدي أرضا... حاولت الاعتذار عما فعلت و اكتشفت انه يفهم العربية أيضا مثلى

- بالطبع يفهمها يا حمقاء لكن لم تحدثت معه الم اقل لك حين ترين احد من السلالة فقط انحنى واصمتي تماما

-لكني.... لكنى لم اعلم انه من السلالة ظننته أغا بالحرم

جحظت عيني درة وصكت وجهها وهي تصرخ مستغيثة بالله من أفعال تولين...

-يا الهي.... يا الهي هل لقبته بالأغا؟ أرجوك لا تقولي انك حدثته بهذا اللقب

لكن صمت تولين لم يكن مبشر مطلقا فما كان من درة إلا أنها شدت خصلات شعرها حتى كادت أن تستأصلهم من جذورهم غيظا

- يا لك من حمقاء يا الهي كيف تشبهين الأمير بالأغوات ماذا فعلت أيضا يا بلائي اطربي أذناي....

- أرجوك درة لا تكوني هكذا يكفيني بلائي...

زفرت درة بشدة تحاول جلب الهدوء إلى جسدها وروحها وهي تقول بهمس...

- أولا سكبت طعام السلطانة ثانيا تحدثت بطريقة غير لبقة مع الأمير بل تحدثت معه دون أذن وهذا لا يغتفر مما لفت انتباهه لك والآن بالطبع عفيفة خاتون تعتقد انك لعوب وتعمدت ذلك يالك من حمقاء تولين

تنهدت درة وهى ترى دموع تولين بدأت بالانهمار على وجنتيها....

-أرجوك فلتكفي عن البكاء الآن وفكري ما هي خطوتك القادمة اليوم يجب حضورك بالموعد بجناح الأمير

كففت تولين دموعها و هي تسألها بصوت باك

-لماذا يريدني؟ ولماذا أنت بهذا الخوف؟ سأذهب وألبي طلبه الذي يأمره مثلما افعل مع مرجان أغا أو عفيفة خاتون أو أيا كان بهذا القصر سأتحمل عقابي...

ظلت درة تحملق بها وكأنها كائن من كوكب أخر لو كانت تولين بموقف أخر لكانت ضحكت من قلبها على مظهر درة المحملق بها....

ضاقت حدقتي درة وهي تسألها بهدوء

- هل أنت حقا بهذا الغباء أم انك تفتعلي ذلك..... لا اعلم ماذا تعلمين عن الخلوة لكن هي أشبه بليلة الزفاف لو تعلمين

هل سكب للتو دلو ماء مثلج فوق رأس تولين؟
خلوة!!!! مع الأمير؟
شهقت تولين بشدة وهى تصرخ بوجه درة بان هذا لا يجوز في حين كانت درة تقف بثبات تراقبها بصمت بعد أن حمدت الله أنها فطنت أخيرا لما يحدث حولها....
أمسكت درة ذراعي تولين المصدومة تحاول تهدئتها.... نظرت درة إلى مرجان أغا القادم باتجاههم ف تنهدت ثم ربت على كتفي تولين وهي تقول
- فقط اهدئي.... يجب الآن البدء في التحضيرات ولا تشعري احد بأي شيء و سنجد حلا لا تقلقي....
أومأت تولين موافقة و هي تغمض عينيها ترجو من الله أن يتم سترها.....

و بزمن أخر كانت عايدة تقف بمسجد أماسيا تغمض عينيها ترجو من الله أن يفلح ما تفعله هي وزوجها محمد مع الشيخ إبراهيم بولغور....

لقد صرفت كل مدخراتها هي وزوجها بل و قامت ببيع كل ما تملك من الذهب للبقاء لفترة أطول بالبلاد ..... وها هي وزوجها منذ عدة أشهر ببيت ذلك العجوز بيت ليس بالقديم المتهالك وليس بالجديد المعاصر..... يجمع ما بين الحاضر والماضي.....

خرجت عايدة من المسجد لترى زوجها يقف بعيدا بجانب الشيخ إبراهيم ويمسكان ورقة كبيرة تشبه الخرائط.. ووجهيهما يشعان بالسعادة....

اقتربت أكثر فأكثر منهما لاستبيان سر تلك البهجة.... وضعت كفها الرقيق فوق كتف محمد و سألته بابتسامة مشرقة و بنبرتها الحنون

- ما الأمر عزيزي؟
التفت محمد بسرعة و قام باحتضانها بسعادة وهو يقول....
- سنجدها أخيرا يا عايدة.... سيكتمل البدر بعد عدة ليال وهنالك سحب ممطرة تتحرك باتجاه اسطنبول لقد تأكد الشيخ إبراهيم من أن بوابه ستفتح بعد بضعة أيام بالقرب من قصر طوب كابي.
اختفت ابتسامتها تدريجيا لتحل المرارة محل البسمة.... عبس محمد قليلا وهو ينظر إلى الشيخ باستغراب
- ما الأمر يا عايدة؟
- الأمر أننا بأماسيا والبوابة ستكون باسطنبول يا محمد ليست بأماسيا لقد فقدناها هنا و ليس هناك إن الوضع يزداد سوءا... كما انه نحن غير واثقين من تلك النظرية بعد....
صمت محمد قليلا يفكر بوجهة نظر زوجته ليقول بعد برهة من الزمن

- إذا لا حل أخر سوى أن يذهب احدنا داخل تلك البوابة ليكتشف الأمر....

صدمت عايدة مما يتفوه به زوجها لتصرخ به قائلة

- عن أي ذهاب تتحدث أنت لا يمكن ذلك بالطبع إننا لا نعلم بأي زمن ستأخذنا تلك البوابة هل بالماضي أم بالمستقبل ولا نعلم بأي زمن تكون تولين الآن ولا نعلم إذا كانت تلك البوابة تؤدى لأي مكان هذا بالطبع إذا كان كل ذلك حقيقيا وليس محض تخاريف رجل.....

بترت عايدة كلامها حين رأت نظرات الرجل المنكسرة.... نفخت بغضب من نفسها مهما كان الظلام يحوطهم من كل اتجاه لا يجب أن تهين هذا الشيخ الكبير الذي يعتني بهم منذ شهور...

رأته يبتسم بتهكم ومرارة استغفرت ربها وأبعدت يدي محمد عنها وبهدوء اقتربت من الشيخ إبراهيم وهى ناكصة الرأس....

-اعتذر سيدي عما قلت لكنك تعلم أنى محقة نحن لا نعلم إذا ما كانت تلك البوابات فقط تؤدى إلى الماضي أو المستقبل أو الاثنان حتى إذا علمنا لأي مكان تؤدى تلك البوابات فلا نعلم بأي سنة تتواجد تولين.....

أومأ الشيخ موافقا وربت على كتفها وبصوته الكهل قال

-معك كل الحق بنيتي لكننا لا نفقد الأمل مهما حدث ولا يمكن أن نلقى بأيدينا إلى التهلكة .....

نظر الرجل إلى محمد وهو يضع يده على كتفه قائلا

- هيا بنا لقد قمت بشراء بعض البرك الساخنة لا تفوتكم هيا لنعود إلى المنزل نتناولها مع كؤوس الشاي اللذيذة التي تعدها زوجتك.....

تنهد محمد وأومأ موافقا وهو يضع ذراعه على كتف زوجته يضمها إليه و يسيرا معا إلى منزل الشيخ إبراهيم....

و بعد بضة ساعات كان كلا من محمد والشيخ يجلسان على الطاولة المستديرة بمنزل الشيخ المزين بكل ما هو عريق... من اللوح الفنية الثمينة إلى الأواني الفضية ذات الطراز العثماني القديم...
قامت عايدة بإعداد كؤوس الشاي وجلست بجوارهم تتطلع إلى الأواني الفضية والكؤوس الزجاجية المزخرفة من أطرافها بالفضة وبعض الأحجار اللامعة ..... دققت عايدة النظر في الكوب وسالت الشيخ باهتمام

- هل تلك أحجار كريمة يا شيخ إبراهيم؟
ابتسم الشيخ بوهن و قال
- اجل إنها كؤوس من عصر السلطان مراد الثاني
ارتفع حاجبي عايدة ومحمد بآن واحد وهما يتطلعان بانبهار إلى الكؤوس بينما يسأله محمد وهو يحدق بكأسه بين يديه
- هل حقا تقوم باستخدامها يوميا؟!!! يا الهي إن كنت بمصر أو متزوج من مصرية لكانت وضعتهم بخزانة الفضيات ووضعت حارسين أمامهم و كتبت لوحة تفيد ممنوع الاقتراب أو التصوير

ضحك العجوز بشدة حتى دمعت عيناه و اخذ يسعل بشدة في حين نظرت عايدة إلى زوجها بحنق وهي تقول
- ماذا كنت تقول يا عزيزي؟!

رفع محمد عينيه إلى زوجته وقد انتبه لفداحة خطأه... رفع يديه علامة على الاستسلام قائلا

-لا شيء عزيزتي فهذا يدل على أنكن محافظات على التراث ليس كهذا الرجل الذي لا يقدر قيمة الشيء بمنزله لا لا لا لا اقصد إلا الخير عزيزتي

مر بعض الوقت في ضحك ولهو بين محمد وعايدة واستمتاع الشيخ بشجارهم الودي اللطيف و مع أخر رشفة من الشاي وضع الرجل كأسه وهو يقول

-لقد أهملت الجانب التي تحدثت به عايدة..... لا اعلم تلك البوابات إلى أين تؤدى حين تظهر... لذا إن حدث و وجدت تلك البوابات و لم يخرج منها ما يفيدنا على العثور على تولين وعلى بيتي.... حينها سأذهب أنا بداخل البوابة....

سعل محمد بشدة وبرقت عينا عايدة في خوف وهي تنظر إلى محمد الذي ما أن قام بفتح شفتيه للاعتراض حتى قاطعه الشيخ قائلا

- لقد قررت هذا يا محمد.... لا يوجد لي شيء هنا... أنا أعيش وحيدا بين أطلال الماضي والأثريات كما ترون.... لن اخسر شيء إذا ذهبت إما أن اعثر على وطني و عائلتي...أو اذهب إلى المجهول مجددا.....

- لكن سيدي هناك احتماليه كبيرة بالخطر كما تعلم أنت بسن كبير و.... و.....

ابتسم الشيخ و أكمل جملة محمد قائلا

-يمكن أن ألقى حتفي؟ و هل ما أعيشه طوال عمري هذا تدعى حياه؟ بلا أهل.... بلا أصدقاء.... اعتبر فاقد الأهلية بين الناس.....

تنهد و توجه إلى نافذة بيته ينظر إلى ذلك المنظر البديع أمامه حيث اختلطت الجبال مع الغابات وقد تسلسل بينهم نهر يشيل ارماق ويكتمل السحر بتلك الإضاءة الخافتة بفعل

أشعة الغروب بينما تحلق طيور النورس بجانب ضفاف النهر... و بتلك الطبيعة المبهرة وقف يفكر كيف دارت حياته طوال تلك السنين مابين الملاجئ و بيوت بعض الأسر التي تتبنى الأطفال ودراسة علوم الفيزياء والفلك وقراءة الكتب والمراجع الخاصة بالسفر عبر الزمن.... في حين كان كلا من محمد وعايدة يجلسان بصمت يتأملانه..... أغمضت عايدة عينيها تدعو الله أن ينير بصيرتهم لما هو خير.....

و بزمن أخر كانت تولين تقف ثابتة مغمضة العينين تناجي ربها حين انتشلها صوت درة مجددا تحثها على التحرك للبدء في التجهيزات.....

أما بمكان أخر بالقصر حيث الترف و النعيم كانت تجلس السلطانة مهديفران بجناحها تنظر إلى بعض الرسائل المرسلة من العاصمة....

تنهدت بضيق لما تؤول إليه الأمور بقصر طوب كابي بالعاصمة.... هيمنة السلطانة هرم تزداد يوما بعد يوم وخوفها من أن تمس مصطفى بشر يزداد يوما بعد يوم....

دخلت عفيفة خاتون إلى جناح السلطانة و هي تنحني احتراما و استئذانا منها بالدخول.... أومأت السلطانة مهديفران لها و أمرتها بالاقتراب لتقول عفيفة خاتون بصوت منخفض مهذب

-سلطانة يجب عليك النظر بميزانية الحرم لهذا الشهر هناك بعض الأمور يجب عليك رؤيتها

تنهدت السلطانة و هي تومئ موافقة وبصوتها العذب قالت

- حسنا عفيفة خاتون فلننظر لها لكن هناك أمر أريده منك

- أمرك مولاتي

- أريد منك اختيار فتاه مناسبة لأجل أميري مصطفى.... اشعر انه بحزن منذ وفاة ابنه.... كما أن السلطانة هرم لا تنفك تحدث المصائب والفتن فلا يستطيع الفكاك من كل تلك الضغوطات لذا أريد من ترفه عنه قليلا و تجلب له طفلا أخر....

زاغ بصر عفيفة خاتون قليلا و ابتسمت في حين نظرت السلطانة مجددا إلى رسائل العاصمة لكنها رفعت رأسها حينما سمعت عفيفة خاتون تقول

-لقد أمرنا الأمير اليوم أن نحضر له جارية معينة سلطانة

انتصبت بجلستها ونظرت بتدقيق إلى عفيفة خاتون وسالت بصوت صلب

- من هي؟ وما معلوماتك عنها؟

- اسمها تولين عربية الأصل مولاتي لا تتقن العثمانية لكنها تتعلم جاءت إلى القصر مؤخرا لا يسمع لها صوت غالبا

شردت السلطانة بعيدا وهى تتذكر كم الفتيات اللواتي أرسلتهن هرم للتجسس عليها هي والأمير.... وقالت

-لا يخاف غير من أولائك الصامتات يا عفيفة.... ابقي متيقظة تماما لتلك الفتاه و قومي بتجهيزها على أكمل وجه....

انحنت عفيفة خاتون ملبية لأمر سيدتها و خرجت في طريقها لمعرفة كل صغيرة وكبيرة عن تولين.....

وبجناح أخر كان يقف الأمير مصطفى بشرفته يراقب جزء من حديقته الواسعة وقد لفت انتباهه طائر شارد بحديقته يبدو عليه الذعر والتردد..... ابتسم حين ظهرت بذاكرته

صورتها وهى مذعورة يديها المرتعشتان وهى ترجوه ألا يقتلها لمجرد سكب بعض الطعام..... عيونها الزائغة وطريقة نطقها للعربية..... اتسعت ابتسامته حتى أصبحت ضحكة خافته حين تذكر اعتقادها بأنه أغا.... تنهد وهي يلقي نظره أخيرة على ذلك الطائر الضال و عاد مجددا إلى غرفته.....

في حين كانت تولين تجلس بمكان الاستحمام و قد تعرت من كامل ملابسها والتف جسدها البض في منشفة بيضاء تخفي القليل من مفاتنها... ارتدت بقدميها الصغيرتين ذلك الخف الخشبي و جلست على قطعة رخامية والبخار يتطاير من كل مكان حولها....
بينما بدأت درة في مساعدتها بالاستحمام و كانت تولين في أقصى درجات الحرج حين تمتمت لها قائلة

- لا باس درة دعيني استحم وحدي

- اصمتي تولين فقط استمتعي بما يمنح لك الآن فلا يعلم القادم غير الله كما انه لا يجوز في تحضير الخليلات أن يقمن بالتحضيرات وحدهن و الآن دعيني أكمل مهامي....

بدأت درة في غسل شعر تولين ومن ثم جسدها... ابتسمت تولين حين تذكرت استحمامها ببيت علي على استحياء.... ها هي الآن تستحم بكل راحة وبمساعدة احد أخر.... نظرت إلى المياه هي ينساب على بشرتها بهدوء...طرق ببالها مظهر ظهرها فسالت درة

- درة هل لازالت علامات الجلد بظهري؟

- القليل منها لا تقلقي ستزول فقط داومي على وضع ذلك الدواء....

أومأت تولين موافقة وتنهدت وسلمت أمرها إلى درة.... عاشت حلم خيالي جميل متناسية نهايته المرة... قامت درة بوضع زيوت عطرية

غاية بالجمال كان لها مفعول السحر بجسد تولين....

و بعد مدة... وقفت تولين بمنتصف غرفة تحضير المفضلات وحولها وقفت وهي درة وبعض الفتيات الأخريات يقمن بإلباسها ثوب اقل ما يقال عنه انه ساحر بلونه الأبيض من الحرير الخالص.... ذو فتحة عنق واسعة تظهر أكثر ما تستر يبرز جمال بشرة كتفيها من خلف ذلك وشاح حريري مثبت عند الكتفين ليستر القليل... يلتف الرداء حول خصرها بإحكام ليسدل بعدها بهدوء ونعومة على قدها الرشيق....

كانت درة تقوم بإحكام أربطة الثوب في حين كانت فتاه أخرى تقوم بوضع بعض الزينة على وجهها و بعض من العطور على عنقها....

و كانت أخرى تقوم بتثبيت بعض المصوغات الذهبية المطعمة باللآلئ على جسدها

بينما هنالك ثالثة تقوم بتصفيف شعرها بجودة عالية.... في حين كانت عفيفة خاتون تقف بالقرب من الباب تقييم الوضع جيدا من بعيد....

و بعد قليل من الوقت تم تجهيز كل شيء و كان دور مرجان أغا في تدريبها.... دار مرجان أغا حولها يدقق النظر بشكلها العام حينها تمتم بأذنها قائلا

-ما شاء الله لا قوة إلا بالله مثل السلطانات وليس بالأمر الصعب لفتاه جميلة مثلك أن تكون سلطانة

نظرت له تولين بعدم فهم قليلا حينها تدخلت عفيفة خاتون وهى تتنحنح كي ينتهي مرجان أغا عن رسم أحلام صعبة المنال للجوار....

-مرجان أغا هلا تركت هذا الهراء وبدأت بتلقينها دروس مقابلة الأمراء

ابتسم مرجان أغا ابتسامة عريضة و بدأ بتعليم تولين و درة تترجم كيف تدخل إلى جناح الأمير

و من ثم تنحني أمامه لتمسك بطرف عباءته مقبله إياه في انتظار أمر الأمير...

بحياتها لم تكن تتخيل أن إغلاق باب واحد على اثنين أمر بذلك الصعوبة إنها تشعر بقلبها يهبط لقدميها كلما اقترب الأمر.....
نظرت إلى درة بخوف جلي لتقابلها الأخرى بنظرات جامدة تماما وهي تقترب منها ثم قامت بإعادة ترتيب ثوبها على جسدها و بحركة خاطفة وضعت قنينة صغيرة للغاية زجاجية عند فتحة صدرها و همست لها قائلة
-قومي بشرب تلك القتينة قبل أن يقترب منك....

رفرفت أهداب تولين خوفا مما هي مقدمه عليه.... هل أعطتها درة سما؟! هل ستكون تلك نهايتها حقا؟

الفصل الثالث عشر

كتمت تولين أنفاسها وأغلقت قلبها على أسئلتها التي تكاد تفتك بها إلى أن يأتي الوقت لتنفرد بدرة لشرح كل التساؤلات بعقلها.....

مر الوقت بين تزين جسدها وتعليمات مرجان أغا لها إلى أن جلست بحجرة المفضلات بانتظار أن يحين وقت اللقاء.....

و بأناملها الدقيقة المرتعشة تتحسس بخوف تلك القنينة بين يديها حينها دخلت درة إلى الغرفة وهى تلفت يمينا ويسارا تنظر إذا ما كان رآها احد ما.....

انتفضت تولين و وتيرة تنفسها في ازدياد....

-ما هذا بحق الله يا درة؟ أنا لا أفهمك حقا ولا اصدق ما يحدث لي... أريد الإفصاح عن كل شيء الآن

تنهدت درة وهي تضع يديها على كتفي تولين لتجلس مجددا ثم قالت

-فقط اجلسي واستمعي لي.... أولا أنت قلت خارج هذا القصر انك مسلمة وتلك ليست بالمشكلة يوجد مسلمات كثر هنا لكنك قلت انك حرة.... هل يوجد صك عبودية لك؟

رفرفت أهداب تولين في عدم فهم فزفت درة وقالت

- حسنا هل يوجد لك أهل على قيد الحياة؟ هل تم بيعك من قبلهم؟
- بالطبع لا أنا حرة واجل يوجد عائلة لي فقط هذا الهمجي الذي اختطفني رايته يأخذ نقود هل يعني ذلك انه تم بيعي؟

- اعتقد انه تم بيعك بطريقة ما لكن لا يجوز لأنك مسلمة لم يتم بيعك من قبل من بيده أمرك لذا فأنت حرة... والآن لا يوجد لك صك ومسلمة وإذا علم الأغوات بهذا فسيكون مصيرك بخارج القصر أو الإعدام إذا ما تم الشك بأمرك... وإذا تم الإلقاء بك خارجا هنالك شخص يتربص بك لا اعلم على ذيل قد خطوت لكنك آذيت احدهم وبشدة تولين

- اقسم أنى لم أقترب بنية الأذى لأحدهم لا اعلم لم يحدث هذا معي حتى الآن.... حسنا ألا يكون من الأفضل إخبار مرجان أغا اعتقد انه سيتفهم أليس كذلك؟

-حقا؟! هيا اخبريهم ليظنوا انك جاسوسة أيضا ليكتمل الوضع فلا دافع لدخولك الحرم وقبولك بهذا الوضع المهين وأنت امرأة

مسلمة حرة غير ذلك وألحقيني معك
بمصيبتك تلك لنموت معا هيا اذهبي هيا....

فرت دمعة من عيني تولين وهى تقول بوهن
-وماذا الآن؟! ماذا افعل.... هل اشرب السم و
انتحر لأخسر آخرتي أيضا؟!
قطبت درة وجهها وهى تقول
-عن أي سم تتحدثين؟
نظرت تولين لها باستغراب وهى تظهر القنينة
و تشير إليها.... ابتسمت درة قائلة
-لا تقلقي فانا لن أقود نفسي إلى التهلكة انه
مجرد دواء يا حمقاء... يستخدم لإيقاف
الآلام الشديدة لكنه يسبب النعاس الشديد لذا
فستنامين مثل الملاك وسيظن الأمير انك
مريضة هذا كل شيء....

نظرت تولين لها باستغراب وهمهمت قائلة

- يا الهي هل تم اختراع المخدر بعهدكم؟ لم أكن اعلم ذلك

- ماذا قلت؟

- لا لم اقل شيء لا تكترثي

وبتلك اللحظة دخل مرجان أغا إلى الحجرة ليفاجأ بدرة تجلس جوار تولين...

-أنت.... ماذا تفعلين هنا بحق الله؟

انحنت درة أمام مرجان أغا بوقار واحترام وقالت بهدوء مزيف

-احترامي لك مرجان أغا فقط كنت أجالس تولين لأنها بغرض تهدئتها وأظنها جاهزة الآن...

نظرت درة إلى تولين نظرة تشجيع بينما يقرع قلبهما كطبول الحرب....

خرجت درة بهدوء في حين انتظرت تولين عدة ثوان وذهبت في طريقها إلى جناح الأمير....

تمشي بخطوات بطيئة حتى أن مرجان أغا بدأ يشعر بالملل والضيق منها التفت لها قائلا

- هيا يا فتاه أنت بطيئة للغاية والأمير لا يحب أن يخلف احدهم موعده.....

نظر مرجان أغا إليها ليجد الرعب يرتسم بوضوح على وجهها البريء... تنهد وطلب الصبر من الله ثم تراجع عدة خطوات ليقف بجانبها وهو يربت على كتفها بحنان بينما بيده الأخرى يدفعها إلى الأمام بهدوء....

وقفت تولين أمام باب جناح الأمير تنتظر الأمر بالدخول.... وجاء الأمر بالفعل....

خطت تولين أولى خطواتها إلى داخل جناح الأمير.... رائحة البخور الطيبة تغلغلت إلى قلبها لتهدئ قليلا من نبضه الهائج وهي تنتظر قدرها....

كان الأمير يقف يتأمل اختفاء ذلك القرص الدامي بين السحب من خلال شرفته الكبيرة الواسعة يداعب وجهه نسمات هادئة.... ظلت تولين تتأمله... تمرر عينيها على طوله و فخامة ملابسه....

تشعر أنها بإحدى المسلسلات التركية... التفتت برأسها وهي ابتسمت بإعجاب شديد لما تراه حولها من زخارف وأدوات فضية وذهبية.... شعر بوجودها خلفه فالتفت لها ينظر إلى جمالها الفاتن مزيج بين جمال الشرق والغرب تنظر حولها بسعادة طفولية ونظرات بريئة لامعه بينما ترتدي ثوب لا يمت للبراءة بصلة فكانت مزيج رائع بين الطفولة والأنوثة.... شعرت تولين بنظرات موجهه إليها نظرت له مجددا لتجده ينظر إليها بابتسامه غريبة لم تفهم مقصدها وحاجب مرفوع قليلا بتهكم.... ظلت فاغرة ألفاه قليلا ثم ما لبثت أن تذكرت تعليمات مرجان أغا فانخفضت نظرها فورا...

انحنت له و تقدمت منه خطوات بسيطة بخوف حتى بلغت مكانه لتجثو أرضا وهي تمسك عباءته لتقبلها ثم أغمضت عينيها بانتظار أوامره....
ظلت جاثية حتى شعرت بأنامله تلمس وجهها في أمر صامت لها بالنهوض....
نظر لها متأملا وجهها الأبيض و عيونها اللامعة بلون العسل المشوب بالخضرة الرقيقة..... شعرها الأشقر الناعم تختلط موجاته ببعض لتربك من يتمعن به.... بينما أنامله تتلمس بشرتها الرقيقة الناعمة....
وبلغه عربية و بصوت رخيم قال
-لم أر جمال عربي من قبل فقط سمعت به من قبل الشعراء لكن اعتقد أنهم لم يبالغوا...

رفرفت أهداب تولين في حرج بينما توردت وجنتيها.... هل تغزل بها أمير للتو... انه هو

الأمير مصطفى أكثر من شابه سليمان القانوني من أولاده....
هبطت أنامله بهدوء وسهوله إلى عنقها الناعم لتسري الكهرباء بطول عمودها الفقري فتبتعد بسرعة خطوات إلى الخلف....

قطب الأمير مصطفى باستغراب وهو ينظر لها ببعض من ألتعال وهو يشبك يديه خلف ظهره.... في حين ابتلعت تولين ريقها بصعوبة بالغه وهى تقول....
-سمو الأمير أريد شرح لك شيء مهم هلا أعطيتني من وقتك القليل وبعدها اقبل بحكمك...
طال تحديقه بها من اعلي رأسها إلى أخمص قدميها.... و لسبب مجهول شعر انه يود الاستماع لها... بالرغم من وقاحتها معه يريد الاستماع لما ستقول....

التفت عنها وذهب بعيدا عنها ثم جلس على مقعده الكبير المزخرف بالذهب الثمين وقال
- حسنا استمع إليك

تنهدت تولين وأغمضت عينيها تسال الله أن يساعدها فيما هي مقدمه عليه...

أما بجناح أخر كانت السلطانة مهديفران تجلس على مقعدها الفخم تنظر بغضب إلى عفيفة خاتون وهي تقول بصوت عال
-كيف هذا عفيفة ؟ هل تلك تكية أم قصر الأمير؟ كيف تم السماح بدخول فتاه لا صك عبودية لها؟ حتى أنكم لا تعلمون أي شيء عنها غير أنها عربية الأصل؟
يا الهي بالتأكيد تلك مكيدة أخرى من هرم....

تقدمت عفيفة خاتون من السلطانة وهى تجثو أرضا أمامها قائلة

-أرجوك سلطانتي اقبل عقابي بأي شكل تريدي فهذا التقصير أنا أول من يعاقب عليه لكن أرجوك سلطانة الحكيمة شددت على انه يجب أن تهدئي

وضعت السلطانة مهديفران يدها فوق معدتها المتألمة وهي تقول

-كيف لي الهدوء يا عفيفة و لا احد يحاول الالتزام بالقواعد هنا.... اجلبوها لي الآن
زاغت عيني عفيفة خاتون في خوف و قالت بتوتر
-إنها الآن بجناح الأمير مولاتي
انتفضت السلطانة مهديفران من مقامها خوفا وهى تصيح وتلعن بعفيفة خاتون......

في حين كانت تولين تقف بجناح الأمير تفرك يديها خوفا وبصوت وهن قالت

- سمو الأمير.... أنا....

نظرت له لترى عيونه اللامعة تنظر لها بتمعن دون أن يحيد عن عيونها.... أخذت تولين نفسا طويلا وقالت بسرعة شديدة كي لا تنهار جسارتها

- أنا امرأة مسلمة حرة....

حبست تولين أنفاسها وأغمضت عيونها بشدة وكأنها بذلك تحمي نفسها من لطمات الواقع المرير....

في حين رفرفت أهداب الأمير لوهلة قبل أن يجمد وجهه تماما فيضاهي الحجر في قوته وثباته وصلابته....

ظل ينظر لها بنظرات تخترق عظامها.... طال تحديقه بها قليلا ثم اقترب منها في حين أنها ما أن شعرت به يقترب منها حتى بدأ جسدها بالارتعاش خوفا....

نطق بهدوء وبصوت يغالبه الغضب أكثر من الصدمة

-كيف؟!

فتحت عينيها تنظر لصدره المقابل تماما لوجهها لا يفصل بينهما سوى بضع سنتيمترات.... رفعت بصرها ببطء إلى وجهه لتتقابل مع نظرات عيونه الثلجية.... تهدجت أنفاسها وارتعدت أوصالها حتى كادت أن تقع أرضا فشعرت بيديه تقبضان على ذراعيها بشدة ....

لا تعلم هل كان يمسكها مساندة منه لها أم لتعنيفها لكنها حقا شاكره له انه لم يتركها .....

ابتلعت ريقها بصعوبة تامة تحاول استجماع قواها.... أخذت نفسا عميقا وهى تغمض عينيها وتفتحهم مجددا ناظرة إلى عيونه وهى تقول

- لقد تم اختطافي و .... وجلبت إلى هنا
رفع الأمير مصطفى احد حاجبيه.... يشعر أن جزء كبير من الأحجية مختف.... وتشعر انه لم يكتفي بما قالت...

تتحنحت تولين وانخفضت رأسها تنظر أرضا وهي تفكر انه لا يمكنها قول الحقيقة بأكملها ستكون مجنونة بنظره.... ولا يمكنها قول أنها عاشت ببيت رجل غريب سيظن أنها جارية حقا.... تنهدت وقالت

-كنت برحلة إلى المركز السلطنة العثمانية و أضعت صحبتي.... اقصد أخي الكبير....
تراجع الأمير خطوة إلى الخلف يضم يديه خلف ظهره ناظرا إليها بعينين ثابتتين لا تتحرك حدقتيه كما لو كان انه صنم ما....

تشعر بنظراته تخترق عقلها فيعرف إذا ما كانت تكذب أم لا لذا فقررت أن تكون باقي قصتها اقرب ما يكون للواقع....

-وجدني رجل طيب القلب حينما كنت أهيم بالغابات ابحث عن أخي.... أخذني إلى بيته حيث مكثت هناك مع رئيسة منزله إلى أن أجد آخى أو يجعل الله لي مخرجا....

تراجع الأمير بضع خطوات بطيئة للخلف وجلس مجددا يسند يده إلى قدمه و قال بصوت رخيم

- وبعد؟

- وبعد تم اختطافي... ولا اعلم من قام باختطافي في بادئ الأمر حاولت أن أتمرد وحاولت الهروب لكن تم تعذيبي و إجباري لذا استسلمت لقدري لأني علمت أنى ما أن افتح فمي بحرف واحد عن أنى حرة قد يتم رفضي بالقصر ولم أكن لأتخلص من ذلك الخاطف...

قطب الأمير بشده وهو يسأل...

- وكيف سمح الأغوات بدخولك القصر هل كان لك صك عبودية؟ إذا كان لك فإذا أنت لست حرة

- لا لا لا يوجد صك عبودية

ضاقت حدقتي الأمير وهو ينظر لها بتدقيق قائلا

- واثقة؟

- اجل بالطبع....

وقف الأمير أمام شرفته مرة أخرى ينظر إلى نقطة وهمية أمامه يفكر في الأمر.... عقله يشك بكلامها ويؤكد له أنها مكيدة من السلطانة هرم مرة أخرى.... أما قلبه فلسبب ما يشعر بصدقها...

التفت لها وكاد أن يسألها عن شيء ما حتى هبت عاصفة قوية طاحت بالجميع حين دخلت السلطانة مهديفران بقوة دون استئذان إلى جناح الأمير.....

وقف الأمير بقوة ورباطة جأش قوية أمام والدته وتصرفها الأهوج الناتج عن خوفها....
وكانت السلطانة بالفعل في حالة يرثى لها مزيج من الغضب والشديد والخوف والقلق و الأم معدتها التي تكاد تفتك بها....
في حين كانت تولين تقف كورقة شجر صفراء في مهب ريح قوية تكاد تقع أرضا مفارقه للحياة من ذعرها...

نظرت السلطانة لها بغضب وبأمر صارم وصوت مرتعش يحمل في طياته الكثير والكثير قالت
-اخرجي

رفرفت أهداب تولين وبنظره خاطفه نظرت إلى الأمير مصطفى بوقفته الشامخة أمام والدته وبإيماءة بسيطة كانت أكثر من كافية لطمأنتها....
انحنت لكلا منهما على حدا وخطت عدة خطوات إلى الخلف ثم ولت مدبره تجر قدميها جرا.....

طرقات خفيفة على باب جناح الأمير ليفتح الحاجب الباب و تخرج تولين تاركة أمرها لله فقد فات أوان شرب الدواء حتى....
أما بداخل الجناح كانت السلطانة مهديفران تقف بمواجهة الأمير مصطفى تنظر إلى جسده تتأكد من عدم إصابته بشيء ما وبلهفة خطت نحوه بضع خطوات ووضعت يدها على كتفه قائلة
-أنت بخير يا مصطفى؟

ابتسم مصطفى لمرأى لهفة والدته عليه كان هو اغلي شيء بحياتها ويعتقد في بعض الأحيان انه اغلي من حياتها نفسها....
وضع كفيه على وجنتيها يثبت وجهها و يجعل عينيه بعينيها وقال بصوت رخيم....

- لا تقلقي والدتي أنا بخير تماما ماذا قد يصيبني وأنا بجناحي بقصري؟
- أنت لا تعلم شيء... لا تعلم من تلك الفتاه... إنها جاسوسة من قصر طوب كابي أنا واثقة

قطب الأمير مصطفى قليلا وتراجع خطوة ووضع يده خلف ظهره يضم كفيه بشدة حتى ابيضت يداه.....
ثم ما لبث أن أزال تقطيبه وقد ارتسمت بعينيه نظرة صماء صلبة لا معالم لها تماما كوالده فتشعر مهديفران حينها أنها أمام سلطان العالم سليمان خان....

ابتلعت ريقها ونحت السلطان عن خيالها ثم قالت

- أرجوك صدقني مصطفى إنها بالتأكيد جاسوسة لهرم أنا واثقة

- حسنا أمي فقط اهدئي....هل لديك معلومات مؤكدة

- اجل بالطبع أول شيء إنها ليست جارية حتى انه لا وجود لصك عبودية لها

- حسنا وماذا بعد؟

تراجعت مهديفران في عجب ونظرت لابنها وبابتسامه متهكمة قالت

-و ماذا بعد؟! وهل يوجد اكبر من هذا دليل على أنها ليست بجارية عاديه؟

صمت مصطفى قليلا و هو ينظر إلى القلق العاصف بعيني والدته ثم ما لبث أن قال وهو ينظر إلى نقطة وهمية على الحائط

-اجل أنا اعلم أنها ليست بجارية عادية

رفرفت أهداب السلطانة مهديفران ووضعت يدها على صدرها تحاول تهدئة أنفاسها وتهيئة نفسها لأسوء الاحتمالات....

- تعلم؟! تعلم أنها ليست بجارية عادية وسمحت لها بدخول جناحك برغم من أنها جاسوسة
- قلت لك يا والدتي إنها ليست بجارية عادية ولم اقل بأنها جاسوسة

ابتلعت مهديفران ريقها بصعوبة ونظرات الاستفهام تقطر من عينيها....

تنهد الأمير مصطفى وامسك كتفي السلطانة يبثها الهدوء والاطمئنان

- أنا اعلم كل شيء عنها والدتي لا تقلقي.... ف أنا من أمرت بإدخالها قصري بالرغم من أنها حرة.....

اتسعت عيني مهديفران بشدة و ذعر... لقد فعل مصطفى للتو خطأ أخر قد يزيد الهوة بينه وبين والده وهو احتجاز فتاه حرة بداخل جدران قصره.....

الفصل الرابع عشر

ابتعدت مهديفران عن مصطفى وهى تهتف به قائلة

- ما هذا الهراء الذي تتفوه به مصطفى؟ هل فقدت عقلك؟ يا الهي لو علم احد ما وخاصة هرم ستستغل هذا الموقف بشكل سيء كيف تفعل هذا مصطفى؟

- اهدئي يا أمي أرجوك لا يوجد شيء سيء سيحدث فكلما بقي الأمر سرا كلما بقى الأمر

امن فقط كل ما عليك فعله الهدوء وعدم التحدث بالأمر لأي من الأغوات والدتي وسيمر كل شيء

- ولماذا فقط لماذا؟

تنهد مصطفى وهو يغمض عينيه مفكرا بإجابة لسؤال والدته.... سؤال لا أجابه له سوى انه فقط يريد إبقائها عنده.... يرجح انه فضوله القاتل....

فتح عيونه ونظر لوالدته ثم قال بصوت به من الحنو ما يسعد روحها ومن الغموض ما يخيف قلبها...

- انه لسبب ما في نفسي يا أمي ستعلمين لاحقا....

ابتلعت مهديفران ريقها وقلبها الوجل يقرع كطبول الحرب بصدرها لا تعلم لم يفعل ذلك ولا تعلم إلى ما ستؤول الأمور؟؟؟

تنهدت مهديفران وهى تتلمس وجه مصطفى بحنو ونظرات القلق تطل من عينيها وقالت بصوتها المبحوح

-أرجو أن تكون على دراية بعواقب هذا الفعل وأرجو أن تسير الأمور على ما يرام يا مصطفى

ابتسم الأمير إليها وهو يرفع يده ليربت على كفها المستقر على وجهه.... في حين التفت السلطانة إلى باب الجناح وقرعت عليه ليفتح الحاجب مرة أخرى فتخرج السلطانة لتكون وجها لوجه مع تولين.....

نظرت السلطانة لها بارتياب وعلو من شعر رأسها إلى أخمص قدميها.... خطت السلطانة نحوها خطوتين في حين انحنت تولين أمامها كما فعل حاجب الباب و الأغوات خلفها.... همست السلطانة بأذن تولين قائلة....

-إذا حدث وكنت بلاء بطريقة ما على رأس ابني سأقتلك بلا رحمة....

ابتعدت عنها ثم ابتسمت لها قائلة بصوت عال
-أحسنى التصرف مع أميري و أسعديه كما ينبغي....
شعرت تولين بتقلصات بمعدتها وكأنها ستتقيأ من مجرد الفكرة أن تكون أداه تسلية لشخص ما..... حتى لو كان الأمير....
ذهبت السلطانة تاركة خلفها فتاه متخبطة مما سيحدث معها وألف سؤال وسؤال يدور بعقلها عما دار بين الأمير والسلطانة ....
فتح الحاجب الباب مرة أخرى لتدخل تولين وهي تجر قدميها.... انحنت بهدوء إلى الأمير وهى تشعر بخمول وخدر بجسدها بالكامل....
هي لم تأخذ الدواء لكنها بأية لحظة قد تفقد الوعي من شدة توترها....
وقف الأمير أمامها ينظر إلى رأسها المحنى وجسدها البض الرشيق.... و لسان حاله يجلده بشدة متسائلا... هل تلك الثقة التي وضعها بها بمحلها.... وثق بفتاه كل الدلائل تشير بأنها

ستؤذيه وبشده إلا انه لا يستطيع غير أن يصدقها لا لسبب معلوم....
تقدم نحوها عدة خطوات و نظر إليها مليا ثم قال
-وضعت ثقتي بك فلا تخذليها... أنت الآن بحمايتي....
شهقة صغيرة ندت عنها وهي ترفع رأسها تنظر مباشرة إلى عينيه اللامعتين... ظلت مدة لا باس بها تنظر له وأنفاسها محتبسه داخل صدرها....
التفت عنها وهو يخطو باتجاه شرفته مرة أخرى فتنفست الصعداء.... هل يعنى هذا أنها بأمان الآن؟ لكن لما تشعر بعكس ذلك من نظرات السلطانة
ظلت تدور بدوامات أفكارها إلى أن سمعت صوت الأمير ينتشلها بأمره القاطع
-فلتغادري الآن و لنا لقاء أخر قريب.....
التفت برأسه قليلا ودون أن ينظر لها قال

-فقط لتأخذي حذرك من كل شخص هنا بالقصر قومي بتجنب الجميع.... إلى حين لقائنا مجددا....

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تنظر له مباشرة و برأسها ألف سؤال.... التفت إلى شرفته مجددا لينتهي لقائهما....

انحنت له احتراما كما علمها مرجان أغا و بطرقات خفيفة على تلك البوابة المزخرفة قام حاجبها بفتحها لتخرج تولين وهي تلقي نظره أخيره على الأمير وهو يقف بشرفته وينظر لأثار ذلك القرص الدامي بالسماء....

أما عنه فكان ينظر إلى تدرج الألوان بالسماء وبعقله تدور كل أحداث اليوم وأسئلة لا حصر لها... ماذا لو كانت بالفعل جاسوسة لقصر طوب كابي؟ يشعر أن ورائها لغز كبير .... لكن لا يشعر أنها خائنة ماذا لو لم تكن خائنة....

لكن ماذا لو كانت بالفعل خائنة.... كلمتان كادتا أن تفتكا برأسه... ماذا لو.....
أغمض عينيه وهو يزفر بشدة ثم وضع يده ذلك السور الرخامي المحيط بشرفته... انطلق صوته بشدة لاستدعاء الأغا المسئول عن جناحه آمرا إياه لجلب صديقه المخلص الأمين جندي من جنود الانكشارية يحيى طاشليجه لي....
في حين كانت تولين تتخبط بين جدران حجرة المفضلات.... تنظر لها كل واحدة شذرا وكأنها عدوة لدود وكان هذا ما ينقصها.....
هبطت بجسدها بقلة حيلة وإرهاق شديد على ذلك الفراش الصغير المخصص لها وحدها..... مغمضة العينين تفكر بان كل يوم بذلك الزمن يزداد الوضع سوءا....
أما بمكان أخر حيث بيت آل اوغلو.... كان علي يجلس بمجلس الرجال على مقعده الوثير وهو ينظر لبقعة واحدة فقط.... تلك الشجرة حيث

اختفت تولين .... لا بل اختطفت من أمامها..... تزداد عينه شراسة بكل مرة يردد بها تلك الكلمة بعقله.... اختطفت....

وبهدوء تنحنح السيد عاكف قليلا لتهدأ تلك الجمرة المشتعلة بعقل علي اوغلو ليقف مسرعا ملتفتا إليه قائلا

-ما الجديد؟

زاغت عيني السيد عاكف قليلا فمنذ أن بدأ بمشاركة السيد علي اوغلو في البحث عن هوية خاطف السيدة تولين وهو دائم الخوف من أن يكون ما يظنه صحيح.... وها قد صح ظنه.... والآن يحتم عليه الاختيار بين صديقه وقلبه.....

طال صمته قليلا ليهتف به علي مجددا بنفس السؤال.... فما كان منه إلا أن ازدرت لعابه واخذ شهيقا كبيرا وقال

-لقد تم التعرف على ذلك الوغد الذي قام باختطافها

انبعث الأمل بقلبه لكن لم يكن الأمل وحده ما كان يسيطر على قلبه بل نار الانتقام كانت لها الحيز الأكبر....

- لا تقم بتجزئة الكلام يا عاكف فلا طاقة ولا صبر لدي الآن فقط قل من هو

- انه مجرد قاطع طريق.... تم استئجاره لتلك المهمة...

- أين هو الآن؟

كاد أن يتحرك السيد علي متجها إليه إلا أن السيد عاكف قام بقطع طريقه وهو يقول بعيون زائغة

-لا تقلق سيدي لقد قمت بكل ما هو لازم .... لقد... لقد اعترف من استأجره

توقف علي قليلا أمام صديقه ورفيق دربه عاكف.... نظر متمهلا إلى وجه الشاحب...

بضع قطرات من العرق تتلألأ على جبينه و عيونه زائغة.....

اخذ عاكف نفسا عميقا وقال

ـ لقد كان أغا من منزل آل بولغور سيد علي.... اعتقد أن... أن...

لم يكمل عاكف جملته حين وضع علي اوغلو يده على كتف صديقه ليصمت تماما ويغمض عينيه ألما مما آلت إليه الأمور....

لقد اختار الصداقة على حبه ..... كان يجب عليه من قبل أن يقتل ذلك الحب اللعين بقلبه وها قد حان الوقت لفعل ذلك.....

التفت علي مجددا لينظر لتلك الحديقة خارج بيته وهو يتوعد تلك التي تسببت بتعكير حياته يوما بعد يوم.... استأذن عاكف وخرج مسرعا هربا من غضبه وحنقه من ذاته ومن تلك التي سكنت قلبه تاركا خلفه بركان يستعد للإطاحة بكل الأخضر واليابس...

مرت أيام على الجميع ما بين قلق وتوتر وغضب وحنق وذعر.....

وبقصر الأمير جلست تولين بفراشها بحجرة المفضلات وهي تنظر لضوء القمر المتسلل من خلف الخشب المزخرف و قد شردت بعيدا حيث تلك الأيام الماضية ببيت علي اوغلو... تتساءل ما شعوره الآن؟ هل زال الحمل عن كاهله أخيرا؟ أم انه بطريقة ما يفتقد وجودها بجانبه؟ هل لازال يقرأ خواطر جلال الدين أم انه القي بذلك المجلد ترى هل القي بها هي أيضا خارج حياته؟

تنهدت بشده وهي تضم ساقيها إلى صدرها وقد سيطر عليها الحزن و الاشتياق لتلك الأيام القليلة....

شعرت بشيء بالقرب من الباب الصغير الخاص بحجرة المفضلات.. دققت النظر لتجد

درة تحاول الدخول خلسة إليها.... وقفت تولين وخطت بهدوء كي لا تشعر المفضلة الأخرى بحركتها...

فتحت الباب بهدوء وخرجت إلى درة التي ما أن رأت تولين حتى سألتها

-ماذا حدث؟ هل غلبك النعاس من الدواء؟

-لا لم آخذه

جحظت عيني درة وهي تسألها

-ماذا فعلت؟ هل تمت الخلوة؟

-بالطبع لا

ارتفعت نبره صوت تولين وهي تنفي الأمر لتضع درة يدها على فم تولين بسرعة وهي تهمس

-اخفضي صوتك يا حمقاء.... اخبريني ماذا حدث؟

تنهدت تولين وهي تنظر يمينا ويسارا تستبين هل من احد أخر يستمع أم لا؟ نظرت إلى درة

وبدأت بسرد كل ما مر بها منذ أن غادرت مع مرجان أغا إلى أن خرجت من حجره الأمير... ظلت درة تحملق بوجه تولين بنظرات مبهمة حتى أنهت تولين سرد أحداثها.... نظرت إلى عيني تولين وهي تسألها

- هل تعني أن السلطانة والأمير يعلمون انك حرة؟ مسلمة حرة؟

- الأمير يعلم لا اعلم إذا ما كانت السلطانة تعلم أم لا لم استطع الاستماع إلى حديثهم...

أومأت درة وهي تنظر أرضا بينما تسألها تولين بخوف

- أخاف حينما تتصرفين هكذا يا درة؟ ألا ترين أن الأمر سار على ما يرام؟

ابتسمت درة وهي تربت على كتفي تولين وتقول

- لا تكترثي فقط أفكر لا أكثر لم أكن أتوقع هذا التصرف من الأمير لذا اشعر بالتعجب لا غير... اجل لقد مر الأمر مرور الكرام....

اخلدي إلى فراشك الآن ولا تفكري كثيرا أنت بأمان كما قال لك الأمير...

ارتسمت ابتسامة مترددة على شفتي تولين وهي ترى درة تبتعد بعد أن ربتت على كتفيها تاركه إياها لذكرياتها وتساؤلاتها عن الماضي والحاضر والمستقبل....

انقضى الليل لتظهر أشعة الشمس الدافئة مجددا بينما تقفز تولين أسفلها بخطوات واسعة بقدميها العارية على تلك التربة الطينية ذو الحشائش الخضراء المتناثرة هنا وهناك وحولها ترتكز الأشجار العملاقة.. تمسك بيدها حذائها الأبيض المزين بزخارف أنيقة لامعة... بينما تترك الحرية لتلك الأقمشة الحريرية التي تلتف حول جسدها في شكل رداء راق وأنيق لترفرف في الهواء الطلق... تتسلل النسمات الباردة لتداعب ذلك الخمار الحريري فوق رأسها و ما ظهر من شعرها البني المكلل بتاج صغير من الورود الذهبية...

تسلط الشمس أشعتها بخجل على بشرتها البيضاء لتتوهج مثل قطعة الماس نادرة بينما يبتسم ثغرها الصغير في سعادة وراحة وسكينة...

وقفت قليلا وهي مغمضة العينين باسمة تستنشق رائحة المكان المتواجدة به... و بلحظة فتحت عيونها التي يمتزج بهم اللون الأخضر بقليل من العسل الصافي لتقابلها أشعة الشمس الصافية الدافئة فتلمع كعيون القطط... التفتت إلى الخلف تنظر إليه يقف ساكنا خلفها بينما تتلاعب ابتسامة صغيرة على شفتيه وهو يراقب انطلاقها في البرية... اتسعت ابتسامتها وهي تنظر إليه ثم رفعت يدها إليه تناديه لتمتد أصابعه الطويلة تلمس يدها بهدوء لتسري قشعريرة باردة بجسدها...

شهقت تولين بشدة وهي تستيقظ من حلمها.... أكان هو؟ أكان الأمير؟!!هل بسببه ظل ذلك الحلم يراودها لفترة طويلة قبل أن تسقط بذلك

الزمن؟ تلاحقت أنفاسها وكأنها كانت تعدو لساعات لتنظر لها الجارية التي تشاركها الغرفة باستغراب بينما تولين تهمهم بجملة واحدة (انه هو)....

- عم تتحدثين؟

نظرت تولين الى تلك الجارية لتهدأ قليلا وهي تهمس بلغة تركية بسيطة

- لا شيء انه كابوس....

مر الوقت برتابة ولا شيء يشغل بال تولين سوى تلك الرؤية التي ظهرت مجددا وبتفاصيل اكبر... كانت تولين تجلس بملل بأحد دروس الموسيقى تمسك تلك الآلة الوترية الغريبة وتحاول أن تنتج نوع من الأصوات المتناغمة إلا أنها لم تستطع سوى أن تصدر كل ما هو مزعج للآذان.... تأففت بانزعاج لعدم قدرتها على فعل ذلك بل لإجبارها على تعلم ذلك....

في حين كانت تجلس درة بجانبها و تحاول إرشادها قدر الإمكان.... كانت هي العون الوحيد لمجابهة كل الفتيات بذلك القصر حتى الآن...

انتهى ذلك الوقت المزعج بالنسبة لتولين لتصطف جميع الجوار مجددا بشكل موحد للعودة إلى الحرم مجددا...

و بطريق العودة صدح صوت الأغا منبها الجميع بقدوم الأمير مصطفي..... تصلبت تولين لعدة لحظات قبل أن تخفض رأسها وتنحني باحترام للأمير....

أحنى الجميع رؤوسهم في احترام للأمير و بمروره لمحها تقف بردائها الوردي الجميل وشعرها المبعثر بطريقة محببة حول وجهها تحنى رأسها باحترام له ....

وقف أمامها عدة ثوان قبل أن يقول بالعربية لها

- انتظرك اليوم عند الغروب
رفعت رأسها بسرعة له وها قد جاءت اللحظة التي تخشاها.... رفرفت أهدابها قليلا ثم نظرت إلى مرجان أغا برأسه المحني وهو ينظر لها شذرا بجانب عينيه ويشير لها أن تنحني مجددا إلى الأمير....

فما كان منها إلا أن أحنت رأسها مجددا وبطريقة تعلمتها خفضت من جسدها قليلا علامة لقبول الأوامر من سيدها.....

مر الأمير من أمامها في طريقه في حين وقفت تولين مجددا تواجه نظرات الحاقدات من الفتيات ونظرات مرجان أغا اللئيمة ذات الطابع الفكاهي للغاية تذكرها بنظرات عايدة صديقتها الغالية حينما كانت تتآمر عليها بشيء ما مع محمد....

ابتسمت لنظرات مرجان أغا ولذكرى أصدقائها الأعزاء.... وما زادت من اتساع ابتسامتها هو سؤال أبله طرق جدران عقلها (ماذا قد يحدث

لو رأتها صديقتها بهذا الوضع وهي تنحني لهذا وذاك بكل خضوع فهذا ابعد ما يكون عن هويتها الحقيقية)

تحولت تلك الابتسامة إلى ضحكة خفيفة على حالها وتلك التغيرات التي تحدث لها يوما بعد يوم....

و مجددا ذهبت إلى ذلك الحمام الرخامي الجميل ومجددا بدأت الفتيات بتجهيزها وترطيب جسدها وتعطيرها بأرقى العطور و تزين جسدها بأجمل الملابس والجواهر النفيسة....

فكان ردائها المصنوع من الحرير بلونه الأحمر الدامي يظهر أنوثتها وثنايا جسدها البض.....

بدأت الفتيات في تزين شعرها الأشقر ببعض الورود الصغيرة ليتألق لونه أكثر.....

انتهى تزينها و مجددا ذهبت لطريقها إلى جناح الأمير و أمعائها تتلوى خوفا مما قد يحدث معها هناك وهي بلا حول ولا قوة.....

وقفت أمام تلك البوابة مجددا فتح الباب لها وبخطوات مرتعشة دخلت إلى ذلك الجناح المهيب....
كانت يجلس على مقعدة الوثير وهو يقرا كتابا ما....لكنه ما أن دخلت و عم عطرها أجواء غرفته حتى أغلق ذلك الكتاب لينظر لها متمهلا.... ينظر تارة إلى شعرها المتقن تصفيفه و إلى تلك الوردات الصغيرة... إلى ذلك الرداء الذي يصف ما يخبئه بكل براعة....
ابتسم لها و هو يشير إليها أن تقترب منه.....
اقتربت منه قليلا وجثت أرضا كي تقبل عباءته ثم استقامت مجددا منتظر أمره ....
طال صمته قليلا إلى أن نطق بصوت رخيم هادئ
-لدي طلب منك
رفعت رأسها تنظر له بعينين متسعتين قليلا وحاجبي مرفوعين وشفتين منفرجتين ثم همست قائلة

-طلب؟ ألا يجب أن يكون أمر؟
ابتسم قليلا وهو يقول
-أنت لست بجارية كي آمرك؟ أنت ضيفة بقصري
رفرفت أهدابها قليلا وهي تبتسم بخجل ثم أومأت برأسها تنتظر ذلك الطلب في حين ابتسم الأمير قائلا
-أريد أن احظي ببعض التدريب على اللغة العربية معك....

قطبت تولين بغير فهم قليلا فأوضح لها وهو يقف أمامها
-أريد أن أتحدث معك بالعربية كل يوم لأتمكن من إتقان اللغة تماما.... عند كل غروب سيكون موعدنا لذلك التدريب.... كل ما سنفعله هو الكلام طرح الأسئلة والإجابة ....

و أخيرا دخل الهواء إلى رئتيها وها هي تتنفس من جديد... و ظهر ارتياحها بشكل رائع حين أشرقت ابتسامتها على ثغرها الرقيق وقد تدفق العسل الصافي بعينيها مجددا لتلمع وتزدهر.....

اتسعت ابتسامته وقال

-حسنا لنبدأ بأول سؤال ....من أين أنت؟

-من مصر....

صمت قليلا وابتسامة صغيرة تتردد على جانب شفتيه ثم جلس على مقعده الوثير وهو يقول

- هلا حدثتني عنها

ابتسمت وكادت تشرح له ما هي بلادها لكنها تسمرت للحظة و همست لنفسها قائلة

(يا الهي عن أي حقبة اشرح له يا الهي لا أتذكر بالضبط تاريخ بلدي بتلك الحقبة أي غباء تملكني حين قررت معرفته تاريخ بلد غير بلدي)

انتبه الأمير لهمسها ثم قال

-بماذا تهمهمين؟

ابتسمت له ابتسامه بلهاء بملء وجهها وقالت
-لا شيء فقط اردد بعض تعاليم مرجان أغا
كي لا أنساها فقط
ارتفع حاجب الأمير في تهكم وعدم تصديق
بينما ازدردت تولين لعابها في حين أمرها
بالجلوس بجانب مقعده أرضا....
اقتربت منه تولين ثم جلست على تلك الوسادة
الكبيرة المخملية... كانت نظرات الأمير تلازمها
مثل ظلها بينما تتأرجح ابتسامه لعوب على
شفتيه...ظلت تولين تنظر إلى تلك الابتسامة
بعجب إلى أن انتبهت إلى ملابسها و أن ما
تظهره أكثر مما تخفيه.... حاولت إخفاء
مفاتنها لتتحول تلك الابتسامة اللعوب خاصته
إلى ضحكة خافتة....
نظرت له بغضب خفيف و قد كست الحمرة
وجنتيها.... وقفت وهي تحتضن كتفيها وتهتف
به وقد ألقت بكل ما تعلمته بالأسابيع السابقة
بعرض الحائط

-لا تحملق بي
ارتفع حاجبي الأمير بدهشة وتدلى فكه ومقابلا له وقفت تولين بغضبها تحاول إخفاء ما ظهر منها... قام من مقامه بهدوء ثم ذهب إلى فراشه الواسع ذو الأعمدة الذهبية الطويلة ليأتي بغطاء حريري... وقف أمامها عدة لحظات ينظر إلى عيونها المتسعة وفمها المرتجف ثم وضع ذلك الغطاء عليها ليستر كل ما قد تم تعريته بجسدها فلا يرى منها غير وجهها..... ظلت على حالة الاندهاش مما فعله مدة لا بأس بها إلى أن جلس الأمير بمقعده مجددا ونظر لها و لتلك الهالة حولها من فعل أشعة الغروب الساحرة....
وبابتسامة مشرقه وعيون لامعه وبصوته الرخيم وبلغه العربية قال....
- كلي آذان صاغية....

الفصل الخامس عشر

جلست تولين ساعات وساعات تسرد كل ما تتذكر من تاريخ مصر القديم على مسامع الأمير.... بداية من الحضارة الفرعونية مرورا بالقبطية والإسلامية.... تفرعت حيث الدولة الفاطمية وانتهاء المماليك على يد جده السلطان سليم الأول....

و كم شعرت بالفخر يلمع بعيونه عند ذكر انجاز جده في حين كانت تشعر تولين بالحزن لخيانة طومان باي بتلك الطريقة....

مر الوقت بينهما سريعا إلى أن حان وقت مغادرتها انحنت له بهدوء بعد أن سمح لها بالمغادرة...

أغمضت تولين عينيها وتنهدت وبقلبها تشكر وتعدو لمعلمتها التي أجبرتها على دراسة فنون وتاريخ بلدها .... اعتذرت بقلبها مئات المرات

لها عن تلك الدعوات واللعنات التي ألقتها عليها سابقا....
خرجت تولين من جناحه وقلبها يدق بسعادة وأخيرا نالت بعض الراحة و الاستمتاع منذ أن دخلت بتلك الدوامة... تذكرت علي.... نعم كان يؤويها بمنزله... نعم أطعمها وساقها وكساها بالملابس الغالية المريحة.... إلا انه كان قاس القلب عليها في كثير من الأحيان... تذكرت لقاءاتها معه المشابهة للقائها مع الأمير... وبنفس التوقيت كانت تجالسه وتقرا معه وتتحدث معه أيضا....ودون أن تشعر تحولت سعادتها إلى حزن ممتزج بالشوق إليه... نفضت رأسها وهى ترسم ابتسامه على وجهها مجددا علها تصل إلى قلبها ليحظى ببعض السعادة مجددا... نحت كل تفكير سيء عن بالها وفكرت فقط بذلك الوقت المرح السعيد مع صديقها الجديد بتلك البلاد... صديقها الأمير..

وصلت إلى الحرم لتستقبلها نظرات الفتيات الحاقدة فهي بنظرهم الحبيبة الجديدة من اختطفت لب الأمير... ازداد اتساع ابتسامتها لذلك الخاطر أصبحت بحاله ممتزجة من السعادة والتهكم بنفس اللحظة... ما كادت أن تخطو خطوة أخرى في اتجاه فراشها إلا أن وجدت عفيفة خاتون أمامها بنظراتها المتعالية.... ظننت أنها ستتلقى توبيخ أخر على شيء ما فعلته دون قصد إلا أنها رأت شبح ابتسامه يرتسم على شفتيها وهى تقول لها بقليل من الاحترام

- الآن هذا ليس لك لن يكون هذا مكانك بعد اليوم

ابتلعت تولين ريقها بصعوبة وهى تسال بهمس متقطع بلغة تركية بسيطة

- لماذا عفيفة خاتون؟

اتسعت ابتسامه عفيفة خاتون وهى تلوى رأسها جانبا قليلا وقالت بصوت عال لتسمعها جميع الفتيات المتنمرات

- لأنك الآن مفضلة الأمير المميزة لذا ستنتقلين إلى طابق المفضلات ليكون لك فراش خاص بك و تسكنين بغرفة من غرف المفضلات....

رفرفت أهداب تولين قليلا وهى تنظر تارة إلى عفيفة خاتون وتارة إلى الفتيات لترى من تتلوى حقدا وغيرة و ترى تلك النظرات اللعوب بعيني عفيفة خاتون لتزدرد ريقها بصعوبة وهى تدعو الله أن تمر حياتها هنا بسلام....

أشارت عفيفة خاتون إلى مرجان أغا أن يرشد تولين إلى غرفتها.... وبعد قليل من الوقت كانت تولين تقف بمنتصف غرفه جملية لم تكن كبيرة للغاية إلا أنها رائعة بالنسبة لها لفت نظرها صناديق خشبية مرصعة بمعدن ما بطريقة رائعة فسالت مرجان أغا بلغة تركية ركيكة قائلة

- لمن تلك مرجان أغا

- إنها لك تولين خاتون بالطبع

التفت تولين له بسرعة و قد اتسعت عيناها متسعتان ورددت بصوت منخفض و باستغراب

- خاتون!!!

ضحك مرجان أغا وبلؤم قال

- بالطبع خاتون ... تولين خاتون لقد أصبحت مفضلة الأمير وبيوم ما سيكبر بطنك الجميل هذا بطفل للأمير... وعندها تكونين قد دخلت السلطنة وقد تكوني بيوم سلطانة ولست فقط خاتون....

رفرفت أهدابها بشدة وقد أصبح لون وجهها كالبندورة وازدادت وتيرة تنفسها بعد أن أصبح قلبها يقرع كطبول الحرب...

نظرت مجددا إلى الصناديق ثم لمرجان أغا الذي أشار إلى الصناديق بيده وهو يغمز لها بعينه أن تفتحها لترى ما بداخله...

و كأن باب من أبواب الكنوز فتح لها... أندر أنواع الأقمشة واللآلئ و المجوهرات الثمينة حتى أن الصناديق مزخرفه بالفضة الخالصة.... تلمست بأناملها الدقيقة تلك الهدايا الثمينة وهي تبتسم غير مصدقة لما يحدث حولها.... الآن هي تعامل جيدا وبكل حذر من الجميع و فقط لأنها أصبحت مفضلة الأمير....

مرت الأيام لتتحول إلى أسابيع وبكل ليلة كانت تذهب تولين إلى جناح الأمير متأنقة بأجمل الثياب وارقي العطور مزينه بأغلى الجواهر ليستقبلها بجناحه بشوق كبير لمعرفه المزيد عنها و الحديث معها أكثر.... تمر ساعات لا يعلم عددا وهو يستمتع بطفولتها وإشارات يدها ونظرات عينيها وهي تروي له قصص والأساطير عن بلادها... أصبح مغرم بشفتيها وهي تبتسم بود له وتتحدث معه دون أن تخشاه.... أصبح شغوفا أكثر لمعرفه كل ما

يتعلق بولاية مصر فما كان يخطر بباله إن تلك الولاية لها هذا التاريخ الكبير المميز...
تارة يتقابلا بالجناح و تارة أخرى بالحديقة الخاصة يسير إلى جانبها لساعات وساعات دون كلل أو ملل تحت أنظار تراقب بتوتر وأخرى تراقب بحذر وأخرى تراقب بحقد....
و بصباح مشرق كانت تجلس تولين بحجرتها على احد الوسائد المخملية المريحة وأمامها منضدة صغيرة يقبع عليها بضع وريقات وحبر وبيدها يرتكز قلم خشبي ترسم به بهدوء الحروف العثمانية لتخط بعض الكلمات التي تمليها عليها درة الجالسة بجانبها تشرف على احد دروس اللغة العثمانية الخاصة بها....
-يا الهي يا تولين يجب أن تضعي ثلاث نقاط هنا ألا تعرفين الحروف العربية؟
-لقد أرهقت اليوم ألا يمكن أن نترك الكتابة قليلا ونستمتع بقليل من الدردشة

نظرت درة إلى وجه تولين ونظراتها المرحة البريئة وهي تتكاسل عن واجباتها لتبتسم درة بقلة حيلة و تترك الأوراق من يدها لتتنهد تولين براحة وهي تلقي بالقلم الخشبي بعيدا

-حسنا يا خاتون هات ما عندك

-اعتقد أني بطريقة ما ادخل إلى عرين الأسد يا درة

- هل أدركت هذا للتو؟

تأففت تولين وهي تنظر لدرة بحنق لتبتسم درة قائلة

-أنذرتك لعديد من المرات من أن تسبب مقابلاتك مع الأمير من انجراف بمشاعرك... يجب أن تحذري تولين انه أمير وأنت لست بجارية والزواج بأحد من السلالة العثمانية ليس بالأمر الهين

-أنا فقط أريد بعض الوقت المرح لا أكثر

نفضت درة رأسها بقلة حيلة وهي تنظر ببرود إلى تولين المتخبطة وبتلك اللحظة سمعتا

بعض طرقات ليدخل مرجان أغا بعدها بطريقته المرحة المعتادة وهي يقول

-يسعد صباحكن يا جميلات وخاصة جميلة الجميلات تولين خاتون

ابتسمت تولين بمرح وهي تستقيم من مجلسها وتقترب من الأغا لتقول وهي ترفع حاجبيها لأعلي

-يسعد صباحك يا أغا هات ما عندك هيا

عبس مرجان أغا قليلا باستياء قبل أن يقول

-لا يوجد احترام بحديثك يا هذه أنا كبير الأغوات و لست أي خادم هنا على أيه حال هيا للاستعداد الأمير يريد رؤيتك

قطبت تولين ونظرت إلى ضوء الصباح المشرق ثم إلى درة لتلتفت إلى مرجان أغا قائلة

-الآن؟

-اجل هل لديك اعتراض؟

-لا بالطبع لكنه أمر غريب نوعا ما

قطبت درة وهي تنظر بتوجس إلى مرجان أغا بنظراته اللئيمة بينما كانت تولين تتنهد وهي تستغرب هذا الطلب لكنها ما لبثت أن استدارت إلى درة طالبة المساعدة منها ليقاطعها مرجان أغا قائلا

-لا لن يكون هناك استعدادات... انك فقط سترتدين هذا

نظرت تولين بتعجب إلى تلك العباءة التي تستكين بين يدي الجارية خلف مرجان أغا ثم تساءلت

-ماذا يحدث هنا مرجان أغا؟

ابتسم مرجان أغا و هو يمسك بالعباءة السوداء ليضعها على تولين فتخفيها من رأسها إلى أخمص قدميها بينما يقول بلؤم ومرح

- هنالك نزهة اليوم يا خاتون

-نزهة؟ بالحديقة؟

اتسعت ابتسامة الأغا دون أن ينطق ببنت شفه ثم أشار لها بالتقدم لتخرج تولين من حجرتها دون أن تفهم شيء بينما تقف درة بالخلف تنظر لكل شاردة و واردة بتعجب وفضول ونظرة أخرى لم يتمكن مرجان أغا من فهمها....

وبعد قليل من الوقت وقفت تولين أمام عربة خشبية صغيرة مقيد بها احد الخيول الخاصة بالأمير....وخلفها مرجان أغا يشير لها أن تصعد إليها حينما قام احد الأغوات بفتح الباب لها....

صعدت تولين لتجد الأمير يجلس بهدوء بداخلها... شهقة صغيرة ندت عنها وقد ارتطم رأسها بالعربة... كادت أن تقع لكن كانت يد الأمير أسرع حين امسك برسغها بشدة حتى يتزن جسدها بينما تهمس تولين بخوف وتعجب

-ماذا يحدث هنا؟

جلست تولين أمام الأمير بينما أشار الأمير إلى أغا لغلق الباب لتشعر بعدها تولين بحركة العربة...
ضحكة صغيرة ندت عنه وهو يرى خوفها وتوترها بينما يقول
-الم يقل لك الأغا إنها نزهة...
-نزهة؟
-اجل سنخرج من القصر
اتسعت عينيها بشدة وقد تدلى فكها... مدة من الزمن مرت وهي بحالتها الممتزجة بين الصدمة والتعجب والقليل من القلق...
استعادت تولين رشدها ثم أسرعت برفع ستار نافذة العربة لتنظر إلى تلك البوابة الكبيرة الخاصة بالقصر وقد أصبحت خلفهم بعدة أمتار...
نظرت مجددا إلى الأمير الذي يجلس ينظر باستمتاع إلى ما يصدر عنها من ردود أفعال

غير مألوفة بالنسبة له.... ردود أفعال حيوية أكثر مما ينبغي أو أكثر مما قابله بحياته...

نظرت له بتوجس بعض الوقت لتسأله

-ليست لديك أية نوايا سيئة أليس كذلك؟

ارتفع حاجباه بشدة ثم تبسم لتعبير وجهها وهو يرفع يديه قائلا

-بالطبع لا

ظلت تنظر له بقليل من الريبة ثم تحول توجسها إلى مرح طفولي حين هتفت قائلة

-وأخيرا نزهة مرحبا بالحرية...

التفتت تنظر من النافذة مرة أخرى و هي تصدر ضحكات خافتة سعيدة بينما ينظر لها الأمير بتعجب لكن ما لبث أن اختفت الابتسامة من تعبير وجهه وقد حل الوجوم والشرود وهو ينظر لها ويفكر....

التفتت تسأله

-إلى أين سنذهب؟

-أولا إلى السوق الكبير فهناك يسمع كل شيء

قطبت تولين بعدم فهم قليلا قبل أن تقول

-ماذا يعني هذا؟

-يعني انه يمكنني معرفة كل شاردة و واردة يتم إخفائها عني و أنا بقصري

أومأت تولين متفهمة ثم نظرت له قليلا تدقق بملابسه.... تبدو مختلفة تلك الأقمشة الخشنة نوعا ما مختلفة عما يرتدي بالعادة تبدو وكأنها رثة نوعا...

-ملابسك تبدو... تبدو نوعا ما...

ابتسم الأمير مصطفى وهو يقول

-تبدو مثلما يرتدي معظم شعبي من الطبقات المنخفضة... لا يجب أن يعلم احد أنى أمير لذا تذكري جيدا ألا تقومي بندائي سوى بمصطفى...

رفرفت أهداب تولين بشدة وقد تورد وجهها وهي تهمس موافقة بينما لسان حالها يستعجب... كيف ستقوم بمخاطبة الأمير باسمه المجرد!!!

هبط الأمير من العربة حين توقفت لتمتد يده إلى تولين في مساعدة منه لها للهبوط.... أمسكت تولين بيده لتتذكر تلك اللحظة بذلك الحلم... ازدردت ريقها ثم هبطت لتقف بجانبه ليقوم بإحكام وضع العباءة فوق رأسها كي لا يظهر شبرا واحدا منها....

مر وقت ليس بالطويل وهي تسير خلفه مباشرة تنظر يمينا ويسارا بانبهار... يشبه كثيرا أسواقنا العربية حيث الباعة بكل مكان والجميع ينادي ويدلل بضائعة... هناك من يدلل خضرواته وهناك من يقول أشعار بأقمشته وكلٌ يحاول جذب الأمير مناديا إياه بالأغا... ضحكت تولين بتهكم بينما تتساءل كم سيكون محرج ومخيف بالنسبة لأولئك لو علموا انه الأمير... تباطأ سيرها وهي تنظر بعجب وانبهار إلى لكل ما يحيط بها... لم تنتبه لخطاها إلا حين ارتطمت بصدر الأمير حين وقف ينظر لها

تسير مثل طفلة بلهاء تنظر يمينا ويسارا غير أبهة بطريقها....

رفعت نظرها إلى وجهه المبتسم بسخرية بينما انخفض قليلا ليكون أمام وجهها... ابتسم بينما يهمس قائلا

-انتبهي إلى طريقك سأنزعج حقا إن ارتطمت بجسد احدهم بتلك الطريقة...

رفرفت أهدابها وهي تنظر إلى عينيه ولم يكن يفصل بينهما سوى بضع سنتيمترات قليلة... ازدردت لعابها بصعوبة وهي تومئ بخضوع بينما ترتسم ابتسامة جانبية على شفتيه.... استقام ينظر يمينا ويسارا ثم امسك بيدها ليسير إلى احد الطرق الجانبية بينما تسير هي خلفه وقلبها يتخبط بداخل صدرها كشخص فاقد لقواه العقلية يتخبط بين جدران محبسه... مرت ثوان أم دقائق ربما ساعات لم تدر كم مر من الوقت وهو يحدق بها إلى أن قال

-ما رأيك بالغابات هنا بأماسيا؟

جمدت بمكانها وقد تصلبت عضلات وجهها وهي تنظر بثبات بعينيه التي تكللت بنظرات جليدية تخفي ما يعتمل بقلبه بينما تلمع برأسه ذكرى مقابلته مع صديقه المخلص يحيى طاشليجه لي حين أمر الأمير بحضوره بعد أن اكتشف أنها مسلمة حرة... كان يقف بشرفته الواسعة وقد اختفى قرص الشمس تماما ليتنحنح يحيى أفندي معلنا عن حضوره بمجلس الأمير... التفت الأمير مصطفى له وهو يقول

- هناك خائن بقصري يا يحيى...

قطب يحيى طاشليجه لي بشدة وهو ينظر مباشرة إلى عينيه القاسية لكن ما لبث أن اخفض ناظريه وهو يقول

-من يجرؤ أيها الأمير؟

-أنت هنا لتجيب هذا السؤال يا طاشليجه لي

انحنى له وهو يغمض عينيه بشده بينما يضم قبضتيه بقسوة وهو يمتص صرخات الأمير الغاضبة بكل هدوء.... تنهد الأمير وقال

-أنت من يجب أن يجيبني كيف لامرأة مسلمة حرة الدخول بقصري يا يحيى؟ من سمح من الأغوات بذلك

جحظت عيني يحيى ثم رفع رأسه بسرعة ينظر إلى الأمير وهو يردد بهمس

-امرأة مسلمة؟

كسا الجليد عيني الأمير بينما تصلبت معالمه وهو يقول

-أولا أريد التأكد إذا ما كانت إحدى مكائد السلطانة هرم أو رستم ....الأمر بين يديك الآن يا طاشليجه لي اجلبهم لي جميعا كل من اشترك بذلك الفعل وأولهم ذلك الأغا الذي سمح بدخولها إلى قصري

انحنى الصديق والتابع الوفي أمام الأمير...ألتفت الأمير ناظرا إلى حديقته مجددا

بينما يتراجع يحيى طاشليجه لي بخطوات بطيئة إلى أن خرج من الشرفة الواسعة ليستدير بخطوات واسعة غاضبة تاركا جناح الأمير لاكتشاف ما يحدث خلف الكواليس...

و بعد عدة أيام كان الأمير يقف أمام احد غرف الاحتجاز بالقبو دون أن يشعر به احد يشاهد يحيى طاشليجه لي يصفع ذلك الأغا المقيد ثم يقترب من وجهه وهو يسأله بفحيح غاضب

-من سلمها إلى قراصنة الشمال؟

-اقسم لك يحيى أفندي أني لا اعلم عنه شيء سوى انه خادم لأحد كبار أماسيا لقد بحت بكل شيء اعلمه

نظر يحيى طاشليجه لي له مليا قبل أن يستقيم وهو يلتقط احد الأقمشة البالية يمسح قطرات الدماء الملتصقة بيده السائلة من انف ذلك الأغا المنكوب... تنهد وبصوت منخفض قال

-إذا فأنت قمت بأخذ رشوة لإدخالها ولا تعلم لماذا ومن قام ببيعها.... ألا تعلم أيضا أنها مسلمة؟

زاغت عيني الأغا و لم ينبس ببنت شفة ليومئ يحيى أفندي بتفهم وقد ولاه ظهره وهو يسأله بتهكم

-حسنا اخبرني إذا ماذا كان سيحدث إن كشف أمرها قبل دخولها بطريقة ما ولم تستطع العبور بها من تلك البوابة؟ألم تخشى ذلك؟

ازدرد الأغا لعابه ثم همس قائلا

-لم يكن سيحدث لي شيء سوى خسارة ذلك الذهب لكن...

-لكن؟

-لكن كان سيتم قتلها

التفت يحيى أفندي ينظر له بثبات دون أن يرف جفنه بينما جحظت عيني الأمير المستمع بهدوء دون أن يشعر به احد... التفت يحيى طاشليجه لي يخطو خارج تلك الغرفة المظلمة

ليصدم بوجود الأمير خارجها... أحنى رأسه بهدوء وهم بقول شيء إلا أن الأمير أوقفه بأمر فيه من الهدوء ما هو مساوٍ للصارمة

-بأقرب وقت أريد معرفة من تلك الأسرة...

أحنى يحيى طاشليجه لي رأسه أكثر بخضوع لأمره .... لم يمض الكثير حتى كان يحيى أفندي بغرفة الأمير مجددا حاملا كل ما يخص تولين منذ أن كانت ببيت آل اوغلو...

تنهد الأمير وهو يجلس بمقعده الوثير ناظرا إلى يحيى أفندي الذي يسرد كل ما علمه عن تواجدها ببيت السيد علي و عن اشتباهه بأسرة بولغور... و بصوت عميق قال الأمير وهو يفكر

-إذا فهي جارية ببيت آل اوغلو...

تنحنح يحيى طاشليجه لي وهو يقول

-لا اعتقد ذلك يا أمير هنالك شيء مريب بهذا الأمر.... السيد علي اوغلو كان وحيدا لفترة كبيرة من الزمن منذ فراق زوجته ولم يسمح بتواجد النساء بمنزله لكن بعد أن تواصلت

بطريقة غير مباشرة مع خادمه شكري أغا علمت انه بعد رحلة الصيد بالغابات جاء ومعه تلك الفتاة وكانت تعامل بمثابة سيدة بالمنزل وليست بجارية حتى انه جاء بسيدة كانت تعمل سابقا ببيت آل اوغلو لتجالسها لكنها بطريقة ما لاقت حتفها بتلك الفترة...

رفرفت أهداب الأمير وهو يستمع إلى هذا الكم من المعلومات الغير متصلة والغير منطقية من فم صديقه بينما يتشتت تفكيره أكثر كلما حاول الربط بين كل تلك الأحداث.... تنهد بشدة ثم استقام ليذهب إلى شرفته وهو يفكر بكل كلمة قالها يحيى طاشليجه لي....

عاد مصطفى مجددا إلى واقعه حيث يقف أمامها يحدق بعينيها المشتتة ثم ابتعد خطوة إلى الخلف وهو يقول

-ما بك؟ تبدين شاحبة بعض الشيء هل أنت مريضة؟

رفرفت أهدابها وهي تقول

- لا... أنا بخير

- إذا هيا لنكمل نزهتنا

ظهرت ابتسامة مترددة على شفتيها ثم قالت

- هل سنذهب إلى مكان ما بالسوق هنا؟

- لا...

التفت مصطفى ثم خطى عدة خطوات ليكون بمنتصف السوق مجددا وخلفه تمشي تولين بخطوات مترددة وهي تفكر بسبب سؤاله المفاجئ... أخذت شهيقا كبيرا وزفرته بهدوء و بمحاولة لتزييف القليل من مرحها قالت

- إذا... إلى أين سنذهب الآن؟

- سنتنزه بالغابات قليلا

صعقت تولين وقد التصقت قدميها بالأرض فلم تقو على أن تخطو خطوة واحدة بينما جحظت عيناها وهي تحملق بمنكبيه... التفت ينظر إلى وجومها وثباتها بمكانها ليرتفع احد حاجبيه وهو يقول

- هل هناك شيء ما؟

زاغ نظرها قليلا وهي تزدرد ريقها بصعوبة ثم همست قائلة

- لا... لاشيء

أومأ موافقا وهو يرى تعبير وجهها المصدوم المتردد و نظرات عينها المشوبة بالقلق... ومجددا صعدا إلى العربة لكن تلك المرة جلست تولين مستكينة دون إثارة ومرح وسعادة... فقط تنظر بهدوء إلى الطريق يمر بجانبها بسرعة وبعقلها تمر كل الأحداث التي قابلتها منذ أن وطئت تلك الغابات... بعضها سعيد واغلبها مزعج وتعيس.... بينما يراقبها الأمير بهدوء وهو يشعر باتساع لغزها أكثر فأكثر... وقفت العربة وقد أحيطت بالأشجار والنباتات من كل اتجاه حيث استكانت بين أحضان غابات أماسيا...

هبط الأمير ثم وقف وقد امتدت يده لمساعدة تولين التي تجلس بالعربة في تردد... امتدت

يدها لتمسك يده بعد عدة لحظات وتهبط بجانبه
وهي لازالت تمسك بيده بشدة...
حاولت جاهدة أن تتنفس بهدوء وهي تفكر
بأنها عادت مجددا إلى حيث بدأت رحلتها
وقصتها...
-يداك باردتان للغاية
نظرت له بتردد ثم نظرت إلى يدها الممسكة
بيده بشده وكأنه قشة تنقذها من الغرق...
أفلتت يده وهي تقول
-اعتقد أنى مرهقة بعض الشيء
أومأ وهو ينظر لوجهها ثم قال
-إذا هل نعود؟
نظرت له... لقلقه ألباد بعينيه تردد على ثغرها
ابتسامة كانت تجبرها على الظهور علنا ثم
قالت
-لا... لنستمتع بهذا الطقس المنعش

قالت جملتها وهي تنظر حولها وقد قررت أن تواجه مخاوفها فقط ستظل قريبه منه... وبقلبها مجددا تردد أن ما فات كان الأسوأ.... بادئ الأمر كانت تسير كتمثال صخري يتحرك بصعوبة... تخرج بعض كلمات متقطعة من فمها إجابات مختصرة لأسئلة الأمير بينما تحملق بشدة بكل ما حولها وكأنها تخشى شيء سيخرج من أية اتجاه...تنظر يمينا ويسارا مخافة من ظهور هذا المنحدر اللعين بينما تلمع بذاكرتها لحظات الظلام بذلك المكان حيث صوت الرعد المخيف والأمطار الكثيفة تحجب الرؤية...

تسرب قلقها إليه ليقف فجأة وهو يمسك كتفيها وينظر إلى عينيها قائلا

-أنت بأمان... لا تنس انك مع احد أمراء الدولة العثمانية وبولايتي الخاصة انظري حولك لا شيء مخيف... فقط أشجار وشمس ورياح خفيفة تداعب الطبيعة حولنا

هدأت نبضاتها الصارخة لتنتظم قليلا وهي تدخل بعقلها كل حرف نطق به... ارتجف ثغرها بابتسامة صغيرة بينما تنظر حولها لينقشع ذلك الظلام البارد بذاكرتها ويحل محله ذلك الضوء الدافئ الذي ينتشر بكل مكان حولها...

مرت ساعات وهم يسيرون بين الأشجار تارة يتحدثون عن الحضارات وتارة يتحدث كلٌ عن حياته كيفما شاء... وأخيرا وصلا إلى تلك البحيرة المختبئة... بوراباي... ابتسمت تولين وهي تتذكر أول مرة رأتها وجلست على ضفافها هي وذلك الجرو الجميل...

نظرت إلى الأمير لتجده يحدق بها... غزى اللون الأحمر بشرتها وهي تقول

-البحيرة جميلة أليس كذلك؟ تلمع مثل الفضة أسفل أشعة الشمس

-رائع ولديك موهبة التشبيه أيضا هل بجعبتك من مزيد؟

ضحكة خافتة ندت عنها حين سمعت جملته تلك بصوته الهادئ ثم تنهدت وهي تنظر قدميها.... طال نظرها إلى تلك التربة الرطبة وقد تناثرت بها الأعشاب الخضراء... انحنت قليلا ثم خلعت نعليها و هي تخطو باستمتاع عارية القدمين على تلك التربة الرطبة.... اتسعت ابتسامتها لتتحول إلى ضحكة سعادة خافتة... رفعت نظرها إليه تجده يقف يبتسم بينما نظرات الاندهاش تلوح لها من عينيه... و بصوت يملؤه العجب يشوبه ضحكة خافته قال

-لماذا فعلت ذلك؟

-حقا إن قمت بتلك التجربة ستعلم لماذا فلا كلمات تصف ذلك الشعور... هيا

قالت جملتها تلك ثم ابتعدت عدة خطوات وهي تدور وتمشي بخطوات رشيقة على ضفاف البحيرة بينما تضحك بسعادة وقد أطاحت الرياح بتلك العباءة لتداعب الشمس بشرتها البيضاء وشعرها الأشقر...

كانت تسير بخطوات واسعة متناسقة رشيقة.. سعيدة... بينما ترفرف أقمشة ردائها بالهواء خلفها... التفتت تنظر له لتجده يسير خلفها بهدوء وابتسامة صغيرة تزين ثغرة تظهر بهدوء أسفل لحيته وشاربه الكثيف...
نظر لها والي توهج شعرها وبشرتها أسفل أشعة الشمس... شرد بسعادتها الطفولية ومرحها بعد أن زال ترددها وخوفها الذي أكد له أن الحلقة المفقودة هنا بتلك الغابات...
امتدت يدها له وهي تبتسم بسعادة وتقول
- هيا حقا ستندم إن لم تجرب ذلك الشعور
رجفة صغيرة بجفنيه بينما تتسع ابتسامته وهو يرفع كفه ليمسك بيدها... كل ينظر إلى الأخر بصمت وابتسامة صغيرة وما هي إلا لحظات حتى غرقا معا بموجات عالية عاتية من الضحك والمرح...
مرت ساعات اليوم بين لهو ومرح وبين ذكريات من الماضي يتم سردها من كلا منهما

بينما يجلسها بهدوء تحت ظلال أشجار غابات أماسيا....
أشرقت شمس يوم جديد وغربت وأشرقت مجددا لتمضي تولين أيام غاية بالهدوء وقد تمكنت روحها من الشعور بالسلام...

و بصباح جديد استيقظت تولين بابتسامة مشرقة وقد استقامت بفراشها حسن سرت بجسدها رعشه قوية من ذلك البرد المحيط بها... وقفت أمام تلك النافذة الصغيرة للغاية ذات الخشب المزخرف تشاهد بلورات الثلج تتساقط بكل مكان لتتحول الحديقة الخاصة إلى اللون الأبيض الناصع... كانت دائما تحلم بمشاهدة تلك الصورة الرائعة... تشعر بتلك البرودة تجتاح جسدها و تستمتع به...
التفت حين سمعت صوت طرقات قوية على الباب ليفتح بعدها بقوة...

نظرت تولين إلى عفيفة خاتون التي تتوسط الغرفة تنظر لها من رأسها إلى أخمص قدميها و بجانبها مرجان أغا الذي يضع يده بخصره ويبتسم بخبث بينما تقف جاريتان خلفهما بصمت تام....

نظرت عفيفة خاتون إلى تولين التي تقف أمام النافذة برداء النوم الفاضح.... ثم قالت

- استعدى لتأتى معنا يا خاتون

فهمت تولين كلامها و بتركية سليمة قالت

- إلى أين عفيفة خاتون؟

- إلى القابلة لتفحصك....

ضاقت حدقتي تولين قليلا في محاولة لفهم ما يجري إلى أن فطنت.... الآن وقت الكشف عنها... عما إذا كانت تحمل بأحشائها طفل أم لا ... بل عما إذا كانت عذراء أم لا.....

الفصل السادس عشر

ظلت كلمة عذراء تتردد بذهنها كثيرا وهى ترى الجوار تقترب منها وهى تتراجع إلى الخلف بخطوات متعثرة....

لم تجد للهروب سبيلا فهي محاصرة من جميع الاتجاهات.... و بلحظة تم الانقضاض عليها من قبل الجاريتان في ظل مراقبه عفيفة خاتون بنظراتها المتعالية الخبيثة و مرجان أغا الذي بدأ في الريبة مما يجري هنا تارة ينظر إلى عفيفة خاتون وتارة إلى تولين التي بدأ الدمع يهبط من عيونها كالدرر....

فات الوقت بين شد وجذب من قبل تولين والجوار تحاول التملص منهما فيؤدي ذلك إلى زيادة عدد الكدمات بذراعها وكتفها من شدة ضغطهما عليها...

مر قليل من الوقت حتى صارت تولين بحجرة القابلة وبدون أن يرف جفن احدهم ألقت الجاريتان تولين أرضا أمام قدمي القابلة....
استندت تولين بيديها إلى الأرض ورفعت رأسها تحاول النظر إلى قابلة و قد تشوش نظرها بدموعها وشعرها المبعثر أمام عينيها تلاحظها وهي تقوم بغسل يديها بالمياه في طبق نحاسي كبير ومن ثم تنشفها جيدا لتنظر لها بنظرات خاوية...
نظرت خلفها إلى عفيفة خاتون لتجدها كعادتها تنظر لها بترفع بينما يرتفع طرفي ثغرها بابتسامة متهكمة.... أما عن مرجان أغا كان يقف مذعورا بعد أن فطن لما يجري هنا.... يضع يده على فمه وينظر لها بشفقه لما سيحدث معها... لم يستطع الوقوف طويلا فطلب الاستئذان من عفيفة خاتون قائلا
- عفيفة خاتون يجب علي الذهاب إلى لطفي أغا للإتيان بفتاه أخرى فأنت على دراية بان

تولين خاتون لن تستطيع الذهاب إلى الأمير ...

نظرت عفيفة خاتون إليه بريبة قليلا ثم أومأت موافقة....

شعرت تولين بيد تلمس كتفها فانتفضت ذعرا وهي تتراجع إلى الخلف زحفا على يديها... بينما لمحت نظرة أسى تجري سريعا بعيني القابلة ما لبث أن اختفت تماما لتقوم القابلة بسحبها بشدة لتلقيها على الفراش بمساعدة الجاريتان.... بينما تقوم جارية بتقييد ذراعيها بشدة كانت الأخرى تساعد القابلة لتكمل مهمتها.... لحظات هي أم ساعات لا تعلم لكنها كانت كالدهر بالنسبة لتولين....

لم يشفع لها بكائها و آهاتها.... لم تشفع انتفاضات جسدها وشهقاتها.... وكأن الجميع صخور بلا روح...

وبعد قليل من الوقت استقامت القابلة بظهرها وهى تغطى قدمي تولين بغطاء ابيض... نظرت لها بتعجب شديد... تراقب دموعها وذعرها... بينما تراجعت كلا الجاريتين لتتكمش تولين حول نفسها كالجنين الصغير وهى تضم قدميها إلى صدرها ليسقط عنها الغطاء الأبيض وتكون فقط بتلك الغلالة الرقيقة الممزقة بفعل الجوار....

وقفت القابلة ونظرت إلى عفيفة خاتون التي سالت بصرامة

- ماذا هناك لم توقف عملك؟ فلتتخلصي من هذا الجنين الآن....

نظرت القابلة مجددا إلى تولين ثم نظرت إلى عفيفة خاتون وقالت

- لا يوجد جنين سيدتي لأتخلص منه.... إنها.... إنها....

- عذراء

كلمة واحدة بصوت رجولي غاضب حد الموت ثائر كبركان على وشك الانفجار يطيح بالأخضر واليابس....

التفتت عفيفة خاتون لترى الأمير مصطفى خلفها ينظر لها بغضب جم بينما يضم كلتا قبضتيه بشدة وكأنه يمنع نفسه بصعوبة بالغة من الفتك بكل من بالغرفة...

بينما كانت عفيفة خاتون تنحني احتراما له كان قلبها يدق بشدة ذعرا مما قد تؤول إليه الأمور.... ظلت كلمة عذراء التي قالها الأمير تتردد بذهنها طويلا إلى أن نطقت القابلة المنحنية للأمير هي الأخرى

-أجل سيدي الأمير إنها بلا شك عذراء....

إشارة واحدة من يده إلي القابلة لتبتلع لسانها فلا تقو على إخراج حرفا أخر بينما ينظر بغضب إلى جسد تولين الملقي على ذلك الفراش... التفت بقوة إلى عفيفة خاتون قائلا بصوت هادر

- كيف تجرئين على هذا الفعل يا خاتون... بأمر من فعلت هذا أيتها ال....

- بأمري أنا يا مصطفى....

قطع صراخه صوت السلطانة مهيدفران الصارم حين نطقت بتلك الجملة.... التفت بقوة ينظر لها بذهول ثم انكسار....

- أنت يا والدتي؟ كيف؟

- لا يجب أن ترتبط بتلك الفتاه بطفل فهي مجرد مرحلة لك اعلم انك تحتاجها لكي.....

- وهل هذا يعطيك الحق لقتل روح يا أمي؟و أي روح.... قد تكون تلك الروح جزء منى....

رفرفت أهداب مهيدفران ثم تحكمت بنفسها قائلة بقوة ضاغطة على كل حرف

-افعل كل شيء لحماية مستقبلك يا مصطفى....

ظل مصطفى ينظر إلى أمه بذهول وصدمة في حين تنظر له بقوة بينما يتألم قلبها لنظرات الانكسار بعينيه.... التفتت تنظر إلى عفيفة

خاتون التي تنحني أمامهم بجسدها المرتعش وعيونها المغمضة بشدة خوفا من نتائج ذلك الصراع المخيف...

-اخبريني يا عفيفة هل تم الأمر....

رفرفت أهداب عفيفة خاتون و رفعت رأسها تنظر إلى ظهر الأمير أمامها ثم تنظر إلى عيون السلطانة وهى تقول بصوت منخفض مرتعش

-الأمر.... الأمر يا سلطانة انه....

ابتسم الأمير بتهكم ثم ضحك ضحكة سخرية خافتة وهو ينظر إلى والدته مما أدى إلى صمت عفيفة خاتون وهى تضغط بأسنانها على شفتيها بينما تنظر له السلطانة بصلابة....

استدار و خطى بضع خطوات إلى تولين ليرى انهيارها.... كتفها العاري و ملابسها الممزقة بهذا الطقس البارد.... جسدها البض العاري مشوه بكثير من الكدمات الزرقاء والحمراء ... شعرها المبعثر المبلل بدموعها وعرقها وقد ذهب وعيها عنها....

صدح صوت السلطانة بأمر لخروج الجميع فما كان من الجميع إلا أن أحنوا رؤوسهم وخرجوا بصمت تام....

ظل السكون والصمت هو سيد الموقف بين الثلاثة بتلك الغرفة.... إلى أن نطق مصطفى محدثا والدته دون النظر إليها

-لم اعلم انك قد تصلين بخوفك لهذا الحد يا أمي....

اقتربت مهديفران منه وهى تحاول وضع يدها على كتفه قائله

-ألم تقم بحسبان انه إذا علم قصر طوب كابي بأنك تعاشر امرأة مسلمة حرة قد تكون ن....

عند هذا الحد انتفض مصطفى قائلا بعصبيه شديدة ضاغطا على كل حرف

-لم ولن اقترب من جسدها يا أمي .... يا الهي ألهذا الحد قد تريني ضعيفا أمام رغباتي لأعصى الله .....

رفرفت أهداب السلطانة وهى تنظر إلى جسد تولين الملقى على الفراش فاقدة للوعي.... و إلى عيني مصطفى التي تقدح شررا و نطقت بصوت منخفض...

- إذا إنها لازالت....

شبح ابتسامة تهكمية ظهر على شفتيه ثم التفت وهو ينتزع عباءته ذات الفرو الناعم الأسود يضعها على جسد تولين وكطفلة صغيرة يحملها بين ذراعيه متجاهلا نظرات أمه المصعوقة متجاهلا هتافها باسمه بينما التفت وغادر غرفة القابلة...

ما أن خرج وبين ذراعيه تولين حتى انحنى الجميع أمامه... كانت نظرات الغضب تكلل عيونه وهو يغادر حاملا إياها بين ذراعيه متجاهلا نظراتهن إليه فتلك تعد سابقة بحرم قصر أماسيا....

نظر إلى يدها المتدلية ووجهها الملطخ بدموعها وتلك الشعيرات الثائرة تلتصق بوجهها القابع على ذراعه بلا حول ولا قوة...

و من بعيد كان يقف مرجان أغا ينظر إلى الأمير يحمل تولين بين يديه و قد اقترب منه... انحنى مرجان أغا احتراما له بينما قال أمره الأمير بصرامة تامة أن يلحق به .....
نظر مرجان أغا باتجاه عفيفة خاتون التي كانت تنظر له شذرا وقد علمت من قام بإبلاغ الأمير.... اقتربت عفيفة خاتون من مرجان أغا قائلة بصوت منخفض غاضب متهكم....
-أرى انك تهتم كثيرا بتلك الخاتون حتى انك أوشيت بي وبالسلطانة لأجلها... ما الأمر مرجان أغا؟ هل تعطيك ذهبا كثيرا؟
نظر لها مرجان أغا ببراءة وهو يقول
-حاشاه يا عفيفة خاتون....

ثم نظر لها بجديه تامة وصرامة وهو يقترب منها وبصوت منخفض يشوبه بعض التحذير
-تلك هي أوامر الأمير لي... أن أراقبها باستمرار وأقوم بإبلاغه بكل ما يخصها... أنت تخدمين السلطانة أما أنا ف أنت تعلمين ما هي وظيفتي بالضبط عفيفة خاتون.... احترامي...
انحنى لها ثم غادر مسرعا إلى جناح الأمير كما أمره....
سار الأمير بتولين بين أروقة القصر بينما كانت هي تحلق بعالم أخر فقد اختار عقلها أن يغيب عن أحداث الواقع المرير.... نظرات كل من شاهد الأمير كانت تتراوح بين الذهول والحقد والغيرة ....
وصل الأمير إلى جناحه الخاص وقام بوضع تولين على فراشه الواسع ذو الأعمدة الطويلة والستائر الحريرية.... ينظر إلى وجهها البائس.... اقترب قليلا منها بعد أن سمع

همهمة صغيرة تصدر منها... لم يستطع سماع سوى بعض الأسماء مثل عايدة.... محمد... وعلي.... سمعها تستغيث بهم بطريقة أثارت حنقه أكثر فأكثر.... ثم عن أي منحدر كانت تهمهم هي؟!!!!

و من خلفه أتى مرجان أغا وهو ينظر إلى تلك الملقاة على الفراش بلا حول ولا قوة وذلك الليث الغاضب أمامه....

التفت الأمير وصرخ به لنداء الحكيمة و ما كانت إلا لحظات قبل إن يركض مرجان أغا بجنون بين طرقات و دهاليز القصر لجلب الحكيمة وهو يصك وجهه خوفا من القادم....

وبعد قليل من الوقت كانت الحكيمة تجلس بجوار تولين تداوي تلك الكدمات بعد أن قامت بإفاقتها....

بينما كان الأمير يقف بشرفته ينظر إلى بلورات الثلج المتساقطة .... إلى حديقته الخاصة التي استحال لونها من الأخضر إلى الأبيض....

يفكر كثيرا بتلك الأسماء التي سمعها تهمهم بها يفكر بأن ذلك المدعو علي انه السيد علي اوغلو... يبدو أنها حقا لم تعامله كسد لها فهي تناديه باسمه المجرد... ثم من محمد وعايدة وما ذلك المنحدر؟!! ضغط بيده بشدة على ذلك الحاجز بشرفته بينما يغمض عينيه بشدة في محاولة لمنع ذلك الضجيج برأسه.... شعر بأحدهم يقف خلفه التفت ليجد السلطانة تقف تحدق به....

- ماذا هناك مجددا يا أمي؟

- أريد أن أكون على دراية تامة الآن بما يدور هنا... هي ليست بعشيقه انك لم تمسها حتى الآن....

- أنت تعلمين مسبقا أنها حرة لا صك عبودية لها وبالتأكيد علمت من يحيى أفندي أنها مسلمة أيضا لذا لا يمكنني الاقتراب منها

- إذا لما هي هنا ولم سمحت لها بدخول القصر كما قلت لي مسبقا.... أريد أن افهم كل شيء الآن....

ظل مصطفى يحدق بها طويلا لا يجد إجابة.... نظر خلف السلطانة ليجد الحكيمة تقف تحني رأسها باحترام لهم وقد تمت مهمتها.... ترك والدته بتساؤلاتها وخطى باتجاه الحكيمة يسألها عن صحة تولين في حين كانت السلطانة تقف بغضب وحيرة....

مرت السلطانة أمام مصطفى والحكيمة التي انحنت احتراما لها في حين نظرت السلطانة مطولا لتولين التي تنظر لها نظرة خاوية وهى مستلقية على فراشها....

التفت السلطانة تنظر إلى مصطفى ثم إلى تولين نظرة سريعة وخرجت بغضبها العارم.... و بعد قليل من الوقت خرجت الحكيمة....

جلس الأمير على طاولته ينظر إلى بعض الرسائل.... في حين تحركت تولين بهدوء إلى

خارج الفراش وهى تحكم وضع عباءته حول جسدها.... خطت باتجاه الشرفة غير مبالية بنظرات الأمير المحدق بها....

احتضنت كتفيها بيديها وسمحت للهواء البارد يداعب شعرها و عنقها.... أغمضت عينيها و هي تأخذ شهيقا كبيرا عل الهواء البارد يطفئ نار قلبها....

صمت مطبق دام لبرهة من الزمن إلى أن نطقت تولين وهى تنظر إلى أشجار الحديقة يزينها الثلج....

-كان فوق احتمالي.... كل ما رأيت منذ وطأت قدمي تلك الغابة اللعينة كان فوق احتمالي....

وقف الأمير واقترب منها بصمت يستمع إلى حديثها الهامس المتقطع .... وكأنها تفتقد للطاقة....

-كان يجب علي أن أكون أكثر حذرا هنا فكما قالت درة أنا أخطو على نهر متجمد....

التفتت تنظر إلى الأمير مصطفى الواقف خلفها يعقد يديه خلف ظهره ينظر لها مطولا بينما يقول بصوت يحمل من الهدوء ما يحمله من الصرامة

-لازلت تخفين أشياء كثيرة تولين....

ظل الجليد يغلف نظراتها الثابتة بينما تقول

-بل هو شيء واحد....

ضيق بسيط بعيني الأمير كان هو تعبيره عن استفساره بينما ارتفع جانب ثغرها في ابتسامة صغيرة قد تكون متهكمة أم مستسلمة وهي تهمس قائلة

- أنني لست من زمنك..... جنون أليس كذلك؟

تحولت تلك الابتسامة التهكمية إلى ضحكة خافتة لتعلوا قليلا فتصبح ضحكة عالية لتليها الأخرى والأخرى لتتحول إلى ضحكات هستيرية....

أما عن مصطفى فكل ما ند عنه رفرفه طفيفة بأهدابه.... وسكون لا يكسره صوت صدى ضحكاتها الهستيرية.....

الفصل السابع عشر

ظل الأمير مصطفى على جموده لفترة طويلة ينظر لها وهو يجلس على طاولته بينما تجلس على تلك الوسائد الكبيرة أرضا تروي له كل ما مر بها من أحداث خلال الشهور المنصرمة..... إلى أن أتت إلى قصره....

صمت دام لمدة قصيرة وهي تنظر إلى عيون الأمير مباشرة دون أن يرف جفنها وقالت...

- هل صمتك دلالة على صدمتك أم على انك لا تصدقني.... هل تراني ممسوسة بالجان؟ أم فتاه فقدت عقلها؟

لمعت عيون الأمير واهتز بؤبؤ عينه قليلا ثم قال بصوت مبحوح....

- لا اعلم...

رفرفت أهداب تولين قليلا ثم تنهدت وابتسمت ابتسامة هادئة ثم قالت

-حسنا سمو الأمير.... أرجو السماح لي للذهاب إلى الحرم... احترامي...
وقفت تولين ثم انحنت له باحترام و التفتت متجهه إلى باب الجناح وما كادت تلمسه حتى صدح صوته قائلا...
-لا تخرجي من غرفتك إلا إذا أذنت لك للمجيء لي....
أغمضت عينيها باستسلام قبل أن تطرق الباب بطرقات صغيرة وهنه ... لحظات حتى فتح الحاجب لتمر تولين مخلفه ورائها رجل يتخبط بكل كلمة نطقت بها بقصتها.....
إما عن تولين فكانت تسير بين أرجاء القصر إلى غرفتها كقطعة فنية صماء لا ترى لا تسمع لا تنبس ببنت شفه...
و خلفها مباشرة مرجان أغا يلازم كل خطوة تخطوها حتى وصلت إلى غرفتها تحت أنظار جميع من بالحرم وخاصة درة التي ما أن دخلت

تولين حجرتها ركضت سريعا لها لكن كان مرجان أغا يقف كسد منيع أمام غرفتها...

وبعد قليل من الوقت بمكان أخر بالحرم حيث جناح السلطانة مهديفران كانت تجلس بأريكتها الوثيرة تفرك يدها بتوتر وعصبية بينما تنظر إلى الفراغ أمامها تفكر فيم ستفعل الآن وما يحدث خلف الأبواب بذلك القصر ..... طرقات على الباب و بعد السماح دلفت عفيفة خاتون إلى الداخل و خلفها مرجان أغا الذي انحنى باحترام وظل على انحنائه إلى أن سمحت له السلطانة أن يستقيم...

نظرت له السلطانة بترفع ثم قالت..

-حسنا يا أغا إني استمع...

ازدرد الأغا ريقه ثم ابتسم ببلاهة وهو يقول

-بأمرك يا سلطانة

رفعت السلطانة احد حاجبيها إلى اعلي و لازالت نظراتها تدل على التعال إلا انه بدأ يشوبها بعض الغضب

بينما يقف مرجان أغا وقد ارتعش جفنيه في حركة لا أراديه عصبيه وهو ينظر إلى نظرات عفيفة خاتون الثاقبة الشامتة ونظرات السلطانة...

ابتسم مرجان أغا وهو يقول

-أنا لا اعلم شيء يا سلطانة أكثر مما تعلمين كل ما أمرني به الأمير أن أراقبها باستمرار...

قطبت السلطانة قليلا تفكر ثم همست بتساؤل

-لماذا؟

ابتسم مجددا ببلاهة وهو يقول

- حقا لا اعلم يا سلطانة لكن...

- لكن ماذا؟

اقترب قليلا من السلطانة بحذر وهو يقول

-تلك الفتاه ليست بفتاه عادية يا سلطانة هنالك لغز كبير خلفها لا يعلمه سوى الأمير و... جارية تدعى درة اعتقد أنها تعلم شيء عنها...

رفرفت أهداب السلطانة وبنظرة واحدة إلى عفيفة خاتون حتى فطنت ماذا تريد السلطانة... انحنت لها باحترام هي و مرجان أغا الذي ما أن خرج حتى نظر بغضب إلى عفيفة خاتون التي بادلته نظراته بنظرات لؤم وتعال وهى ترفع احد حاجبيها... اقتربت منه قائلة

-العين بالعين والسن بالسن يا مرجان أغا أنت بدأت بالوشاية أولا....

ضاقت حدقتي مرجان أغا قليلا وهو ينظر إليها تتركه و تمشى بخيلاء وكأنها إحدى سلطانات آل عثمان زفر و هو يطلب الصبر من الله و لحق بها ليرى ما ستؤول إليه الأمور...

و بعد قليل من الوقت كانت درة تقف أمام السلطانة وهى تنظر أسفل قدميها بينما يقف كلا من عفيفة خاتون و مرجان أغا خلفها ....
و بصوت أمر هادئ قالت السلطانة
-اخبريني بكل ما تعلميه عن تولين خاتون
رفرفت أهداب درة وهى تنظر إلى السلطانة مباشرة ثم نظرت أرضا مجددا وهي تقول
-أنها مفضلة الأمير يا سلطانة
اقتربت عفيفة خاتون منها حين شعرت بغضب السلطانة وهمست قائلة
-لا تكوني حمقاء يا درة أنت أمام السلطانة ... فقط جاوبي...
ابتلعت درة ريقها فهي لا تريد أن تزل قدمها بعقبات ولا تريد السبب بضرر لتلك المسكينة.... رفرفت أهدابها تجلي تفكيرها فمصلحتها أهم من كل شيء...
نظرت إلى السلطانة التي قالت
- حسنا فلنبدأ من جديد.. كلي أذان صاغية

- لا اعلم الكثير عنها يا سلطانة رأيتها أول مرة حين تم جمعنا من قبل مجموعة قراصنة الشمال كنا قد وصلنا إلى أماسيا و بعد ليلتين التحق بنا شخص ما وكان بصحبته تولين لكن...

- لكن ماذا؟؟

- اعتقد يا سلطانة انه حارس احد أثرياء أماسيا.. لأنه حين التحق بنا سمعت انه كان هناك اتفاق مبرم مسبق مع رائد مجموعة قراصنة الشمال على أن يتم تسليمه تولين في مقابل مادي مغر.... لقد كان هناك كثير من الذهب يا سلطانة.... في مقابل آلا تعود و إن تم رفضها بالقصر يجب إن...

صمتت درة وهي تنظر إلى السلطانة التي تقطب وهي تستمع بحرص لكل كلمة.. همست عفيفة خاتون لدرة قائلة بتحذير

- أكملي حديثك...

ازدردت درة ريقها وهى تنظر لجميع الموجودين بجناح السلطانة ثم قالت بهمس

-إذا تم رفض تولين بالقصر يجب أن يقوم الرائد بقتلها... كان هذا الاتفاق الذي سمعته....

اتسعت عيني عفيفة خاتون وشهق مرجان أغا وهو يضع يده على فمه في حين زال التقطيب عن وجه السلطانة ليحل محله الوجوم....

أمرت السلطانة بإحضار تولين لكن هنا تنحنح مرجان أغا وهو ينحني باحترام إلى السلطانة قائلا

-سلطانتي أوامرك فرمان نافذ لكن...

وقفت السلطانة بعصبية ونظرت له بصرامة فارتعشت ابتسامته قليلا وهو يقول

- سلطانة لقد أمر الأمير ألا تخرج تولين خاتون من غرفتها لأي ظرف كان... حتى يأمر هو بخروجها....

- أنت تبدي أوامر ابني على أوامري يا أغا

- بالطبع لا يا سلطانة لكن... لا اعتقد أن إغضاب الأمير أكثر سيكون أمرا جيدا فهو بحالته تلك قد يتخذ قرارات قد لا نتحمل عواقبها سلطانة.... وقد يتطور الأمر كثيرا ليعلم قصر طوب كابي به... لذا...

- لذا؟!

- لذا انصح السلطانة أن تتسم قليلا بالصبر لكن أمرك بالنهاية هو ما سينفذ يا سلطانة.... تنهدت السلطانة وجلست مجددا وهي تفكر بان ذلك العنيد قد يبدى ردة فعل غير متوقعة تزيد السوء... ابتسم مرجان أغا و قد نجحت حيلته لتهدئة الموقف قليلا... إلا أن السلطانة لم تهدأ كليا حيث أمرت عفيفة خاتون سرا لاستدعاء العرافة

وبمكان أخر بحجرة المفضلات لدى الأمير.... وقفت تولين أمام تلك النافذة الصغيرة عاقدة ذراعيها أمام صدرها.. تنظر إلى حبيبات الثلج

المتساقطة بدون أن يتحرك بجسدها أنشا واحدا....

ظلت دقائق تنظر إلى الفراغ أمامها تحولت الدقائق إلى ساعات يدلف إلى الحجرة من يدلف ويغادر من يغادر لا تهتم... وبأخر الليل دخل مرجان أغا وقال بصوت هادئ
-يا خاتون إن الأمير يستدعيك
فاقت تولين من شرودها وقد اهتز بؤبؤي عينيها قليلا... حلت ذراعيها ليسقطا إلى جانبيها وهى تلتفت بهدوء... نظرت له لوهلة بثبات ثم أخفضت ناظريها وهي تنحني باحترام وبدأت السير للاستعداد دون أن تنبس ببنت شفه بينما يقف مرجان أغا بابتسامة مرتعشة يقوم بدفعها للظهور على وجهه و قد تمكن منه الشعور بالخوف لذلك الخنوع لم تكن بذلك الثبات من قبل... كانت دائما ما تضحك حين يأتي استدعاء الأمير وتركض هنا وهناك مثل

طفلة صغيرة.... تبدو الآن أكثر اتزانا... بل أكثر خضوعا ...بل إنـها جسد بلا روح...
و بعد قليل من الوقت كانت تقف بجناح الأمير تنظر أرضا وهى تنحني إليه بخضوع واحترام في حين كان ينظر لها بمزيج من الصلابة و... الحذر...
انتصبت تولين لتنظر له لوهلة فتلمح الحذر بعينيه ومجددا نظرت أرضا بهدوء دون أن يظهر على وجهها أية ردة فعل... تنحنح الأمير قليلا قبل أن يقول
-لقد علمت انك لم تأكلي شيئا مما قدم لك... فلتناولي الطعام .... معي...
انحنت تولين بهدوء وهي تقول...
-بأمرك يا أمير...
انتظرته قليلا كي يجلس هو أولا لتناول الطعام في حين كانت نظراته لها يشوبها الحذر وقليل من التعجب لنظرات عينيها الجليدية بل

لخضوعها وهدوئها... لم يعتاد ذلك النوع من ردود الأفعال منها....

جلس الأمير أولا لتجلس تولين بعده في انتظار أن يبدأ بتناول طعامه.. و بالفعل بدأ الأمير بتردد قليلا تناول طعامه في حين ظلت تولين على حالها...

توقف الأمير وهو يتنهد ثم قال

-فلتأكلي شيء ما...

نظرت إلى عينيه بثبات وقالت

- لا أشعر بالجوع ثم.. لا أريد أن أكون سبب لعدم راحتك... اعلم أنك تخشى من كوني شخص غير طبيعي... قد أكون ممسوسة أو فقدت عقلي أو...

- أنا لا أخشاك.... اجل أراك فاقدة للحس العقلي السليم لكن هذا لا يعني أني أخشاك

صمتت تولين قليلا ولازالت نظراتها ثابتة بينما قال

- هل لي بسؤال؟

- بأمرك يا أمير

تردد الأمير قليلا قبل أن يقول

- إذا كنت حقا كما قلت من المستقبل... هل تعلمين أين سأكون مستقبلا.... اعني هل سأكون حقا مثل أبي سلطانا عادلا قويا؟!

صمت مطبق بينما ظلت على ثباتها لم تتحرك بها شعرة لكن ما لم يشعر به الأمير هو اضطراب نبضها و صراخ عقلها وهي تفكر انه ها قد أتت اللحظة التي تخشاها.... البوح بالمستقبل قد يغير كل التاريخ... هل يحق لها تغير التاريخ أم ما حدث بالفعل سيحدث مجددا؟!

ماذا يجب أن تخبره الآن؟ هل تخبره انه لن يكون سلطانا؟! هل تخبره أن لقبه في التاريخ هو(الأمير المظلوم؟؟!!!)

هل تخبره انه أباه سيقتله!!!!

أغمضت عينيها قليلا ثم نظرت أرضا وقالت

-لا اعلم لست ضليعة بالتاريخ

ابتسم قليلا بتهكم لا يعلم هل تكذب بأنها من المستقبل ... أم تكذب بأنها لا تعلم... ف كلا الحالتين تكذب... شرع مجددا في تناول طعامه في صمت تام...

و بعد قليل من الوقت لم يجد احد منهما شيء ليقوله فكان الصمت هو الحل الوحيد... أمرها الأمير بالعودة إلى حجرتها و كما توقع لم يجد غير الخضوع لأمره...

انحنت تولين باحترام واتجهت إلى الباب وخرجت... لكنها وجدت عفيفة خاتون بانتظارها هي ومرجان أغا خارج الجناح... وقفت لوهلة تحملق بهم ثم ما لبثت أن أخفضت ناظريها وانحنت باحترام لهم... نظر كلا منهما للأخر ثم إليها بعجب ثم قالت عفيفة خاتون بصرامة

-اتبعيني يا خاتون

وبالفعل بدون أن تظهر ردة فعل كعادتها سارت معهم إلى جناح السلطانة مهيدفران... انحنت

تولين أمام السلطانة وانتظرت هل من جديد؟!
و كان بالفعل هناك الجديد حيث وجدت تلك المرأة العجوز ذات العيون المخيفة تتجه نحوها... نظرت تولين إليها بثبات لوهلة ثم ما لبث أن تملكها الخوف من نظراتها المريبة حيث كانت تنظر إلى عيونها وكأنها تخترقها بشكل ما فترى كل ما يدور بخلدها...
أما عن العرافة فمنذ أن رأت تولين وهى تحملق بها... تارة بذهول وتارة بسعادة وأخيرا... بحزن...
رفرفت أهداب تولين ثم نقلت نظرها إلى السلطانة وكأنها تستغيث بها أن تأمرها بشيء أو تقوم بتوبيخها أو تهديدها شيء من هذا القبيل... لكن لا شيء...
ابتعدت العرافة وعادت مجددا إلى جانب السلطانة حينها أمرت السلطانة بخروجهم وما أن خرجوا حتى قالت

-اخبريني ما بال هذه الفتاه؟ هل يجب إبعادها عن الأمير؟ اخبريني كل شيء

ابتسمت العرافة قليلا ثم قالت

-لا تقلقي يا سلطانة إنها مجرد فتاه مسالمة عادية... لكن... يجب ألا تكون بجانب الأمير... لا يجب أن تكون خليلة له هذا لا يجوز إنها مسلمة أليست كذلك؟

رفرفت أهداب السلطانة و بحرج قالت

-اجل إنها كذلك لكنها أيضا ليست خليلة الأمير

أومأت العرافة وقالت

- إذا أرسليها كوصيفة إلى قصر طوب كابي و سيمر الأمر مرور الكرام.... يجب إرسالها قبل حلول الأسبوع القادم

- إذا كانت فتاه مسالمة ولا أذى منها لماذا أرسلها

نظرت لها العرافة بثبات تام ثم قالت

-فقط أرسليها من الأفضل أن تبتعد عن هنا.... و كما تشائين يا سلطانة فلك الأمر بالنهاية...

نظرت السلطانة إلى نقطة وهمية أمامها تفكر بالأمر في حين انحنت العرافة بهدوء وخرجت... كانت تولين لا تزال تقف خارج أبواب جناح السلطانة بانتظار أمر عفيفة خاتون إما بالدخول مجددا أو بالذهاب إلى حجرتها... وحينها خرجت العرافة لتنظر مجددا إلى تولين تبسمت و هي تقترب منها ثم همست

-لا تلقي بالا لما حدث أو ما سيحدث فكل ذلك ماضي يا ابنتي...

اتسعت عيون تولين قليلا بعد أن اخترقت تلك الجملة أذنيها بشدة... تجاوزتها العرافة في اتجاه خروجها من القصر... ظلت تولين على جمودها و تلك الجملة تتكرر برأسها مرة تلو الأخرى... انتبهت من شرودها هذا حينما صدح

صوت مرجان أغا يحاول إفاقتها من شرودها قائلا

-أنت يا خاتون هل أصابك الصمم أم ماذا؟ هيا إلى حجرتك الآن هيا...

شهقة صغيرة ندت عنها وهي تنظر إلى مرجان أغا بتلك العيون المتسعة في حين يناظرها الأخر بعجب لحالها... ابتلعت ريقها بصعوبة ثم نظرت أرضا وبدأت بالسير باتجاه غرفتها... وصلت إلى حجرتها و مجددا وقفت أمام نافذتها الصغيرة تنظر تارة إلى الأشجار يكسوها اللون البيض ثم تارة أخرى تنظر إلى السماء فتجد القمر يحاول الظهور من خلف الغيوم الكثيفة...

و بجانب أخر من عالمنا كان يقف الشيخ إبراهيم بجانب محمد بشرفته يراقب السماء و هو يقول...

-مضى من العمر ما مضى ولن اخسر شيء....

نظر إلى محمد وبابتسامة باهته قال
-سأذهب إلى اسطنبول بعد غد وسأكون هناك عندما تتكون تلك البوابة مرة أخرى...
قطب محمد وهو يقول
- هل تأكدت من أن تلك البوابة ستكون باسطنبول؟
-اجل تأكدت من كل شيء.... أتمنى أن أعود إلى عالمي ... أو افني...
-لا تتمنى الموت يا شيخ تمنى فقط أن تعود لمن تحب.... نحن أيضا نتمنى أن تستطيع العودة كي تساعد غاليتنا لتعود إلينا... فلا أمل لنا سوى بالله وبك...
ضحك الشيخ إبراهيم بوهن وهو يربت على كتف محمد وبينما هما هكذا أتت عايدة من خلفهم تحمل كؤوس الشاي الساخن اللذيذ وهي تقول بصوت يملؤه القلق...

- هل أنت واثق يا شيخ من أن تلك البوابة ستتكون بالأسبوع القادم؟ ألا تعتقد انه قد تحدث تغيرات مثلما حدث من عدة أشهر؟

- لا تقلقي يا عزيزتي لقد أتقنت حساباتي تلك المرة أنا واثق...

تنهد الشيخ إبراهيم وهو ينظر لكليهما ثم ابتسم وقال

-لقد مرت الشهور بسرعة حتى أنني اشعر أني قد قابلتكما بالأمس... الزمن شيء محير جدا

ابتسم كلا من عايدة ومحمد وجلسا بالشرفة يتناولوا الشاي والبرك الساخنة حينما قال الشيخ وقد توقف عن الشرب...

-لقد تركت هذا البيت لكما...

نظر كلا من محمد وعايدة إليه بدهشة ثم نظرا إلى بعضهما....هتف محمد قائلا

- لماذا؟؟؟ كيف لك أن تتخلي عن منزلك لنا؟ لقد أقرضتنا الكثير من المال لإطالة مدة إقامتنا بالبلاد لا نستطيع رد كل هذا سيدي أرجوك...

- لا تخف يا محمد لن أطالبكما بشيء... فكما ترى لا احد معي ليرثني... وأنا ذاهب لا اعلم إذا ما كنت سأعود بيوم ما... هل سأعود إلى موطني الحقيقي... أم سأختفي بين طيات الأزمنة... كل ما اعلمه أنى بكل حال من الأحوال ذاهب... لذا هذا البيت لكما يمكنكم المكوث به حتى ينتهي أخر موعد لتجديد الإقامة... وإذا عدتم إلى موطنكم فهنالك منزل يؤويكم هنا إذا ما قررتم العودة من جديد...

هناك قالت عايدة بعد أن تملكها مزيج من الحزن والخوف

-ألا يوجد طريقة أخرى يا سيدي للتأكد من تلك البوابة لا يجب أن تذهب أنت... ثم إذا حدث وذهبت ولم تعد تولين كيف سنحاول مجددا لا أنا ولا محمد نعلم تلك الطرق

والقوانين خاصتك... و قد اقترب موعد رجوعنا لا مال يكفي لتمديد الإقامة مجددا...

امسك محمد بيد عايدة يحاول تهدئتها قليلا بينما يبتسم الشيخ ليها وهو يقول بصوته الكهل

-كما قلت مسبقا لقد مضى من العمر ما مضى يا ابنتي الغالية... ولا تقلقي بيوم ما سيشاء الله أن تعود غاليتكم أنا واثق من هذا...

نظر الشيخ مجددا إلى السماء ولاحظ آن الأمطار تبدلت فتحولت إلى بلورات ثلج تتساقط حولهم... ابتسم وتنهد وهو يتذكر كيف كان يلهو هو وجوهرهان قديما بين ذلك الثلج المتناثر بكل مكان....

و بمكان وزمان أخر كانت جوهرهان تقف أمام شرفتها تراقب الثلج يتكون طبقة فوق الأخرى على أشجار حديقتها.... تذكرت أخيها العزيز... ترى هل كان سيقف بجانبها... ترى هل كان

ليشعر بالآم صدرها... هل كان ليقف حائل دون زواج أختها عتيقة من حبيبها الغالي علي؟!
هل كان ليشعر بها في وقت لا احد يشعر بها سواها...
أخذت جوهرهان شهيقا كبيرة تكتمه بصدرها وهي تربت على قلبها المتألم ثم زفرته وهي تقول
-مهلا يا قلبي... لا تتصلب وتيأس سريعا... مضت سنوات ونحن نحاول ولن نيأس الآن... مهلا يا قلبي لا تبتئس من معاملته الجافة... فبعد هذا القحط والشقاء سيأتي الرخاء لا تقلق...

التفت جوهرهان تنظر إلى باب جناحها وهي تقول
- أين هذا الغبي وئام الم أقم باستدعائه يا الهي سيقتلني قهرا هذا الوغد... يجب أن أجد

مدخلا أخر لبيت علي اوغلو بأقرب وقت فقد باءت كل طرقي بالفشل حتى الآن....
تنهدت وهي تلقي بجسدها بقوة على أريكتها وتراقب مجددا تساقط الثلوج...

أما عن تلك الثلوج فكانت تتساقط أيضا على رأس وئام أغا المقيد وملقي أرضا فاقد الوعي بحديقة السيد علي اوغلو بينما يقف السيد علي و صديقه السيد عاكف ينظرا إليه وقد بدأت خطتهم لمعرفه مكان تولين......

الفصل الثامن عشر

فاق وئام أغا بعد عديد من الصفعات الشديدة على وجهه من قبل السيد عاكف بينما كان يجلس علي اوغلو أمامه ببرود ظاهري... كانت رؤية وئام أغا مشوية لكن شيئا فشيء بدأت الرؤية تتضح أمام عينيه كان يجلس السيد علي اوغلو وبجانبه كان يقف السيد عاكف بقبضته المضمومة بشدة الآن يعلم لما يشعر بالآم بجميع أنحاء جسده... حاول أن يتذكر كيف هو هنا الآن نظر حوله في محاولة لمعرفة المكان المتواجد به... انه بيت السيد علي لكن كيف؟! أخر شيء يتذكره هو تواجده بالسوق.... لكن ذلك الألم برأسه ذكره بتلك اللحظة حينما قام أحدهم بضربه... تحركت عينه مجيئه وذهابا بين السيد عاكف الذي تقطر عيونه شررا والسيد علي بملامحه

الجامدة... اتسعت عيونه وتسارعت دقات قلبه حتى أصبح يلهث هلعا من ذلك الموقف المحيط به....

حينها نطق بطريقه متقطعة وقال

-أرجوك سيد علي أنا لم افعل شيء خاطئ... سيدي لقد... لقد...

تحركت قبضة السيد علي ليضع سبابته على شفتيه بإشارة أمره ليصمت وئام أغا تماما... لازالت ملامحه جامدة تماما لم يتحرك بوجهه سوى حاجبين ارتفعا قليلا لأعلى ليكللا نظراته الباردة بغلاف من الصرامة تخفي تلك النار المستعرة بصدره....

و بعد عدة ثوان وبصوت كفحيح الأفعى قال السيد علي

-لا أريد سماع إلا إجابة واحدة... أين تولين؟

ازدرد وئام أغا لعابه بصعوبة تارة يحدق بتلك النظرات الباردة الموجه إليه و تارة يلتفت لينظر إلى السيد عاكف بنظراته الشرسة وفكه

المطبق بشدة و قبضتيه القاسيتين... نظر مجددا إلى السيد علي وقد وجد أن لا مفر له فقال

-أرجوك سيدي أعفو عنى أنا لا شأن لي سوى أنى أمرت فلا استطيع سوى أن أنفذ ذلك الأمر

عند هذا الحد انتفض علي اوغلو واقفا وهو يلقي بالمقعد أرضا وقد نفذ أخر قطرة صبر لديه ... اتجه إليه وجثا أرضا وقد احكم قبضته حول عنقه فحجب عن صدره الهواء وبصوت هادئ لكن يحمل بطياته غضب عارم قال

-لا أريد سماع سوى إجابة واحدة... أين هي؟

اختنق وئام أغا وقد بدأ لون وجهه بالتغير ولم يستطع قول شيء فأرخى علي قبضته قليلا ليشهق وئام بصوت عال وقد أخذته نوبة سعال بينما يشهق بشدة وهو ينظر إلى عيون السيد علي وقال

-إنها بقصر الأمير مصطفى... جارية هناك هذا كل ما اعلم سيدي

تركه علي بشدة حتى ارتطم جسد وئام بالأرض بينما يبصق عليه السيد عاكف ثم نظر إلى السيد علي الذي صعق من ذلك التفكير الشيطاني.... لقد وضعوها بمكان محكم الغلق لا يستطيع النفاذ له إلا بأعجوبة....

زفر علي بشدة وهو بضم قبضتيه بشدة حتى برزت عروق يده.... وبخطوات واسعة غاضبة ذهب إلى غرفة اجتماع الرجال بمنزله.... يسير بكل أرجائها وهو يفكر كيف يحل تلك العقدة المحكمة التي عقدتها جوهرهان بغيرتها وخبثها...

بينما لحق به السيد عاكف بعدما قيد وئام أغا بالحديقة بإحكام... نظر السيد عاكف إلى علي اوغلو بشفقه وهو يراه كالليث الغاضب المقيد بسلاسل من حديد لا يستطيع الفكاك بسهوله منها....

نظر علي إلى السيد عاكف وهو يقول
-كيف؟ كيف سمح القصر بدخولها إنها حرة... لا صك عبودية لها كيف استطاعت جوهرهان فعل ذلك

ابتلع السيد عاكف غصته واخذ شهيقا كبيرا يكتم به آهاته وأوجاعه... زفر بهدوء وهو يقترب من السيد علي قائلا

-كما وجدنا مكانها.... سنجد الطريقة للدخول لا تقلق سيد علي

تنهد علي اوغلو وهو يشرد بنقطة وهمية بحديقته الصغيرة....

و بمكان أخر كانت تولين تنظر بشرود إلى حديقة قصر الأمير مصطفى.... لا تعلم كم المدة التي قضتها بغرفتها دون الخروج أو الاختلاط بأحد... هل هي أيام؟ أسابيع؟ شهور؟ لا تعلم... كل ما تفعله هو النوم تناول ما يجعلها على قيد الحياة من الطعام و الصلاة وأخيرا التحديق بتلك الحديقة....لم يقم الأمير باستدعائها ولا

لمرة واحدة منذ أخر ليلة... ابتسمت بتهكم تتذكر ملامح وجهه حين أخبرته بحقيقتها و بتلك للحظة دخل مرجان أغا إلى الحجرة وخلفه درة تحمل من الطعام ما لذ وطاب فلا يجدوا غير الصمت.... أمر مرجان أغا درة لتترك الطعام وتخرج حاول التحدث معها لكن مجددا لم يجد ردا لحديثه سوى الإيماء بخضوع تام كعادتها مؤخرا.....

و بنفس الوقت بجناح السلطانة مهديفران كانت تجلس و بيدها أوراق ميزانية الحرم ثم وجهت كلامها أمره عفيفة خاتون وهى تنظر إلى مجموع أموال خزينة القصر....

-سنقيم حفلة يا عفيفة خاتون... القصر يبدو وكأن الحزن يحوط به من كل اتجاه... كما أنى احتاج مقابلة الكثير من زوجات وبنات عائلات أماسيا الكبرى لدعم بعض الأعمال الخيرية لذا....

أغلقت مهديفران ذلك الدفتر الكبير على تلك الأوراق بحرص ثم وضعتهم على المنضدة الصغيرة أمامها ونظرت إلى عفيفة خاتون وهي تكمل كلامها قائلة

-سأقوم بدعوة جميع عائلات أماسيا غدا... وسأجعل شلبي أفندي كاتب الأمير يرسل بدعوات إلى رجال العائلات أيضا....

انحنت عفيفة خاتون برضوخ بينما أمسكت السلطانة بكأس ممتلئ بعصير الفواكه الطازجة... ارتشفت رشفه ثم تلاعبت بالكأس بين يديها قليلا تفكر هل سيتحقق ما تبغي أم لا...

مر الوقت على الجميع ببطء وكان عقارب الساعة لا تتحرك... تولين لا تعلم ماذا يجب أن تفعل فقط تعيش بهدوء وكأنها غير موجودة... بينما علي يفكر ويفكر كيف يستطيع الدخول إلى القصر... وجوهرهان تفكر بطريقة للدخول إلى قلب علي بينما ينتظر وئام أغا الفرج من

الله... اختفى قرص الشمس تحت أنظار الأمير الواقف بشرفته يفكر أيضا بالجنون المحيط به من كل اتجاه.... مشاجراته مع أخيه سليم لا تنتهي ومكائد هرم لا تهدأ وتلك الغريبة بداخل جدران قصره لا تنفك عن مفاجئته بل صعقه بكل ما يخصها....

تنهد مصطفى و التفت حين شعر بوجود شخص خلفه... ابتسم لشلبي أفندي ذلك الرجل الذي خط الشيب ملامحه يقف خلفه ينظر أرضا

-مرحبا بك شلبي أفندي هل هناك مكاتبات من احد ما اليوم؟

انحنى شلبي أفندي بهدوء وقال بصوته الكهل

-أمرتني السلطانة أن أقوم بدعوة كبار عائلات أماسيا لحضور حفل غدا...

قطب الأمير بقليل من التعجب ثم ما لبث أن رفع حاجبيه وهو يبتسم قائلا

-في الواقع اعتقد أنها محقه

تنهد بشدة ثم قال

-حسنا شلبي أفندي فلتقم بما أمرتك به السلطانة واجلب لي كل الدعوات لأقم بختمها

انحنى شلبي أفندي في حين التفت الأمير مجددا يفكر بمبتغى والدته... يثق تماما أنها ستسعى حتى النهاية لمعرفة كل ما يخص تولين.... نظر إلى سماء أماسيا المخضبة بدماء قرص الشمس.....

مر الوقت وكسا اللون الأزرق الداكن سماء أماسيا بينما تلمع تلك النجوم بغنج بجانب ذلك الهلال المضيء الذي يطل بخجل ليعلن عن شهر جديد...

زفر علي بشدة وهو ينظر إلى السماء ....قطع شروده حينما شعر بصديقه عاكف يقف بجانبه وهو يقول

-وأخيرا يبتسم الحظ قليلا لنا....

قطب السيد علي وهو يقول

-ماذا؟

- هناك دعوة من الأمير مصطفى لحضور حفل بالقصر غدا

ظل علي اوغلو ينظر له بنظرات خاوية لكن ما لبث أن تحولت تلك النظرات إلى ابتسامة صغيرة شقت وجهه حينما نبض الأمل بقلبه.... لكنه قطب قليلا مرة أخرى وهو يقول

-لكن كيف سنتمكن من الوصول إليها؟

-سنجد حلا... لدينا الآن ما يجعلنا نعبر حصون وأبواب القصر و سنجد ما يجعلنا نمر إلى الحرم....

-سأكون أنا معبرك...

جملة صارمة بصوت أنثوي كانت سببا ليلتفت كلا من علي اوغلو والسيد عاكف لينظرا إلى جوهرهان بولغور التي تقف بباب حديقته... اقتربت بغنج وبخطوات بطيئة بينما تتواصل عينيها بنظراتها اللامعة مع عيني علي بنظراته الصلبة القاسية في حين كان يقف السيد عاكف

و قد تصلب وجهه يخفي نيران تحرق روحه ببطء...
وقفت أمام علي اوغلو تنظر له بهدوء بينما تقول
-سأساعدك
تكلل وجه السيد علي بالبرود وقد انتقل البرود تدريجيا بكل خلاياه حتى غلف صوته حينما قال
-تسببت بتلك المصائب و الآن تعرضين المساعدة؟ لماذا؟
-مقايضة!! أريد استعادة وئام أغا
ندت ضحكة سخريه عنه وهو ينظر بملل إلى السماء بينما ينظر السيد عاكف أرضا وهو يضم قبضتيه بشدة حتى ابيضت مفاصله مسيطرا على غضبه منها بل غضبه من قلبه الذي لازال يتألم بسببها...
نظر علي اوغلو لها مجددا ببرود وهو يقول
-حسنا وكيف ستكون مساعدتك؟

-تلقيت دعوة أيضا من القصر وسأكون بالحرم لذا سأتواصل معها لتلاقيك

- هل يجب علي أن أثق بك؟ أعطني سببا واحدا لذلك

-أنا لا أقول أني سأحررها... فقط سأجعلك تراها أليس هذا مبتغاك؟ تريد رؤيتها؟

اقترب علي اوغلو وقد تحول بروده إلى غضب حيث قست عيناه وهو يهمس بفحيح غاضب أمام وجهها

-لماذا تتعمدين تدمير كل شيء يسعدني؟

رفرفت أهدابها قليلا وابتسامة صغيرة بسيطة تزين ثغرها بينما تقول بصوتها الهادئ

-يبدو انك أسأت فهمي عزيزي علي... أنا لا أريد تعاستك بالطبع أريد سعادتك... لكنني لن اسمح بأن تكون تلك السعادة بسبب أنثى أخرى... اعتقد انك تفهم ذلك جيدا ومنذ زمن أليس كذلك؟

تشنجت عضلات وجهه وقد امتلأت كل ذرة بجسده بشحنات الغضب... أغمض عينيه بشده قبل أن يقول

-ماذا تريدين يا جوهرهان

اتسعت ابتسامتها و هي تقول بغنج

- غير أني أريدك؟ أريد أن يذهب وئام معي و سأجعلك تراها

ظل علي مغمض العينين وغضبه يتضاعف كلما نطقت شيء ما... بينما يقف السيد عاكف بجانبه ينظر أرضا وكما يعتصر قبضتيه كانت هناك قبضة أخرى تعتصر قلبه لينزف أخر قطرات حبه لها....

نظر علي اوغلو إلى السيد عاكف مناديا إياه... كانت نظرة واحدة من صديقه تكفي ليعلم السيد عاكف انه استسلم لتلك المقايضة....

اتسعت ابتسامة جوهرهان وهي ترى السيد عاكف يحني رأسه بإيماءة خفيفة لعلي اوغلو بينما يتحرك بخطوات حازمة إلى داخل

المنزل... التفت السيد علي لها ينظر إليها ببرود ظاهري وهو يقول

-كيف وأين سأراها؟

ابتلعت جوهرهان غصة بحلقها ثم رسمت تلك الابتسامة الهادئة على ثغرها مجددا وهي تقول

-سأحاول جذبها من بين النساء بطريقة ما وسأجعل وئام أغا يخبرك أين ومتى لا تقلق أنا أفي دائما بوعودي فأولا وأخيرا أنا من آل بولغور...

ظل ينظر لها بنظرات خاوية للحظات قبل أن يلتفت تاركا إياها وحدها تقف بمنتصف الحديقة بينما يهرول وئام أغا إليها وهو يبكي كالنساء.... وقف علي اوغلو ببابه ينظر لها للحظات تقف بالظلام بينما يركع عند قدميها خادمها المخلص وبهدوء أغلق الباب لينتهي اللقاء....

أما بمكان أخر بقصر الأمير مصطفى كانت السلطانة تجلس بجناحها بينما تقف أمامها

تولين بهدوء بعد أن لبت استدعائها مثلما أخبرتها عفيفة خاتون...
تقف بثبات وهدوء تخفض نظرها أرضا بينما تنتظر ما تأمر به السلطانة. بينما تنظر لها السلطانة بهدوء وهي تتلاعب بذلك الكأس النحاسي بين يديها و بصوت هادئ قالت
-لقد قررت أن تكوني وصيفة الثانية من بعد السيدة عفيفة يا خاتون...
رفرفت أهداب تولين بينما رفعت نظرها إلى السلطانة لتجد ابتسامة تتأرجح على جانب ثغرها بينما تكمل قائلة
-أنت تعلمين انه لن يمكن بأي حال أن تتطور علاقتك بالأمير... لذا سنضعك بمكانه مناسبة تليق بامرأة حرة مثلك هذا إن كنت لازلت تريدين المكوث بالقصر...
ازدردت تولين ريقها وهي تحاول تنظيم أفكارها بينما تقترب منها عفيفة خاتون وهي تقول

-انحني شاكرة لكرم السلطانة يا خاتون...
نظرت تولين بتردد إلى عفيفة خاتون ثم إلى السلطانة قبل أن تنحني أمامها السلطانة بهدوء وهي تقول
-أشكرك لكرمك يا سلطانة
ابتسمت السلطانة مهيدفران بسعادة وهي تقول لعفيفة خاتون
-إذا يا عفيفة خاتون فلتبدئي بإعدادها لاستلام مهامها فسيكون غدا أول اختبار لها
قطبت تولين قليلا وهي تقول
-اختبار؟
-بالطبع... لقد أمرت بتجهيز القصر غدا لاستقبال كبار عائلات أماسيا اعتقد أن القصر يحتاج لاحتفال ما أليس كذلك؟
انحناءة صغيرة من تولين بينما ترسم ببراعة بسمة هادئة على ثغرها وهي تقول
-بأمرك يا سلطانة

رفعت عفيفة خاتون حاجبيها بإعجاب لردود أفعالها الأكثر ثباتا... و بعد قليل من الوقت كانت تولين تقف بغرفة عفيفة خاتون بينما تحمل بيدها القليل من أغراضها بينما تستمع لعفيفة خاتون تقول

-سيكون مبيتك معي هنا إلى أن يقم مرجان أغا بتجهيز حجرة أخرى لك... فلا تستطيعي المكوث بطابق المفضلات بعد الآن

و بصمت أومأت تولين بخضوع بينما تضع أغراضها بأحد أركان تلك الغرفة... انتبهت مجددا حينما قالت عفيفة خاتون

-سيتم تحضير ملابسك بعد قليل لذا يجب أن تذهبي للاستحمام فلا وقت لدينا

انحنت تولين بصمت مجددا ثم خرجت من الغرفة لتنفيذ ما أُمرت به... جلست تولين بأحد المقاعد الرخامية بمكان الاستحمام وقد أحكمت المنشفة حول جسدها وبيد يشوبها الارتعاش أمسكت بذلك الطبق النحاسي لتأخذ القليل من

المياه الدافئة و بهدوء تترك تلك المياه تنساب على جسدها ليتغلغل الدفء بخلاياها... تغمض عينيها بينما مستسلمة لذلك الشعور الدفء.... حيث تجري المياه الدافئة من قمة رأسها مرورا بجسدها إلى أن تصل إلى أخمص قدميها... فتحت عينيها حينما شعرت بتواجد احدهم بالمكان... نظرت خلفها لتجد درة تقف بهدوء تنظر لها بنظراتها التي تقول جملة واحدة(كنت اعلم أن هذا سيحدث)... التفت تولين مرة أخرى تكمل استحمامها لكنها توقفت حين سمعتها تقول

-إلى متى ستتجنبين الحديث معي؟

تنهدت تولين ثم قالت

-أنا لا أتجنبك لكن لا اقوي على التحدث

- هل تم استدعائك من الأمير؟

ندت عنها ضحكة سخرية وهي تقول

-لا مزيد من الاستدعاء يا درة

قطبت درة قليلا وهي تتقدم منها ثم قالت

-لماذا؟

-لأنني الآن وصيفة ثانية من بعد عفيفة خاتون

-ماذا؟!!

سؤال صارخ ند عن درة بينما تبتسم تولين بهدوء لتقول

-كما سمعت

قطبت درة حينما رأت تلك الدموع تتكون بعيني تولين لتهبط واحدة تلو الأخرى بينما تغلق تولين جفونها تاركة العنان لدموعها الساخنة تنساب على بشرتها... اقتربت درة منها لتحتضن جسدها المبلل تربت بهدوء على كتفها وهي تقول

-أخبرتك أن مقابلاتك معه ستجلب لقلبك الألم من حيث لا تدري...

كان رد تولين هي أهات بصوت منخفض متألم... أهات صادرة من قلب تم جرحه العديد من المرات ولم يكد جرحه يشفى فيقوم احدهم

بإصابته مجددا... تشبثت بملابس درة كمان
يتشبث الطفل الباكي بملابس أمه وهي تدفن
وجهها بحضن صديقتها.... أحنت درة جزعها
تقبل رأس تولين وهي تهمس بأذنها
-الحرم مكان يحرم الحب ويعتبره من الجرائم
وعقابه إما النفي أو الموت تولين... يجب أن
تتخلي عن تلك المشاعر يجب أن تكوني
صلبة أخبرتك سابقا ومجددا سأقولها هنا
نهر متجمد يجب أن تسيري بحرص وإلا
زلت قدمك وسقطت بداخل إحدى الحفر
وحينها ستتجمدين حد الموت...
أمسكت درة كتفي تولين بقبضتيها تبعدها وهي
تنظر إلى عينيها الدامعة ثم قالت
-أنت الآن بمكانة مرموقة بالحرم... يجب أن
تستجمعي قواك الآن لمواجهة متاعب ذلك
المنصب تولين وأيضا لمواجهة مشاعرك
الخاصة

أومأت تولين بتفهم لتبتسم درة و هي تربت على كتفيها... أنهت تولين تجهيزاتها بمساعدة درة وبغرفة السيدة فاضلة كانت تقف وقد ارتدت زيها الجديد الخاص بالوصيفات.... تنظر إلى صورتها بالمرآة الصغيرة المعلقة بالحائط.... تنظر إلى تلك القبعة فوق رأسها و ذلك الوشاح المتدلي منها ليغطي شعرها تاركا فقط بضع خصلات بمقدمة رأسها... تتلمس بيدها أقمشة ردائها وهي تقف باستقامة تنتظر نداء السيدة فاضلة لتقديمها بمنصبها الجديد لكل من بالحرم.....

وبعد قليل من الوقت كانت تولين تسير خلف السيدة عفيفة بخطوات متزنة وقد كسا الجمود معالمها.... وقفت بجانب عفيفة خاتون حالما وصلتا إلى مقدمة الحرم حيث اصطفت كل الفتيات بنظام بينما يقف مرجان أغا بالمنتصف بانتظارهم وابتسامة سعيدة مشرقة تزين ثغره.... وبصوت جهوري قالت السيدة عفيفة

-اليوم أنعمت السلطانة مهيدفران على تولين خاتون بمنصب الوصيفة الثانية... من اليوم فصاعدا يتم التعامل معها بحسب الأصول وقواعد الحرم كمسئولة عنكن جميعا...
نظرت عفيفة خاتون إلى تولين ثم أحنت رأسها بإيماءة بسيطة كترحيب بها وبمنصبها الجديد... وبلحظة وجدت تولين جميع الجوار وقد انحنين برضوخ واحترام ترحيبا بالوصيفة الجديدة بينما انحنى مرجان أغا ثم استقام وهو يهلل بسعادة لها....
ابتسمت تولين بهدوء وهي تنحني باحترام إلى عفيفة خاتون التي ارتسم الرضا وقد ظهر هدوئها وارتياحها جليا على قسمات وجهها....
مرت الليلة بهدوء على جميع من بالقصر وبتوتر وقلق بمكان أخر خارج جدران القصر...
بزغ فجر جديد بينما لازالت تلك مستيقظة بفراشها تحدق بالفراغ.. استقامت تولين تنظر

إلى الفراغ أمامها و بعد قليل من الوقت وقفت ترتدي ملابسها ثم خرجت بهدوء من الغرفة دون أن تشعر بها عفيفة خاتون الغارقة بسباتها.... وقفت بمنتصف الحرم تنظر إلى الفتيات النائمات بهدوء وهي تفكر كيف ستتمكن من السيطرة عليهن جميعا... هل بداخلها تلك القوة حقا أم أنها عند أول منحنى ستسقط وتتهشم إلى قطع صغيرة مثل الزجاج....

ظلت بوقفتها تلك لوقت طويل وهي تفكر... فاقت من شرودها حينما سمعت صوت مرجان أغا يقول من خلفها

-كنت سأرتاب حقا إن كنت بفراشك حتى الآن وقد تمكنت منك ثقتك بنفسك...

التفتت تولين تنظر اله بتعجب وهي تقول

-لم افهم...

ابتسم مرجان أغا وهو يقترب منها

-لقد وكل إليك منصب مهم اجل له ميزات كثيرة لكن صعابه أكثر... كنت سأقلق إذا لم أجدك اليوم تقفين هكذا تفكرين بذلك السؤال الظاهر بعينيك (هل سأستطيع)...

رفرفت أهداب تولين وهي تقطب بتعجب بينما يبتسم مرجان أغا وهو يكمل قائلا

-وكإجابة لك... اجل ستستطيعين....

ابتسمت تولين له وهي تحني رأسها باحترام له بينما قال مرجان أغا بخبث مضحك

- هيا لتنفذي أولى مهامك... إيقاظ الفتيات....

اتسعت ابتسامة تولين وهيا تومئ له.... نظرت إلى الفتيات النائمات وقد تسلل نور الصباح من كل اتجاه لينير الحرم فيصدح صوت تولين وهي توقظ الفتيات بصرامة كما كانت تفعل عفيفة خاتون أو مرجان أغا سابقا..وقفت باستقامة بمنتصف الحرم تنظر بنقطة وهمية أمامها بثبات متجاهله نظرات الفتيات الناعسات و تعجبهن من تواجدها هنا ببكرة

الصباح بدلا من عفيفة خاتون أو مرجان أغا....
لم تمض دقائق وكان الجميع يقف بانتظام حول تولين التي تمرر نظراتها الصارمة بينهن... بينما تقف عفيفة خاتون تنظر إلى نجاحها بمهمتها الأولى... السيطرة على ذاتها أمام الفتيات بل وإخضاعهن لها....
مضى اليوم بين أروقة الحرم حيث تتعلم تولين كل شيء عن مهام وظيفتها من حماية الفتيات ومعرفة كيف تقوم بتوزيع المهام عليهن وكيفية التعامل مع جميع الأغوات بالقصر... مر الوقت وقد اقترب الغروب.... نظرت تولين إلى ذلك الضوء الأحمر الذي بدأ بالظهور رويدا رويدا ليزين جدران الحرم.... وبينما كانت تشرد بغروب الشمس أتاها نداء من تفكر به حينما سمعت مرجان أغا يقول
-تولين خاتون... إن الأمير يريد رؤيتك

رفرفت أهدابها وقد تسارع نبض قلبها...
ازدردت ريقها ثم أومأت بهدوء إلى مرجان أغا وتحركت بخطوات ثابتة إلى حيث ينتظرها الأمير مصطفى...
ظلت للحظات واقفة بثبات أمام جناحه تغمض عينيها وهي تستجمع قواها. رفعت كفها الصغير وبخفة طرقت ذلك الباب الكبير ليفتح بهدوء لها فتدلف وهي تنحني احتراما للأمير...
لحظات من الصمت لم تدم طويلا حيث قطعها الأمير وهو يقول
-أرى انك متأقلمة بطريقة رائعة مع وضعك الجديد
رفعت تولين رأسها تنظر إلى الأمير بعد سماعها لتلك الجملة بنبرته الساخرة... رفرفت أهدابها حين رأت النظرات الباردة تكلل عينيه بينما كانت ملامحه تضاهي الصخور صلابة..
أحنت رأسها مرة أخرى وهي تقول

-وهل يجوز إلا أن اشكر كرم ونعمة السلطانة علي؟ سيكون من الجحود إذا قابلت الكرم بالرفض سمو الأمير...

-تغيرت كثيرا

رفعت تولين نظرها إليه وهي تقول

-تعلمت جيدا انه ما أن أخطو خارج حدودي سيكون الجلد عقابي كما انه تختلف أنواع الجلد هنا.... وقد قمت بتجربتها جميعا...

ابتسم الأمير بسخرية وهو يقول

-أخبرتك انك بأمان معي... لكنني لم استطع حمايتك جيدا

انحنت تولين باحترام له وهي تقول

-كلنا بحمايتك سمو الأمير وكلنا بالتأكيد بأمان

تقدم الأمير بغضب وهو يمسك كتفيها بشدة لترفع تولين رأسها تنظر إلى شرارات الغضب المتطايرة من عينيه بين يهمس أمام وجهها بغضب

-لا تكوني مثلهم... لا تكوني بلا شعور... أريدك كما كنت أكثر حيوية... أكثر إشراقا... بلا خوف

اهتز بؤبؤي عينها قليلا قبل إن تغمض عيونها وهي ترسم ابتسامة هادئة على شفتيها وتقول

-أنا بالفعل بلا خوف الآن سمو الأمير

فتحت عينيها تنظر مباشرة إلى عينيه وهي تكمل قائلة

-حينما نختبر شتى أنواع الألم... حينها نصبح بلا خوف

أخفضت رأسها وهي تمنع قلبها من التحكم بها ثم قالت بصوت هادئ يشوبه الصرامة والجدية

-سمو الأمير هنالك أشياء كثير يجب علي الاعتناء بها لذا اسمح لي بالذهاب...

رجفة بسيطة بجفنيه وهو ينظر لها بحزن بينما يبتعد عنها عدة خطوات قبل أن يغلف وجهه بقناع الصلابة والجمود مجددا وهو يأمرها بالخروج... انحنت تولين باحترام وتراجعت

عدة خطوات ثم التفتت قبل أن تهبط تلك الدمعة الهاربة من مقلتيها....
خرجت بهدوء وثبات كما دخلت لكن ما أن أغلق الباب خلفها حتى شعرت بوهن بجميع أنحاء جسدها... لم تجد من يكون سند لها سوى ذلك الحائط الصلب ونفسها... أغمضت عينيها بشدة لتسقط عبرة أخرى من روحها المتألمة لكنها ومجددا تمالكت نفسها حينما رفعت يدها تمسح أثار تلك العبرة بينما تتنفس بهدوء وهي تذكر نفسها بمسؤوليتها...
مر الوقت حتى بدأت سيدات العائلات بالوفود إلى حرم قصر الأمير مصطفى...
كانت تولين تتحرك بخفة وهدوء وثبات بين النساء تارة تأمر بعض الجوار لتقديم المأكولات الشهية والمشروبات الطازجة و تارة أخرى تذهب إلى مطبخ القصر تتأكد من أن كل شيء معد وجاهز للتقديم. وقفت تولين تراقب خلية النحل خاصتها و العمل يدور بها

بنظام محدد التفتت تنظر إلى مرجان أغا لكنها تصلبت فجأة حينما رأت زوج من العيون اللامعة تنظر لها... تتذكر تلك العيون جيدا... إنها جوهرهان بولغور...
رفرفت أهداب تولين وهي تنظر لها بصدمة بينما تبادلها الأخرى نظراتها ببسمة هادئة... ازدردت تولين ريقها ورسمت بسمة هادئة على وجهها بينما تنظر لها بهدوء ثم أحنت رأسها لها بتحية و احترام... اتسعت ابتسامة جوهرهان وهي تومئ لها بتحية صغيرة. بينما كان هناك زوج من العيون يناظرهما خلسة.... التفتت تولين برباطة جأش تكمل مهامها تحت أنظار جوهرهان الخبيثة و عفيفة خاتون التي تراقب كل شيء بصمت تام....
و بمكان أخر بالقصر كان علي اوغلو يقف باستقامة وبجانبه السيد عاكف وقد انضموا للجمع الغفير من رجال عائلات أماسيا بانتظار دخول الأمير مصطفى.... وما هي إلا لحظات

حتى دخل الأمير مصطفى وخلفه صديقه الأمين يحيى طشاليجه لي بينما انحنى الجميع احتراما وترحيبا بوجود الأمير....
جلس الأمير أولا ثم أشار للجميع بالجلوس....
كانت نظراته وبسماته تشمل الجميع إلا انه كان يطيل النظر باتجاه احدهم... باتجاه علي اوغلو....
مر الوقت مريحا للبعض بقدر ما كان صعبا ومريعا لبعض أخر... كانت تولين تقف أمام المطبخ الملكي حينما سمعت صوت ذكوري يقول
-مرحبا يا خاتون..
التفتت تولين لتجد وئام أغا يقف خلفها وابتسامة تشق وجهه و هو يقول
-لدي مكتوب لك... تفضلي
نظرت له تولين بحذر وهي تقطب قليلا بينما تسأله
-من أنت؟ هل أنت تابع لأحد ضيوف السلطانة

رجف جفني وئام أغا وهو يقول بصوت مرتعش قليلا

-ألا تتذكرينني يا خاتون؟ إنني وئام أغا خادم السيدة جوهرهان بولغور...

انفراجه بين شفتيها وهي تومئ وقد تذكرت وجهه... نظرت إلى المكتوب الصغير بين يديه وهي تسأله

- هل هذا من السيدة جوهرهان؟

-اعتقد انك ستعرفين ممن هو ما أن تقرئيه مهمتي هي توصيله لك فقط..

ظلت تنظر له بريبه قليلا قبل أن تمتد يدها لأخذ المكتوب حينها انحنى وئام أغا بهدوء وانصرف و قد تمت مهمته على أكمل وجه.... رفرفت أهدابها قليلا ثم فتحت ذلك المكتوب لتمر عينيها على الكلام بسرعة بينما تتسع عينيها مع كل حرف و قد تزايد نبضها حتى أصبحت تلهث... زاغ نظرها وهي تضع يدها

فوق جبينها وهي تهمس قائلة (يا الهي ما العمل)
و بعد قليل من الوقت كانت تولين تقف أسفل احد أشجار الحديقة الخاصة وهي تنظر يمينا ويسارا باضطراب وقد بردت أطرافها لا تعلم هل لان الثلوج تساقط أم لأنها بقمة توترها وخوفها الآن... أعادت تلك الكلمات بالمكتوب بعقلها مرارا وتكرارا حيث كان المكتوب من علي اوغلو...
لا تعلم كيف علم أنها هنا ولا كيف أمكنه كتابه هذا المكتوب حيث طلب منها انتظاره بالحديقة الخاصة ... وانه اشتاق لها.... قبض قلبها بشدة لترفع كفها الصغير تضعه فوق صدرها وهي تربت بهدوء في محاولة للتهدئة قلبها...
-لازلت تفعلين تلك الحركة....
التفت تولين بسرعة حين سمعت صوت علي اوغلو خلفها مباشرة.... اتسعت عينيها وهي تلهث وكأنها كانت تعدو لأميال... ابتعدت

للخلف خطوة وهي تزدرد لعابها بصعوبة بينما ترفرف أهدابها بشدة وهي تقول

-لماذا أنت هنا سيد علي؟

قطب علي اوغلو قليلا وهو ينظر لحالتها المذعورة... كان يتخيل هذا اللقاء بشكل أخر... بشكل أكثر سعادة ربما... تقدم عدة خطوات بينما امتدت يده يمسك كفها البارد المرتعش وهو يقول بصوت هادئ

-جئت لتحريرك مما أنت فيه تولين... جئت لإعادتك إلى مكانك الذي تنتمين إليه...

-وما هو هذا المكان تحديدا؟

شهقت تولين بشدة وهي ترى الأمير مصطفى خلف علي اوغلو وقد نطق بتلك الجملة بصوت هادئ ظاهريا لكن يحمل بطياته شيء أخر... شيء لم تفهمه تولين اهو غضب أم تهكم وسخرية...

أفلتت يدها من بين كفي علي اوغلو وقد جف حلقها وشعرت بالدماء تهرب من جسدها... شعرت أنها ستفقد وعيها بأية لحظة.... تقدم الأمير بهدوء ليقف بين كلا منهما تارة ينظر إلى علي اوغلو الذي ينحني باحترام أمامه وتارة ينظر إلى تولين بعينيها المتسعة وفمها المنفرج وصدرها الذي يعلو ويهبط بشدة جراء تنفسها السريع.....

الفصل التاسع عشر

عدة لحظات لم يتغير وضع أحدا منهم... علي اوغلو ينحني باحترام و تولين تقف بصدمة وقد دب الرعب بأوصالها بينما يقف الأمير بوجهه الذي يضاهي الجلمود بصلابته وهو يتذكر مرجان أغا وهو يقوم بإبلاغ يحيى طشاليجه لي بأن السيد علي اوغلو يجتمع بأحد وصيفات الحرم...

و كان أول من قطع هذا الصمت مجددا هو الأمير مصطفى حينما قال بصوت قوي ومخيف

-اجل لم تخبرني أين هو هذا المكان سيد علي؟

تنحنح علي اوغلو وهو يرفع نظره إلى الأمير وقال

-سمو الأمير هناك ما يجب أن تعلمه... تلك الفتاه ليست بجارية

رفع الأمير حاجبيه لأعلى وقد غلف الجليد عينيه وهو يقول

-ثم؟

رجفة بسيطة بجفني علي اوغلو وهو يقول

-سمو الأمير كيف لامرأة حرة التواجد هنا كجارية

-إنها ليست مجرد جارية كما ترى... إنها وصيفة بالحرم

اقترب منه عدة خطوات ليكون حاجزا بيه وبين تولين ثم وقف أمامه مباشرة وهو يقول بصوت هادئ وابتسامة تزين ثغره

-و أنت قد تخطيت كل الحدود بالاجتماع بها خلسة... وبقصري....

و بصوت جهوري غاضب قام الأمير باستدعاء يحيى طشاليجه لي ثم قال له

-أرجو أن تقوم بإيصال السيد علي اوغلو إلى خارج القصر.... الآن....

ضاق صدر علي اوغلو وهو يشعر بالعجز أمام الأمير... زادت وتيرة تنفسه ثم هتف قائلا...

-اعتقد أن لها الحق بالاعتراض على هذا الوضع أليس كذلك؟

نظر كلا من علي اوغلو و الأمير إلى تولين التي تقف بذعر وكلاهما ينتظرا ردها....

شعرت وكأن خنجر يغرس بمعدتها... رفرفت أهدابها قليلا قبل أن تقول بأنفاس لاهثة بصوت هادئ متردد لا يكاد يسمع

-اعتقد أن هنا هو مكاني المناسب الآن....

ظهر شبح ابتسامه على وجه الأمير بينما اتسعت عيني السيد علي وقد صعقه ما سمع من فمها.... همس قائلا

-لماذا تولين؟

قبض الأمير يده بشدة حتى استحال لونها إلى الأبيض بينما قالت تولين

-اعتقد أن هذا الأفضل للجميع...

نظر الأمير له وهتف قائلا

-اعتقد انك تتجاوز الكثير من الحدود الليلة سيد علي اوغلو....
نظر علي اوغلو إلى الأمير ولازالت معالم وجهه تتسم بالاندهاش والغضب ولمحة من الحزن تمر بعينيه... أغلق عينيه بشدة وهو يضم قبضتيه بقوة وهو ينحني باحترام ثم ولى مدبرا ولم يعقب بينما تبعه السيد يحيى....
استندت تولين إلى تلك الشجرة الكبيرة بجانبها تحاول التقاط ما تبقى من أنفاسها بينما ينظر الأمير لها والى لهاثها و استنادها إلى الشجرة تستمد منها بعض القوة للوقوف....
تنهد وهو يرخي قبضتيه... امتدت يده في تردد إليها لكنه حزم أمره وامسك رسغها بشده يجذبها لتسير خلفه بينما هي تتبعه دون مقاومة وكل ذلك تحت أنظار عفيفة خاتون التي تقف بعيدا تراقب بصمت....
ظلت تسير خلفه من رواق إلى الأخر لا تفكر إلى أين ستذهب تفكر فقط بأنها كانت على شفا

جرف هار و قد أنقذت للتو بطريقة ما... دخل الأمير جناحه وما أن أغلق الباب حتى صدم جسدها بشدة إلى باب جناحه وهو يهتف بها قائلا

-كيف... كيف تجرأت على مقابلة رجل غريب بقصري؟ اللعنة عليك تولين

انهي جملته وقد لكم الحائط بجانبها بقبضته بينما تقف أمامه و قد امتلأت كل خلاياها ذعرا....

لم ينتهي لهاثها و لم يهدأ نبض قلبها... تنظر مباشرة إلى عينيه... نظراتها المذعورة والزائغة تتقابل مع نظراته الغاضبة المضطربة... ثوان أم دقائق ظلا هكذا لا تعلم لكن تصلب جسدها وتوقفت عن التنفس حينما جذبها بشدة لتكون ساكنة بين أحضانه.... أنفاسه الهادرة تلمس عنقها بينما يقول بهمس معذب

-لن تكون لرجل أخر تولين... لا استطيع تحمل هذا...
ارتجف جسدها وقد عادت تتنفس مجددا بعد سماع تلك الجملة... حاولت الابتعاد عنه وما أن شعر بحركتها المتملصة بين أحضانه حتى حررها... ابتعدت بضعة خطوات لتلتصق بذلك الباب مجددا بينما اقترب منها مستندا بيده على ذلك الباب لتكون محتجزه بين جسده وبين الباب... مرت عينيه بكل أنش بوجهها... تارة ينظر بعيونها اللامعة المتسعة ذعرا ودهشة... وتارة أخرى ينظر إلى شفتيها المرتعشتين المنفرجتين.... ينظر إلى بشرتها البيضاء المتوردة بخجل.... ندت آهة منه وهو يضع جبهته على كتفها ويهمس قائلا
-حقا لا استطيع التحمل....
قطبت تولين بيأس وكادت تبكي مما هي فيه لا تكاد تخرج من حفرة لتقع بأخرى.... بالكاد جمعت شتات نفسها وألجمت قلبها وقد قررت

أن تكون صلبه... قوية أمام كل العواصف لكن ها هي الآن قد أطيح بها كورقة شجر ضعيفة بفصل الخريف....

و مجددا حاولت استجماع قواها واستعادة صلابتها المغدور بها وهي تقول

-سمو الأمير أرجو أن تأ....

ابتلعت ما تبقى من الحروف حينما استقام الأمير مصطفى وهو يضع إصبعه على فمها بينما يقول

-اعلم... يجب أن تعودي الآن إلى الحرم...

ابتعد عنها بينما يستعيد صلابته وقوته وهو يقول

-اعلمي فقط انه إذا ما حدث شيء مثل هذا مجددا لن أكون بمثل هذا التساهل معه مرة أخرى... ولا معك...

أومأت متفهمة بينما انحنت احتراما له حينما التفت عنها وهو يأمرها بالانصراف....

و بمكان أخر حيث ترتكز عربات الضيوف وقف علي اوغلو يكاد يحترق بنيران غضبه... وغيرته... يتذكر حينما التفت ينظر إليها مرة أخرى ليجد الأمير يمسك بيدها ساحبا إياها خلفه بينما تسير معه بكل خضوع... زفر بشدة وهو يغلق عينيه في محاولة لمحي ذلك المشهد من مخيلته...

-كيف سار الأمر؟

التفت علي اوغلو ينظر إلى جوهرهان بولغور خلفه وهو يهتف بها قائلا

-أنت... أيتها ال....

-سيكون من العار أن تسبني سيكون بمثابة انك تسب عائلة زوجتك الراحلة... لقد أخبرتك سأدعك تراها... فقط تراها... وها قد رأيتها و بأفضل حال... حقا لم أكن أتخيل أنها ستنال ذلك المنصب المرموق بالحرم كم هي فتاة محظوظة

ظل السيد علي ينظر لها بغضب حتى جاء السيد عاكف من خلفه يقول بصوت هادئ
-لقد تم إعداد عربتنا سيدي يجب أن نغادر
نظر علي اوغلو لها ثم قال بصوت جليدي
-مبارك لك نجاحك الباهر....
التفت عنها يركب عربته مع صديقه بينما تتبعه بعيونها و بسمة صغيرة ترتسم على ثغرها....
مر اليوم بين نظرات النساء لبعضهن و غناء الجوار بالحفل بينما تمر تولين وبعض الوصيفات الأخريات بينهن بثبات خارجي...
أشرق صباح يوم جديد و قد بدأت تولين بمهامها المعتادة بينما بمكان أخر تقف عفيفة خاتون تقص على مسامع السلطانة كل شاردة وواردة بالحفل أو بالحديقة الخاصة....
قطبت السلطانة بشدة وهي تقول
-يا الهي... آل بولغور والسيد علي اوغلو كيف يمكن أن تكون لهم علاقة بها... أنا لا

افهم شيء... ثم تصرف مصطفى هذا بسببه قد يزداد الأمر سوءا...
تنهدت السلطانة مهيدفران وهي تمسد جبينها بأناملها ثم التفتت إلى عفيفة خاتون وهي تقول
-بشتى الطرق يا عفيفة يجب ألا تختلط تلك الفتاة بالأمير مجددا يكفينا ما نمر به من مكائد هرم....
أومأت عفيفة خاتون بتفهم ثم انحنت أمام السلطانة بخضوع....
بينما بمكان أخر كانت تولين تقف تحدق بذلك الضوء الأبيض البارد المتسرب إلى الحرم... تشعر بالأسى وقد غاب الأمير عن القصر برحلة للصيد كما غابت الشمس عن السماء وقد حجبتها الغيوم ليسيطر الشعور بالبرودة...
و بزمن أخر بمكان أخر كان الطقس البارد هو الشيء الوحيد المشترك... وقف الشيخ إبراهيم بولغور أمام قصر طوب كابي ينظر إلى سماء اسطنبول وقد تلبدت بالغيوم.... نظر إلى

خريطته ينظر حيث المكان المحدد بها حيث ستتكون تلك البوابة مجددا....
سار عدة أمتار حتى أصبح بمنطقة نائية... التفت يمينا ويسارا ينظر هل من احد فلم يجد سواه....
تقدم عدة خطوات ثم وقف فجأة حينما شعر بقوة ما تجذبه... تسارع نبض قلبه... وأخيرا وجدها... بعد عمر طويل وجد تلك البوابة اللعينة... ابتسم بدهشة وسعادة لتتحول تلك الابتسامة إلى ضحكات سعيدة وهو غير مصدق انه على بعد خطوات صغيره سيعود إلى المكان و الزمان الذي ينتمي له....
قبض قلبه للحظات حينما تذكر كلمات محمد وعايدة وقلقهم عليه... ابتسم و قد شعر انه حقا سيشتاق لذلك الثنائي.... أغمض عينيه يستنشق الهواء حوله وقد غمر السلام روحه.... فتح عينيه بهدوء وهو يتقدم عدة خطوات بسيطة لشعر بعدها بقوة كبيرة تختطفه

بعد أن ظهرت هوة سوداء ابتلعته واختفت وكأن شيئا لم يكن....
بعد عدة لحظات أو ربما بضعة ساعات فتح الشيخ إبراهيم عينيه بصعوبة وهو يشعر بالآم مبرحة بجسده... حاول النهوض لكنه لم قوى لم يستطع سوى أن يجثو أرضا...
حاول الاستقامة إلا انه تمكن منه نوبة من السعال لم تنتهي إلا حين بصق الشيخ إبراهيم دماءً من فمه...
زاغ بصره وهو يرى الدماء تلطخ يده....
ازدادت آلامه ولم يقوى على التنفس بسهوله وكأن هنالك صخرة كبيرة تجثو على صدره... استلقى أرضا ينظر إلى السماء الملبدة بالغيوم حينما شعر بأولى قطرات المطر تهبط على بشرته بهدوء... ابتسم الشيخ إبراهيم وهو يرى احد حراس القصر يقترب منه بملابسه العثمانية القديمة التي ظل ينظر لها لسنين

طوال بالمتاحف والأفلام الوثائقية التاريخية أملا انه بيوم ما سيعود لذلك الزمن مجددا... سعل الشيخ إبراهيم مجددا وقد سال الدم من فمه وانفه بينما يقف الحارس وهو يهتف به بجزع بينما يبتسم الشيخ إبراهيم وهو يقول

- عدت أخيرا...

لحظات قليلة لتصدر منه شهقة صغيرة ليفارق الحياة بعدها تاركا جسده الفاني ملقى خارج أسوار قصر طوب كابي ليدفن بوطنه وزمنه... أما بداخل جدران ذلك القصر المهيب وبجناح كبير جلس السلطان سليمان خان أمام زوجته السلطانة هرم و قد تمكن الغضب من قسماته وبيده مكتوب مرسل من مجهول و به معلومات بأن الأمير يحتجز بقصره فتاة مسلمة حرة....

الفصل العشرون و الأخير

مرت الأيام برتابة بقصر الأمير... مع كل صباح يتمنى قلبها أن تصادفه اليوم لكن يتحكم عقلها بها فيمنعها من التواجد بمكان قد تصطدم به صدفة...

و بيوم كانت تقف تولين بجانب مرجان أغا بالمطبخ الملكي تتضاحك معه بينما يتأكد مرجان أغا من أن طعام السلطانة أصبح جاهزا...

لكن انتبهت تولين لصوت جلبة بالحرم....

قطبت قليلا وهي تنظر إلى مرجان أغا الذي ردد ذكر الله وهو يقول

- الله الستار ماذا هناك ببكرة الصباح؟

زاد تقطيبها وهي تقول

- لا اعلم هيا بنا

وقفت تولين بمنتصف الحرم ليصدح صوتها تأمر الفتيات بالصمت والهدوء ليصمت الجميع

بعد أن كان يعم الجو بالصخب.... نظرت إلى طابق الوصيفات لتجد حراس الحرم أمام حجرتها... نظرت إلى مرجان أغا بتساؤل ليرد عليها قائلا

-اقسم لك لا اعلم شيء يا خاتون

صعدت تولين الدرج المؤدي إلى طابق الوصيفات وبعد أن وصلت إلى حجرتها وقفت بهدوء تنظر إلى الحراس يقوموا بقلب حجرتها رأسا على عقب....

لم تعقب... لم تعترض فقط انتظرت حتى انتهوا تماما... وقف الحراس وقد انحنوا أمامها باحترام حينها سالت بكل صرامة وجمود

-عن أي شيء كنتم تبحثون؟

تنحنح قائد الحرس وهو يقول

-نعتذر يا خاتون لكن تلك هي القواعد هنالك خائن بالحرم لذا يجب أن ندقق بكل من كان يتبعه....

قطبت تولين باستغراب وهي تسأله

-شخص مقرب مني أنا؟! خائن؟ من؟
-إنها درة
جحظت عيني تولين بشدة حينما سمعت صوت عفيفة خاتون الصادر من خلفها وهي تقول تلك الجملة البسيطة التي كانت لها اثر الصاعقة عليها... التفت تولين تواجهها بتقطيب ونظرات مستنكرة و ابتسامة تهكمية ارتعشت على شفتيها وهي تقول
-من؟ درة؟ لا بالطبع لا إنها... إنها فتاة مسالمة ولم تؤذ احد
-لقد آذتك أنت شخصيا يا خاتون
ندت عنها ضحكة مستنكرة ولازال تقطيبها مستمر وهي تقول
-ماذا؟ هذا لم يحدث بالطبع هناك أمر خاطئ....
قطعت عفيفة خاتون كلامها حينما امتدت يدها بمكتوب صغير وهي تقول
-انه موجه لك يا خاتون

نظرت تولين مطولا إلى المكتوب القابع بيد عفيفة خاتون ثم امتدت أناملها الباردة المرتعشة تمسكه لتلتفت السيدة عفيفة بينما يسير خلفها حرس الحرم تاركين خلفهم تولين تقف بصدمة ودهشة عارمة وهي تفتح المكتوب لتقرأ كلمات كانت كلطمه قوية موجهه إلى قلبها...

تقرأ كلمات وحروف خطت بيد درة تعتذر لها عن كذبها بأنها مجرد جارية بينما كانت جارية مدربة لتكون جاسوسة بحرم قصر الأمير.... تعتذر لها عن أنها أوشت بها لقصر طوب كابي... تعتذر لها عما حدث سابقا وعما سيحدث بعدما علم قصر طوب كابي بتواجدها هنا وهي مسلمة حرة.... وأخيرا تخبرها أنها أحبتها بصدق وأنها لم تكن تتمنى أن تكون تلك نهايتهم....

رفرفت أهداب تولين وهي تقطب بغير فهم... تشعر وكأنها طلاسم وليس مجرد رسالة اعتذار لا تستطيع استيعاب ما كتب بها.. تكذب ما تقرؤه وما سمعته من عفيفة خاتون... ألقت بالمكتوب أرضا وهي تمسك ردائها الطويل وتركض بين أروقة القصر تحت أنظار الجوار والأغوات المتباينة بين دهشة و أخرى مشفقة لحالها... تتذكر ضحكاتهم معا ولهوهم... تتذكر تشاركهم للوجبات سرا حينما كان يتم عقابها بحرمانها من الطعام... تتذكر مساندتها بأصعب أوقاتها... تتذكر تطيبها لجراحها حينما تم جلدها... تراها أمام عينها التي تجمع بها الدمع وهي تردد على مسامعها النصائح و الكلمات المعسولة التي تطيب بها جراح قلبها...

ظلت تولين تركض حتى خرجت إلى الحديقة الخاصة لتجد جسد ممد أرضا مغطى بأقمشة باليه ملطخة بالدماء... تباطأت خطواتها ونظراتها المتسعة ثابتة على ذلك الجسد الهامد

أمامها... أصبحت تتنفس بصعوبة وكأن الهواء ينفد من حولها... وقفت أمام الجسد للحظات قبل أن يطيح الهواء بتلك الأقمشة فيتضح جسد درة المخضب بدمائها وقد برأت روحها إلى ربها....

ارتعشت قدماها فلم تقوى على الوقوف لينهار جسدها وهي تجثو أرضا بجانب جثمان درة... تنظر إليها بمعالم مصعوقة وهي تهمس باسمها... ارتعش تنفسها وهي تشعر بأن هنالك صخرة قابعة على صدرها... زادت شهقاتها وكأنها تحاول إقحام الهواء إلى صدرها وهي تدعوها بهمسات متتالية مرتعشة إلى أن تحولت تلك الهمسات إلى صراخ قوى مؤلم للقلب.... انطلقت صرخاتها تشق الصمت الذي غلف القصر بأكمله وقد شاركتها السماء حينما أفرجت عن أمطارها الغزيرة....

و من خلف برج عال كان يقف مصطفى يراقبها... يراقب صراخها الجريح النابع من أعماق روحها الممزقة إربا.... يراقب انهيار جسدها أسفل الأمطار... يستمع إلى استغاثاتها بالله من تلك الآلام التي تشعر بها...

أغمض عينيه بشدة و صدى آهاتها يتردد بين جدران القصر وجدران قلبه.....

وبعد قليل من الوقت اقترب مرجان أغا من تولين المبللة حتى النخاع... وجهها غارق بمياه الأمطار أم بدموعها لا تعلم....

امسك مرجان أغا كتفيها وهو يجذبها بعيدا عن جسد درة بينما انخفض صوت تولين شيء فشيء حتى اختفى تماما حينما غابت عن الوعي....

لا تعلم ما هذا الظلام المحيط بها من كل جانب... أين هي؟ سمعت تولين صوت ما... لكنه بعيد للغاية.... بدأ ذلك الصوت أن يتضح

شيئا فشيء... انه صوت أجراس... يشبه أجراس الكنائس....
حاولت تولين فتح عينيها ببطء وقد بدأ ذلك الصوت بالابتعاد مجددا حتى اختفى تماما حينما فتحت تولين عينيها وقد استعادت وعيها....
نظرت جانبا لتجد مرجان أغا يقف ينظر لها بحرص وحينما لاحظ حركة جفونها ابتسم بسعادة بينما تجلس بجانبها الحكيمة وقد ابتسمت بسعادة وهي تقول
-حمدا الله على سلامتك يا خاتون..
كانت الآم رأسها مبرحه فلم تقوى على قول شيء سوى أنها أغمضت عينيها مجددا بتعب وتزدرد ريقها بصعوبة...
و بعد قليل من الوقت بعد أن غادرت الحكيمة الغرفة جلس مرجان أغا بجانب فراش تولين وهو يقول
-لقد دب الرعب بقلوبنا يا خاتون لقد فقدت وعيك لمدة يومين... يا الهي أصابتك حمى

وكنت بعالم أخر تهزين بأسماء كثيرة تبكي تارة وتتألمي تارة أخرى كدنا نظن انك ستفقدين روحك

قال أخر كلماته وهو يقرص أذنه ويطرق الخشب بعدها لتبتسم تولين بتهكم من تلك العادة القديمة... حاولت الاستقامة فلم تقو على ذلك وحدها... قام مرجان أغا بمساعدتها حينما دخلت عفيفة خاتون إلى الغرفة وهي تقول بخوف

-كارثة

انتفض مرجان أغا ذعرا وهو يذكر الله بينما تقطب تولين وبعينيها نظرات متسائلة لتقول لها عفيفة خاتون

-يمكنك وضع ما حدث بكفة ميزان وما سيحدث بالكف الأخرى لتعلمي أن ما حدث لا يعد شيء... إنها القيامة

قطبت تولين باستغراب لتكمل عفيفة خاتون قائلة

-إن السلطان سليمان بطريقه إلى هنا بعد أن علم بوجود مسلمة حرة محتجزة بالقصر كما أخبرتهم تلك الخائنة درة

كست عيني تولين نظرات الأسى لا تعلم هل هو أسى لذكرى صديقتها أم أسى لان تلك هي الحقيقة أنها استغلتها وخانتها لأجل مصلحة شخص أخر....

استقامت تولين تجلس على ذلك الفراش ثم أغمضت تولين عينيها ثم أسندت رأسها إلى يديها وهي تتنهد بتعب وإرهاق...

بعد قليل من الوقت خرجت تولين تسير بوهن بين أروقة القصر تحني رأسها باحترام وتحية لكل من يقابلها... تباطأت خطواتها حتى سكنت بمكانها وهي تحدق به يقف باستقامة أمام جناح السلطانة... عدة لحظات مرت وهي تحدق به قبل أن تنحني أمامه باحترام بينما كان ينظر إليها بنظرات خاوية لا تعبير بها قبل أن يلتفت وهو يدلف إلى الجناح....

مر الوقت قصيرا على البعض طويلا ومقلق على البعض الأخر في انتظار وصول السلطان...
اصطفت جميع الفتيات بالحرم بهدوء بينما وقفت الوصيفات بترتيبهن و بجانبهم الأغوات لاستقبال سلطان العالم....
و بمجرد أن قام الحاجب بالإعلان بصوته الجهوري عن حضور السلطان حتى انحنى الجميع... إلا أن تولين تصلب جسدها منذ أن رأته بحضوره الطاغي... لحيته البيضاء تناقض عباءته السوداء التي ترفرف مع كل خطوة من خطواته الثابتة الشامخة والقوية... وقفت تحدق بتلك العيون الحادة خاصته كم مر من الزمن على تلك العيون لتبدو بذلك الشيخ إلا أنها لا تزال قوية كعيني الصقر.... عيني الصقر التي لمحتها وهي تحدق به... نظر لها

في بادئ الأمر بلا مبالاة إلى أن تقابلت نظراته الباردة بنظراتها الثابتة...

بينما يمر كل ما قرأت وعرفت عنه أمام عينيها... انجازاته فتوحاته وتلك القوانين الصارمة خاصته... جسارته وحبه للمعرفة... وأخيرا عدالته التي لم تخنه إلا مرة واحدة... وعند ذلك الخاطر نظرت إلى الأمير للحظات قبل أن ينتفض جسدها انتفاضة طفيفة حين فاقت من شرودها على ضربة قوية خفية عن الأعين بجانبها.... نظرت إلى عفيفة خاتون التي تنظر لها بجانب عينيها شذرا في حين تطأطئ رأسها أمام سلطان العالم سليمان خان....

رفرفت أهدابها وقد عادت للواقع مجددا لتحني رأسها بخضوع بينما لازالت نظرات سليمان تتفحصها جيدا.... رفع نظره عنها لينظر إلى ولده مصطفى الذي بلغ به التوتر مبلغه لكن صلابته كانت كافية للتستر على ذلك الشعور

بداخله... لم تختلف السلطانة مهديفران كثيرا عن ابنها فكانت تشعر أن جميع من حولها يسمعون دقات قلبها المماثلة لصوت طبول ما قبل الإعدام....

و ببرود تام أزاح سليمان نظره عنه ثم ذهب في طريقه إلى الحديقة الخاصة... وقف للحظة بجانب عفيفة خاتون و بنبره جليدية قال

-فلتجعليها تلحق بي إلى الحديقة...

انحنت عفيفة خاتون باحترام في إشارة لتلبيه رغبته..... في حين أغمضت تولين عينيها وهي تشعر وكأن جهازها التنفسي قد توقف عن عمله فلا يستطيع إدخال أنشا واحدا من الهواء إلى رئتيها... و ما أن مر السلطان حتى رفعت تولين رأسها تنظر أمامها بنظرات خاوية.... تحركت مقلتيها تنظر إلى الأمير مصطفي الواقف قبالتها وقد قبض كفيه بشدة بينما تغلف عيونه نظرة جليدية التي بالتأكيد ورثها عن أبيه.....

وبهدوء ورباطة جأش تامة ذهب خلف والده السلطان سليمان ومن خلفه السلطانة مهديفران التي ألقت سهام نظراتها السامة المميتة إلى تولين... أخفضت تولين نظرها و هي تستجمع قواها

فاقت من شرودها على صوت السيدة عفيفة وهي تقول

-اعتقد انك يجب أن تتجهزي للقاء السلطان

أغمضت تولين عينيها بيأس وهي تتنهد و قد نفذت طاقتها بالكامل....

مر وقت ليس بالكثير بين شد وجذب بين عفيفة خاتون ومرجان أغا بينما تجلس هي بوهن أمامهم شاردة بعالم أخر تارة تفكر بدرة وهي تسأل نفسها هل كل ما كان منها حقا كذب؟!

وتارة تفكر بالأمير وذلك الوجه الذي لم تراه منه مسبقا.... تفكر هل يمكن أن يتغير تاريخه؟ أم ستعاد الكرة مرة أخرى؟!

بعد قليل من الوقت كانت تولين تقف أمام الباب الداخلي الذي يفصل الحرم عن الحديقة الخاصة مغمضة العينين وقد داهم عقلها مشهد صديقتها وهي جثة هامدة خلف ذلك الباب... فتحت عيونها حينما سمعت صوت الأقفال يفتح لتخطو تولين إلى حديقة بثبات.... ظلت تتقدم حيث ذلك المقعد المهيب و ذاك الجالس عليه حتى وقفت أمامه ثم انحنت له باحترام وظلت مطأطئه الرأس في انتظار ما سيحدث لها.... طال الصمت بينما يجلس السلطان يحدق بها بنظرات جليدية بينما يعبث بلحيته بأنامله... و كأنه يفكر أو يحلل شيء ما...

-سمعت انك مسلمة حرة...

جملة قصيرة بصوت قوى رغم كبر سنه... رفعت رأسها تنظر إليه ثم أخفضت نظرها أرضا وهي تومئ بهدوء قائلة

-اجل مولاي

- هل تم إجبارك على المكوث هنا؟

ابتسامة واهنة ترددت على شفتيها فهي تعلم مصدر ذلك الكلام... أغمضت عينيها وهي تأخذ شهيقا وتخرجه بهدوء وهي تقول بهدوء

- لا... لم يتم إجباري بل تم إنقاذي.. لكن...

ارتفع حاجبي السلطان بينما لازالت نظراته مغلفة بالثلوج كالتي تتساقط حولهما بتلك الحديقة....

ينظر لها بهدوء وهي تجثو أرضا أمامه وهي تقول

- أرجو من مولاي أن يرسلني بعيدا... أنا فتاة مسلمة حرة بلا أهل بلا موطن بلا ملجأ غير رحمة الله ورحمتكم ملاوي السلطان...

مرت عدة لحظات بينما تغمض تولين عينها بانتظار حكمه....

- أنت وصيفة بالحرم... مكانة لها احتراما... ولم يتم إجبارك على التواجد هنا إذا لماذا؟

ارتفعت عيني تولين تنظر إلى عينيه بنظرات منكسرة ضائعة وهي تقول

-إني اضعف من مواجهة كل تلك الصراعات.. تحملت الكثير بالفعل ولا استطع بعد الآن.... أرجو أن يتم إرسالي كخادمة بعيدا...

أومأ السلطان وهو يحدق بوجهها لبعض الوقت ثم أشار بيده أمرا إياها بالذهاب.... استقامت تولين ثم انحنت باحترام وهي تتراجع بضعة خطوات للخلف قبل أن تلتفت وهى تدلف مجددا إلى القصر... سكنت عدة لحظات حينما رأت الأمير يحدق بها قبل أن يدلف إلى الحديقة ... أخفضت نظرها واستمرت بالسير إلى أن وصلت إلى الحرم مجددا...

مضت دقائق أو ساعات وهي تجلس بغرفتها بينما تهال عليها الأسئلة والاستفسارات من عفيفة خاتون تارة ومن مرجان أغا تارة أخرى

ليكون ردها هو الصمت التام وهى تحدق بنقطة وهمية من خلفهم...

حل الليل وقد خرجت تولين من مخبأها لممارسة مهامها مجددا... وبينما تسير بعد أن تمت مهمتها بتقديم الطعام للسلطانة وقفت ساكنه حينما رأته يقف ينظر لها... اقترب عدة خطوات منها ثم امسك ذراعها ساحبا أيها خلفه بينما تتبعه باستسلام... وقف بأحد الأروقة الخالية يحدق بها تنظر أرضا بخضوع تام...

-تريدين الرحيل إذا.... لماذا؟

رفعت نظرها إليه بهدوء وهي تقول

-لقد قتلتها دون شفقة... دون أن يرف لك جفن راقبت موتها

-إنها خائنة... وكان أول من لحق به الأذى هو أنت

ازدادت وتيرة تنفسها وقد قست نظراتها حينما هتفت قائلة وهي تشير بإصبعها لنفسها

-أجل... لقد آذتني... خانت ثقتي و أوشت بي .... لكنك أيضا قمت بإيذائي....

قطب الأمير بشدة ينظر إلى هذا الوهج بعينيها... أهو أثر ضوء الشعلة بجانبها أم أنها نيران بداخل عينيها حقا... بينما كانت تلهث في محاولة لضبط أعصابها والسيطرة على غضبها وهي تقول

-لم تعطني حق الغضب منها...لم استطع الصراخ بوجهها بأنها كاذبة خائنة.... والآن لا استطيع أن اغفر لها فأترحم على روحها ولا استطيع كرهها.... ذلك العقاب كان لكلانا...

هدأت أنفاسها وقد فرت دمعة خائنة من بين جفونها وهي تزدرد لعابها بصعوبة... وبصوت واهن قالت

-أنا لا استطيع تحمل هذا الألم بعد الآن... لا استطيع احتمال الفقدان مرة أخرى....

ابتعد الأمير عدة خطوات للخلف وقد شرد بمعنى كلماتها بينما ترفرف أهدابه قليلا ليلتفت مغادرا بهدوء... ظلت تنظر إلى ظهره لفترة قبل أن تستسلم قدماها الواهنة للجاذبية فتسقط أرضا بينما كان هناك احدهم يقف برواق أخر يشاهد كل شيء بعيون الصقر خاصته بهدوء وصلابة...

مر يوم تلو الأخر حتى أشرق صباح جديد على تولين التي تسير بين أروقة الحرم بملامح صلبة لا تعبر عن شيء... لا حزن لا فرح ... فقط لا شيء.... بينما تكللت عيونها بتلك النظرات الخاوية الجليدية....

تشعر بازدياد ذلك الثقل على صدرها ليمنعها من التنفس بحرية.... تنهدت بشدة في محاولة لإقحام بعض الحواء بداخل صدرها..

-أصبحت تتنهدين كثيرا يا خاتون...

سكنت خطواتها حينما سمعت تلك الجملة من خلفها... التفتت بهدوء لتواجه عفيفة خاتون

التي تنظر لها بهدوء بينما تتقدم منها تولين وهي تضع يدها على معدتها المتألمة ثم انحنت باحترام وهي تقول

-احترامي لك عفيفة خاتون

- هل لازالت معدتك تؤلمك

ابتسمت تولين قليلا وهي تقول

-أنا بأفضل حال ممكن يا خاتون....

أومأت عفيفة خاتون ثم قالت

-حسنا إذا... إن السلطانة تأمر باختيار فتاة مناسبة والبدء بالتحضيرات لأدخلها إلى الخلوة...

رجفة بسيطة بجفنها هو كل ما ند عنها وهي لازالت تنظر أرضا باحترام بينما هبط قلبها بمعدتها ليشاركه آلامه ويصرخا معا بداخل جوفها.... أومأت باحترام وهي تقول

-بأمر السلطانة.... احترامي لك عفيفة خاتون...

استقامت تولين وهي تنظر أمامها بثبات وبدأت قديمها بالتحرك بخطوات ثابتة باتجاه ردهة الحرم تحت أنظار عفيفة خاتون التي شابها بعض الحزن....

وبعض قليل من الوقت كانت تولين تقف بهدوء تنظر إلى ذلك الجمع الغفير من الفتيات الجميلات... ترى أي منهن تختار لتكون رفيقة من سيطر على بالها وقلبها لليال....

أغمضت عينيها وهي تأخذ شهيقا كبيرا تكتمه بداخل صدرها لعدة لحظات ثم تزفره بهدوء....

تقدمت بضعة خطوات لتقف أمام فتاه صغيرة ذات عيون واسعة كبيرة وملامح رقيقة...

ابتسمت تولين بهدوء وهي تقترب منها بينما تقول

-ما اسمك؟

نظرت الفتاة إلى تولين وهي تقف و تنحني بهدوء وهي تهمس بخوف

-ادعى روميساء يا خاتون...

أومأت تولين بهدوء ثم التفتت وهي تقول

-اتبعيني....

ازدردت روميساء ريقها بخوف وهي تنظر إلى الفتيات حولها والى ظهر الوصيفة تولين التي تمشي بخطوات ثابتة لتتبعها روميساء بخطوات مترددة متعثرة...

وقفت تولين أمام حجرة الاستحمام لتلتفت إلى روميساء وهي تقول

-ادخلي الآن للبدء بالتحضير...

نظرت روميساء إلى باب حجرة الاستحمام الغير مغلق وقد تسلل بخار المياه من خلاله...

ازدردت لعابها بينما تنظر إلى تولين مجددا بعيون واسعة لامعة وبخوف سألتها

-تحضير لأجل ماذا يا خاتون؟

تنهدت تولين وهي تنظر إلى الجوار بداخل حجرة الاستحمام وهن يقفن بانتظار المفضلة للدخول.

نظرت لها مجددا ثم قالت

-ستدخلين الليلة بخلوة مع الأمير... لذا يجب البدء الآن....

رفرفت أهداب روميساء وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيها بينما تقف تولين أمامها تراقب انفعالاتها السعيدة بهدوء خارجي بينما تنهار روحها داخل جسدها دون أن يشعر احد سواها....

وبعد قليل من الوقت وقفت تولين تنظر إلى روميساء بحجرة بردائها الأبيض الملائكي يزين قدها الرشيق... تنظر إلى شعرها المصفف جيدا و إلى زينتها الرقيقة الناعمة... تنفست بهدوء بينما تأمرها أن تتبعها....

و بينما كانت تسير تولين باتجاه جناح الأمير وقلبها يصرخ مستنجدا بالله ألا تراه.... كانت روميساء تحلق خلفها بسعادتها و هي بطريقها إلى الأمير....

وقفت تولين أمام تلك البوابة التي شهدت على الكثير والكثير... أمرت الحاجب بإبلاغ الأمير

بحضور المفضلة.... انحنى حاجب الباب ثم فتح تلك البوابة ليظهر الأمير وهو يقف بعيدا بالقرب من تلك الشرفة الواسعة المزينة بضوء الغروب....

دخلت روميساء بهدوء بينما ينبض قلبها بسعادة صاخبة داخل قلبها....

ظلت تولين تنظر له بنظراتها التي تضاهي الثلج ببرودته قبل أن تمتد يد الحاجب لغلق البوابة مجددا....

التفتت تولين تعود إلى الحرم غير مدركة لتلك العيون التي لمحتها تحملق به قبل أن يغلق الباب..... أغلق عينية لعدة لحظات قبل أن ينظر إلى تلك الفتاة الجميلة التي تجثو أمامه أرضا تقبل عباءته و تنتظر أمره....

و بمكان بالحرم حيث غرفة تولين الصغيرة... تمسك بيدها ذلك المكتوب الصغير من درة.... تمر عينيها على حروفه بينما تهمس قائلة

-كم احتاج وجودك بجانبي الآن يا درة.... لا اقو على كرهك ولا اقو على مسامحتك....
فاقت من شرودها حينما سمعت بضع طرقات على بابها... فتحت بابها لتجد عفيفة خاتون تقف أمامها وبجانبها مرجان أغا أحنت تولين جزعها باحترام لتقول السيدة عفيفة.....
-أبدئي بتجهيز أغراضك الخاصة.. لقد أمرت السلطانة بنقلك إلى قصر طوب كابي....
رفرفت أهداب تولين وهي تشعر أنه أخيرا دخل الهواء إلى رئتيها... انحنت بهدوء أمام السيدة عفيفة ثم تحركت بآلية تامة تجمع أغراضها بهدوء تحت أنظار مرجان أغا الحزين... أنهت تولين كل شيء ثم وقفت تنظر إلى الحرم... تنظر إلى المكان الذي قضت به ليال كثيرة بعضها بارد وقاس وبعضها دافئ وجميل.... تنهدت وهي تنظر إلى الرواق المؤدي إلى جناح الأمير وقد ارتسمت ابتسامة على جانب ثغرها

-كنت سعيدة بوجودك يا خاتون

التفتت تولين تنظر إلى عفيفة خاتون التي نطقت بتلك الجملة الغير متوقعة بصوت أكثر دفئا...

اتسعت ابتسامة تولين وقد انتقلت تلك البسمة إلى عيونها وهي تنظر إلى عفيفة خاتون الذي ارتسم الحزن على قسماتها.... اقتربت تولين عدة خطوات وقامت باحتضانها... تصلبت عفيفة خاتون عدة لحظات بمكانها قبل أن ترتفع يدها بهدوء لتربت على كتفي تولين....

خرجت تولين من الحرم و سارت بتلك الردهة الطويلة حتى وصلت إلى الحديقة... وقفت تنظر إلى القصر من الخارج وهي تشعر بخواء بداخلها....

تنهدت وسارت حتى وصلت إلى تلك العربة الخشبية وصعدت بها وهي تتذكر أخر مرة قامت بالصعود لعربة مماثلة حيث ذهبت إلي تلك النزهة...

أسندت رأسها إلى تلك النافذة الصغيرة بالعربة وقد بدأت العربة بالتحرك بطريقها إلى العاصمة الأستانة...

مر النهار وحل الليل بطريقها إلى أن بزغ فجر يوم جديد....

خطت تولين بهدوء خارج العربة تنظر إلى هذا المكان العتيق المهيب... قصر طوب كابي...

هنا تم حكم الدولة العلية العثمانية لأجيال وأجيال... ابتسمت بتهكم حينما تذكرت أنها بيوم ما كانت تريد زيارته وها هي الآن ستعيش به...

قام الأغا المرافق لها بإشارة لها لتتبعه تولين بهدوء... تسير بين الحدائق تارة وبين أروقة واسعة طويلة تارة أخرى حتى وصلت إلى الحرم العثماني...

نظرت إلى الفتيات وقد قامت الوصيفة الثانية بإيقاظهم للتو... نظرت تولين إلى الوصيفة

للحظات قبل أن تنحني لها باحترام... اقتربت الوصيفة منها وهي تقول

-إذا أنت الوصيفة القادمة من قصر أماسيا... حللت أهلا

انحنت تولين باحترام لها وهي تقول

-أشكرك يا خاتون

ابتسمت الوصيفة وهي تقول تشير للأغا بأخذها إلى غرفتها....

مر يوم تلو الأخر وكل يومٍ بحال... مرت أيام كانت تقام بها الحفلات بالحرم كاحتفال زواج السلطانة ميهرماه أو كالاحتفالات الصغيرة التي تقام كلما رزق أحد الأمراء بطفل وكان أولهم الأمير مصطفى... كلما أنعم الله عليه بطفل كانت تقام حفلة ويتم توزيع الذهب على الجوار والحلوى ليعم الهناء والسرور بقلوب البعض و الحقد بقلوب البعض الأخر إلا هي تشعر بذلك الوخز بقلبها مجددا ومجددا و مجددا....

ومرت أيام أخرى باردة وقاسية حينما يقام حداد ما وخاصة حينما توفى الصدر الأعظم إبراهيم باشا.. مرت أيام و شهور وسنين وهي وصيفة بحرم قصر طوب كابي...

جلست بهدوء لسنين كالطيف لا تفعل شيء سوى أنها تراقب ... فقط تراقب... تراقب السلطانة هرم بسلطتها العالية وذكائها الذي كتبت درة به أشعار وحقا لم تقصر...تراقب السلطانة مهريماه ابنتها التي ورثت من جمالها الكثير ومن ذكائها أكثر... تشاهد ذكاء وفطنة الأمير جيهانكير... ذلك الذي اخرج من دائرة الصراع على العرش بسبب مرضه المزمن... لم يكن بتلك البشاعة بالرغم من كونه احدب... لم يكن يجيد الكثير من الفنون القتالية لكن قلمه كان كالسيف بيده فكانت كلماته قادرة على إحياء احدهم وقتل الأخر...

تعلم مصير كل منهم لكنها فقط تراقب فكما قالت العرافة لها من قبل... كل ذلك ماضي...

و بيوم سمعت ثرثرة بخروج الأمير جيهانكير لأحد المخيمات مع السلطان بالحرب ضد الصفويين...

قبض قلبها وسؤال واحد يطرق ببالها... هل حان الموعد؟!!!

جلست بجانب تلك الشمعة التي تضيء غرفتها الصغيرة وهي تفكر هل تفعل شيء ما؟ هل تحاول إنقاذه؟ وإذا حاولت هل ستوفق أم انه سيموت بطريقة ما أو بأخرى....

أغمضت تولين عينيها بشدة وقد تحكم قلبها الذي وأدته لسنين طوال بعقلها... استقامت من فراشها وأضاءت تلك الشمعة الصغيرة خاصتها... جلست بجانب تلك المنضدة الصغيرة أرضا و أمسكت بالقلم الخشبي ووضعته بالحبر وبدأت بكتابه أول رسالة منها موجهه إلى الأمير مصطفى...

لم تكتب أشعارا ولا بثت أشواقها... فقط جملة واحدة (لا تذهب).... فقط كلمتان... طوت

المكتوب بحرص بعد أن جف الحبر ووضعته بعلبه مخصصة...

و بعد أن ظهرت شمس اليوم الجديد وقفت تولين وقد بدأت بمهامها اليومية إلا أنها كانت تراقب مرور الأغا المسئول عن المراسيل... ما أن رأته يقترب من الحرم حتى ركضت إليه وهي تقول

-يا أغا... هنالك مكتوب أريد إرساله إلى أماسيا...

نظر الأغا إليها ثم قال

-لمن بقصر أماسيا؟

رفرفت أهداب تولين قليلا قبل أن تقول بثبات

-إلى الأمير مصطفى...

أومأ الأغا وهو يأخذ المكتوب من يدها ويضعه بحقيبته الواسعة...

مرت أيام قليلة بقلق وترقب حتى استيقظت بيوم لتجد العواصف شديدة و قد حجبت الغيوم

الشمس ليعم ذلك الظلام المقبض... وقفت تولين تنظر إلى الطعام الذي سيقدم إلى السلطانات حينما دخل احد الأغوات وهو يصرخ قائلا

-لقد تم إعدام الأمير مصطفى...

جحظت عينيها وتوقفت عن التنفس للحظات...جاء الخبر الذي كانت تخشاه... لقد ذهب... لا تعلم هل قرأ رسالتها أم لا... لا تعلم هل قرأها ورغم ذلك أطاع والده...

كانت تعلم أن ما حدث سيحدث مجددا لكن كان هناك شعلة من الأمل تضيء قلبها وهي تقول انه لا بأس من المحاولة....

سارت تولين كالمخدرة بين أروقة الحرم تنظر إلى بكاء النساء بكل مكان... تسمع صرخات السلطانة مهريماه المتألمة لفقد أخيها... وصلت إلى حجرتها وبيد مرتعشة فتحتها تحتمي بها...

هبط جسد تولين أرضا بجانب فراشها وهي تنظر امامها بعيون متسعة ونظرات زائغة و كلام الشيخ إبراهيم عن موت الأمير مصطفى يتردد بذهنها...

كيف وصل بذلك الجيش الذي يتكون مما يقارب الثلاثين ألف محارب من أطراف قونية إلي المعسكر في بورصة حيث كان يتم الإعداد للحرب الثالثة مع الصفويين.. جمعهم لأجل الانضمام إلى والده بالحرب مع الصفويين إلا أن الدسائس والأكاذيب كانت أسرع من تبريراته.. و فات الوقت حيث اقتنع السلطان سليمان أن ابنه سيتمرد عليه ويقتلعه من السلطة بأن ينضم لصفوف الصفويين....تتذكر كيف استدعاه والده بخيمته بالمعسكر وأمر الجلادين بخنقه بذلك الرباط الحريري القاسي...

أغمضت تولين عينيها بشدة بينما تشعر أنها لا تستطيع التنفس من ذلك الألم بقلبها.... استندت

بيدها أرضا وقد ازدادت شهقاتها وهي تحاول انتزاع بعض الهواء لإقحامه بداخل صدرها... تهدجت أنفاسها وقد بدأت دموعها بالهطول... قبضت يدها بشدة تلكم موضع قلبها بقوة بينما انطلقت آهات متتالية هامسة من حنجرتها لتعلوا رويدا رويدا فتصبح صرخات متقطعة بصوت جريح وهي تغمض عينيها بشده ودموعها تسير انهارا على وجنتيها ترثى روحها النازفة حد الموت....

مر يوم تلو الأخر والحداد مستمر بالقصر... وحدها فقط من كانت تعلم أن ذلك الحداد سيمتد لفترة أطول...

انتظرت و انتظرت حتى جاء اليوم... اليوم الذي لم يعد يتحمل جسد الأمير جيهانكير الحزن أكثر... منذ أن تم التفريط بأخيه وهو يغرق بأحزانه... يمتنع عن اخذ الدواء و الطعام.... حتى توفى حزنا وكمدا....

وقفت تولين باستقامة تنظر إلى جثمان الأمير يخرج من القصر يحمله الأغوات بينما تبكي السلطانة مهريماه انهارا من الدموع... تبكي أخاها مصطفى و أخاها جيهانكير ووالدتها التي غابت عن الوعي منذ أن علمت بفقدها لأخر أبنائها...

وقفت تولين بردائها الأسود و وشاح اسود يغلف وجهها... تقدمت إلى إن وقفت بثبات بمنتصف الحرم بينما يتحرك الجميع حولها دونها... فيبكي من يبكي ويصرخ من يصرخ...وبخطوات بطيئة تحركت إلى أن خرجت من الحرم... ودون أن يشعر بها احد من حراس الحرم تسللت حتى خرجت إلى الحديقة... ظلت تحدق بالمكان حولها لوهلة قبل أن تطلق لقدميها العنان وهي تسابق تلك الرياح العاتية حولها...

بدأت السماء الملبدة بالإفراج عن قطرات المياه بينما تركض تولين وخلفها يركض احد حراس القصر في محاولة لمنعها من الفرار....

تركض غير عابئة بما خلفها أو أمامها بينما يمر أمام عينيها كل الأحداث التي رأتها بذلك الزمن... تارة ترى نفسها تائهة بظلام غابات أماسيا ثم تتذكر موت السيدة فاضلة ببيت علي اوغلو وتلك أالليال بالقبو وهي محتجزة... تتذكر اختطافها وبيعها إلى حرم قصر الأمير... وكأنها تركض هاربة من تلك الأحداث وما فيها من حزن وألم حتى أن تلك الذكريات السعيدة الصغيرة أصبحت مؤلمة... زلت قدمها وسقط أرضا ليظلم الكون حولها....

حاولت فتح عينيها لكنها تشعر بالآم برأسها وطنين بأذنيها شديد.... مهلا هذا ليس طنين... انه صوت أجراس مجددا... فتحت تولين عينيها ببطء لتجد الرؤية أمامها ضبابية... امتعضت و أغمضت عينيها مجددا وهي تضع يدها على

رأسها ومجددا حاولت فتح عينيها تنظر حولها لتجد أنها تستلقي أرضا بالقرب من كنيسة....

قطبت تولين بشدة وهي تحاول الاستقامة لكنها تشعر بآلام مبرحة... نظرت خلفها تستبين أين ذلك الحارس فلم تجد أحدا...

أغمضت عينيها بشدة وقد تمكن الألم منها... لكنها فتحت عينيها حينما شعرت بتواجد احدهم رفعت رأسها لتجد رجل يتحدث معها بلغة غريبة عنها بينما تنظر له تولين ثم تعاود النظر إلى الكنيسة وهي تسأل بهمس واهن

-أين أنا؟ ما تلك الكنيسة؟

قطب الرجل قليلا وهو يجلس القرفصاء بجانبها بينما يهمس قائلا بلغة عثمانية ركيكة

- هل أنت من العثمانيين

رفرفت أهداب تولين وقد دق قلبها ببطء وثبتت حدقتيها على وجه ذلك الرجل بينما يقرع إنذار برأسها... همست مجددا تسأله

-أين أنا؟

نظر الرجل بكل اتجاه حوله قبل أن ينظر لها مجددا وهو يقول بتعجب وهدوء...

-أنت بالقسطنطينية... عاصمة الروم...

اتسعت عينيها بشدة وهي تحدق به ... امتنع الهواء عن الدخول إلى رئتيها بينما سكن جسدها تماما... مرت عدة لحظات بينما تدور بعقلها عدة أسئلة... القسطنطينية؟!!! الم يتم تغير اسمها إلى الأستانة أو إسلام بول بعد أن فتحها السلطان محمد الفاتح؟!!! ثم إن الروم أو تلك الدولة البيزنطية انتهت و حل مكانها الدولة العثمانية.... وعند هذا الخاطر سكن جسدها تماما كتمثال حجري... شهقة صغيرة خرجت من بين شفتيها المرتعشة المنفرجة... نظرت حولها ثم إلى تلك الكنسية لتقول بهمس مرتعش يتسم بالجزع

-ليس مجددا....

تمت بحمد الله